بسمِ اللهِ الرّحمن الرّحِيم

دراسة تحليلية
لشخصية الرسول محمد ﷺ
(من خلال سيرته الشريفة)

الاستاذ الدكتور

محمد رواس قلعه جي

باحث في الموسوعة الفقهية بالكويت - سابقاً
استاذ في جامعة الملك سعود بالرياض - حالياً

دار النفائس

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

مقدمة

الحمد للّه نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده اللّه فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب السيرة العطرة وعلى آله وصحبه وسلم وبعد . . .

لا نعلم رجلًا في التاريخ منذ أن خلق اللّه تعالى آدم عليه السلام إلى يوم الناس هذا قد نقلت لنا تفاصيل حياته ، ودقائق تصرفاته كما نقلت تفاصيل حياة رسول اللّه محمد صلى اللّه عليه وسلم ودقائق تصرفاته .

ولا نعلم سيرة رجل قد نُقحت وحُقّقت ومحِّصت ، كما فُعِل بسيرة رسول اللّه .

ولا نشك بأن ذلك كله قد كان بأمر اللّه تعالى وقَدَرِه، لأنه سبحانه قد نصب رسوله محمداً قدوة للبشرية كلها ، وَجَعَل سيرته دِيناً يَلتزم به المؤمنون حيث قال تعالى في سورة الأحزاب/ ٢١ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لكم في رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وإن الاقتداء بهذه السيرة والالتزام بها ، عنوان حبِّ العبد للّه ، المستدعية حبَّ اللّه لهذا العبد المقتدي بسيرة الرسول المتلزم بها قال تعالى في سورة آل عمران / ٣١ : ﴿ قُلْ إنْ كُنتم تُحِبُّونَ اللّه فاتّبِعوني يُحْبِبْكم اللَّهُ وَيَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم ﴾ .

فحفظُ سيرة محمد صلى اللّه عليه وسلم من الضياع والتحريف هو حفظُ

لمصدر قويم من مصادرِ هذا الدين الذي تكفل اللّه تعالى بحفظه من الضياع والتحريف إلى يوم القيامة .

وشأن هذه شأن سائر مصادر هذا الدين ـ الإسلام ـ إنها تحمل الكثير من المرونة وتتّسع لوجوه متعددة من التفسير ، وما قرأها المرء مرة بإمعان ، ثم عاد وقرأها بإمعان إلّا استخرج منها فهماً جديداً لم يخطر له على بال من قبلُ .

وإني من تجربتي الشخصية معها ما نفضت يدي من كتاب أو بحث أُعِدُّه في السيرة إلّا قفزت إلى ذهني فكرة لبحث آخر جديد ، حتى لكأني أشعر بقدرتي على قراءة السيرة النبوية بألف وجه ، كل وجه منها يختلف عن الوجه الآخر .

وبعد أن أنجزت كتابي « قراءة جديدة للسيرة النبوية » شعرت بإلحاح داخلي غريب بالرغبة بالكتابة في السيرة من جديد بأسلوب تحليلي ، ولكن انشغالي بإعداد الحلقات المتوالية في « سلسلة موسوعات فقه السلف » منعني فترة من الكتابة ، وبقي الأمر كذلك أكثر من سنتين ، إلى أن كلفتني جامعة البترول والمعادن بتدريس السيرة النبوية، فاغتنمتها فرصة، وقمت بهذه الدراسة التحليلية لشخصية الرسول صلى اللّه عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة ، وألقيتها محاضرات على الطلاب .

وقد كان هدفي من هذه الدراسة ثلاثة أمور :

الأمر الأول : متعلق بشخص رسول اللّه ، وهو: أداء بعض ما وجب علينا تجاه هذا الرسول العظيم ، بإبْراز جوانب فذة من شخصيته العظيمة .

والأمر الثاني : متعلق بالأمة الإسلامية بخاصة ، وبالإنسانية بعامة ، وهو : إخراج كنوز من الهدى والنور من الصفات الإنسانية والاجتماع والسياسة والحرب ، لا يجوز أن تبقى الإنسانية بعامة جاهلة بها أو محرومة منها، ولا يجوز لأمة الإسلام بخاصة أن تولي وجهها إلى غيرها ، لأنها تشكل جزءاً من شخصيتها المتميزة .

والأمر الثالث متعلق بشخصي ، وهو : إرواء بعض حبي الكبير لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

ولئن كنت قد نجحت في تحقيق الهدفين الأولين ، فإني اعترف بفشلي في تحقيق الهدف الثالث ، لأني كنت كلما أنجزت فصلاً من فصول دراستي هذه زاد حبي ضراماً ، مما اضطرني إلى وضع نقطة النهاية على كرهٍ مني ، لأني أيقنت أن الحب الخالد الكبير لا يخبو نوره ولا تنطفىء جذوته ، ولا يزيده التفكير إلَّا أواراً .

ولئن كنت قد وضعت نقطة النهاية في دراستي هذه ، حرصاً مني على عدم زيادة حجم الكتاب المقرر إلَّا إني ما أراني إلَّا أني سأعود. . . عـودة المحب إلى المحبوب ، وعودة الغريب إلى أرض الوطن .

أسأل اللَّه تعالى أن يمتـعني بشفاعة الحبيب محمد صلى اللَّه عليه وسلم .

الظهران ٢٧ رمضان المبارك سنة ١٤٠٧

أبو المنتصر

محمد رواس قلعه جي

البيئة التي نشأ فيها النبي ﷺ

لا بد لكل دارس لأية شخصية من البدء بإلقاء ضوء على البيئة التي نشأت فيها تلك الشخصية ، لما للبيئة من أثر في تكوين شخصية الإنسان ، إذ الإنسانُ ابنُ بيئته شاء أم أبىٰ .

وأنا لا أريد بقولي « الإنسانُ ابنُ بيئته » أن الإنسان ينشأ عبداً لهذه البيئة ، يأخذ بأعرافها ويطبّق تقاليدها مهما كانت عليه هذه الأعراف والتقاليد من السموّ أو التدنّي ، إذ الواقع يخالف هذا ، فكثير من الناس ينشأون في بيئة ثم يثورون على هذه البيئة ويتنكرون لأعرافها وتقاليدها ، وإنما أريد بقولي « الإنسان ابن بيئته » أن البيئة هي التي تساهم إلى حد كبير في تكوين شخصية الإنسان ، فهو إن عايشها فهي التي ساهمت في صناعة هذه المعايشة ، وإن ثار عليها فهي التي ساهمت في صناعة تلك الثورة .

وهذا ما دفعني إلى عقد هذا الفصل عن البيئة التي نشأ فيها الرسول صلى اللّه عليه وسلم مصدِّراً به هذه الدراسة التحليلية لشخصية الرسول العظيم محمد بن عبد اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه .

١ ـ الحَالَة الدِّينِيَّة :

إن من يستقرىء الأديان التي كانت موجودة في المنطقة العرَبية في زمن

رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يجدها خليطاً عجيباً من الأديان .

أ ـ **عبادة الكواكب** : ففي اليمن وحران وأعلى العراق ، كانت فئات من الناس يعبدون الكواكب والنجوم ـ وهم : الصابئة ـ ولا نستطيع أن نحدد بدقة متى بدأت عبادة النجوم عند العرب ، وإن كانت هذه العبادة قديمة فيهم ، فقد حدثنا القرآن الكريم ـ وهو أصدقُ محدِّث ـ أن ملِكة مملكة سبأ اليمنية «بلقيس بنت شراحيل» التي كانت تعاصرُ سيدنا سُليمان عليه السلام كانت وقومها يعبدون الشمسَ ، فقال تعالى حاكياً لنا قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس هذه : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطيرَ ، فقال : ما لِيَ لا أرىٰ الهُدْهُد أم كانَ من الغائبين ؟ * لأُعَذِّبَنَّه عذاباً شَديداً أو لأَذْبحنَّه أو ليَأْتِيَنّي بسلطان مبين * فمكثَ غيرَ بَعيد فقال : أَحَطْتُ بما لم تُحِطْ به ، وجئتك من سَبَأٍ بِنَبَإٍ يَقين * إني وجدتُ امرأةً تملكُهم وأوتِيَتْ من كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم * **وجدتُها وقومَها يَسْجُدون للشمسِ من دونِ اللّٰه** ، وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمَالَهم فصدَّهُم عن السَّبيل فهم لا يَهتدون ﴾ (النمل / ٢٠ ـ ٢٤) وبقيت عبادة الكواكب هذه مستمرة في وجودها إلى عصر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، حيث أنكر القرآن الكريم على العرب من جملة ما أنكر عبادتَهم الكواكبَ والنجومَ ، لأنها ليست إلَّا من جملة مخلوقات اللّٰه تعالى ، وأن من يتأملها جيداً يجدها آية على وجود خالِقها سبحانه وتعالى ، حيث قال جل شأنه في سورة فصلت/ ٣٧ : ﴿ ومِنْ آياتِهِ الليلُ والنهارُ ، والشمسُ والقَمَرُ ، لا تسجُدوا للشمسِ ولا للقمرِ واسجُدوا للّٰهِ الذي خَلَقَهن إن كنتم إيّاه تَعْبُدون ﴾ ولو لم تكن عبادةُ الكواكب موجودةً عندهم لما أمرهم اللّٰه تعالى بتركها .

ولكن الجدير بالذكر أن عابدي الكواكب والنجوم لم يتخذوا دينَهم هذا أداةً لتجمُّعٍ سياسي أو عسكري ، ولذلك لم تبرز لهم عداوةٌ ذاتُ بالٍ للدين الإسلامي عند ظهوره ، ولم يشكل وجودُهم عقبة في وجه الإسلام

تمنعه من الانتشار .

ب ـ **المجوسية** : وكان في البحرين وفي العراق فئات من الناس يعتنقون الديانة الزرادشتية ـ المجوسية ـ التي تقدِّس النارَ وتعتبرُها عنصرَ خيرٍ لأنها مصدرِ النور ، وكان مهد هذه الديانة بلاد فارس ، وكانت الدولة الفارسية ـ وهي إحدى أقوى دول العالم آنذاك ـ تحمي هذه الديانة .

ورغم أن أتْباعَ هذه الديانة لم يفكروا ـ لأسباب بَدَتْ لهم ـ بالوقوف في وجه الإسلام في عهد رسول اللّٰه ﷺ ، إلاَّ أنهم بالتحالف مع اليهود لعبوا دوراً كبيراً في إدخال بعض العقائد الفاسدة على بعض المسلمين فيما بعد ، كما لعبوا دوراً كبيراً في التآمر على الخلافة الإسلامية كقتل عمر بن الخطّاب رضي اللّٰه عنه والتآمر على عثمان ، وتغذية الصراع بين علي بن أبي طالب وشيعته من بعده وبين الدولة الأموية .

جـ ـ **النصرانية** : وفي شمال الجزيرة العربية في قبائل تغلب وقضاعة وغسان ، وفي جنوبها في اليمن حيث تخضع هذه المناطق لسيطرة الرومان النصارى ، كانت تسود الديانة النصرانية ، وكانت فئاتٌ قليلة من الناس ، ليس لهم وزنٌ سياسي أو عسكري ، وأفرادٌ مرموقون اجتذبتهم هذه الديانة إليها في أنحاء أخرى من الجزيرة العربية منهم : عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى الذي هجر الوثنية إلى النصرانية ومات عليها ، ومنهم : وَرقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى الذي هجر الوثنية ثم دخل النصرانية ومات عليها ، ومنهم عبيد اللّٰه بن جحش بن رئاب الأسدي ثم الغنمي ، حليف بني أمية الذي أسلم وهاجر إلى الحبشة ، فرأى النصرانية هناك فيقال إنها أعجبته فتنصر ثم مات على نصرانيته ، والحقيقة أنه لم يكن يملك من الشجاعة ما يمكِّنه من البقاء على الإسلام عندما رأى قريشاً تطاردُ المسلمين في الحبشة ، فخاف أن يسلِّمهم النجاشيُّ إلى مبعوثي قريش ، فأعلن تنصره ليحظى بحماية النصارى له ـ واللّٰه أعلم ـ .

د ـ **اليهودية** : ونجد في اليمن ، وفي وادي القرى ، وفي خيبر ، وفي تيماء ، وفي يثرب حيث بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع تجمّعاتٍ يهوديةً لها وزنها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، استطاعت فيما بعد أن تستهلك من الدولة الإسلامية سبع سنوات كاملةً للقضاء عليها سياسياً وعسكرياً ، وقد كان هؤلاء اليهود المحرِّضين الفعّالين للمشركين على حرب رسول اللّه ، والمتآمرين الأكثر خبثاً ودهاء مع الفرس على الدولة الإسلامية وعقيدتها .

وقد كان رسول اللّه يعرف حالهم وما انطوت عليه نفوسهم من الخبث ، ولذلك قَدَّمَ التخلص منهم على التخلص من المشركين .

لقد كان اليهود يعتبرون أنفسهم شعب اللّه المختار ، وانهم القادة الذين رشحهم اللّه تعالى لقيادة البشرية ، ولذلك كانوا يرون في بعثة الرسول من العرب لا من بني إسرائيل انتزاعاً للقيادة من أيديهم وتسليمها لغيرهم ، وليس من السهل أن يقبلوا هذا التحوّل ، ولذلك كانت عداوتهم عنيفة ، وكان حقدُهم شديداً .

هـ ـ **الوثنية** : كانت الوثنيةُ منتشرةً في جميعِ أنحاءِ الجزيرةِ العَرَبية ، حتى لتعتبر الديانة الأكثر أتْباعاً والأكثر انتشاراً فيها .

١) **نشأتها** : ويقال بأن أول من أدخلَ عبادةَ الأصنام إلى مكة عمرو بن لُحَيّ الخُزاعي ، حين كانت السيادة على مكة لخُزاعة دون قريش ، وذلك أن عمرو بن لُحي أصيب بمرض جلديّ هو الحِكَّة ، فوُصِفَ له الاغتسالُ بماءٍ حارة في بلاد حوران اليوم ـ ويرجح أنها مياه الحِمَّةِ الكبريتيَّة على الحدود السورية الفلسطينية ـ فذهب فاغتسلَ بها فشفاهُ اللّه ، ووجدَ هناك الناسَ يعبدون الأصنام ، فحمل معه صنماً فنصبه في الكعبة المشرفة .

ويقال : إن أصلَ عبادةِ الأصنام حدثت عندما كثُر أبناءُ إسماعيل

عليه السلام واضطروا أن يخرجوا من مكة طلباً للعيش ، فكانوا يحملون عند خروجهم شيئاً من تراب الحَرَم الذي يحمل ذكرى الكعبة ، أثرِ أبيهم إسماعيل ، ثم جَمَلوا هذا التراب للحفاظ عليه ، وتطورت الذكرى إلى تقديسٍ فعبادةٍ .

٢) أصنام العرب : ثم استكثر العرب من الأصنام حتى كان لكل قبيلة منهم صنمٌ تقدِّسه ، وكان حول الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً حطمها الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم يوم فتح مكة ، ومن أصنامهم :

مَناة : وهو أقدم أصنام العرب، وكان على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقَديد بين مكة والمدينة ، وكانت تعبده قبائلُ الأنصار، وأُزْد شنوءة ، وسعد ، وقضاعة .

اللاّت : وكان منصوباً بالطائف لثقيف ، وهو صخرة كانوا يلتُّون عليها السَّويق للحجاج ، وقد ضربوا على هذه الصخرة بيتاً ، فكانوا يكسونه ويضاهون به الكعبة ، وكانوا يحرّمون واديه ، والمعروف أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بعث أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة فهدماه .

العُزّىٰ : وهي شجرة عندها وثَنٌ بنخلة الشامية ، وكانت تعبد هذا الوثن غطفان، وغني، وباهِلَة، والمعرو ف أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أرسل خالد بن الوليد فقطع الشجرة وهدم البيت المضروب على الوثن وكسر الوثن .

هُبَل : وهو أعظم أصنام قريش وكان من العقيق الأحمر ، وكان الذي قَدِمَ به عمرو بن لُحي ، ويقال إن أول من نصبه في الكعبة خُزَيْمَة ابن مُدرِكة ، وكان الذي يعبد هُبل سائر قبائل كنانة .

إساف ونائلة : وهما صنمان لقريش والأحابيش[١] ، أما «إساف» فكان على الصفا ، وأما «نائلة» فكان على المروة ، ويقال انهما كانا شخصين من قبيلة جُرْهُم زنيا في الكعبة ، فمسخهما اللّه تعالى حَجَرين .

وَدّ : وهو صنم لقبيلة كلب منصوب بِدومَة الجندل .

سُواع : وهو صنم بنعمان من ينبع ، تعبده بنو كنانة ، وهذيل ، ومزينة ، وعمرو بن قيس بن عيلان .

يَغوث : وهو صنم تعبده مذحِج كلُّها ، وكان في أنعم ، فقاتلتهم عليه غطيف ـ من مراد ـ حتى هربوا به إلى «نجران» فأقروه عند بني النار ـ من الضباب ـ من بني الحارث بن كعب، فاجتمعوا عليه جميعاً .

يَعوق: وهو صنم تعبده همْذان وخولان، وكان في «أرحب» على بعد ليلتين من صنعاء على طريق مكة .

نَسْر: وهو صنم لِحِمْيَر تعبده وتعظمه، وكان في «غُمْدان» في قصر ملك اليمن .

جهار : وهو صنم بعكاظ في سفح أطحل ، وكانت هوازن تعبده .

شمس : وهو صنم لبني تميم ، وكانت تعبده ضَبَّة ، وتميم ، وعدي ، وعكل ، وثور .

الفلس : وهو صنم بنجد قريباً من فيد ، وكانت تعبده طيء .

السعيدة : وهو صنم تعبده الأزد وسعد وهذيم وسائر قُضاعة .

ذو الخليصة : وهو صنم بالعبلاء على أربع مراحل من مكة ، على طريق

---

(١) مجموعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة كانوا يقيمون في مكة .

اليمن ، وكانت تعبده بجيلة ، وخثعم ، والحارث بن كعب ، وجرم ، وزبيد ، والغوْث بن مُرّ بن أدّ ، وبنو هلال بن عامر .

ذو اللبا : وهو صنم لعبد قيس بالمشقَّر .

المحرق : وهو صنم بسلمان لبكر بن وائل وسائر ربيعة ، وكانوا قد جعلوا له في كل حي من ربيعة ولداً ، فكان في عَنزة « بلج بن المحرّق » وفي عميرة وغفيلة « عمرو بن المحرق » .

ذريح : وهو صنم لكِندة بالنجير من اليمن ناحية حضرموت .

مَرْحَب: وهو صنم بحضرموت ، وكان سادنه ذا مرحب .

المنطبق : وهو صنم من نحاس للسلف ، وعكّ ، والأشعريين ، فلما كُسرت الأصنام في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وجدوا فيه سيفاً فاصطفاه رسول اللّه فسمّي « مِخذماً » .

ذو الكفين : وهو صنم لخزاعة ودوس ، فلما كسره عمرو بن حُممة الدوسي قال :

يا ذا الكفين لستُ من تَلادِك ميلادُنا أكبرُ من ميلادك

٣) **إيمان الوثنيين باللّه تعالى** : وكان الوثنيون يؤمنون باللّه العلي الأعلى ، وأنه هو الخالق البارىء المصوِّرُ ، وقد حكى القرآن الكريم إيمانَهم هذا في سورة لقمان/ ٢٥ بقوله : ﴿ ولئِنْ سَألْتَهم مَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ ليقولُن : اللّهُ ﴾ وهم لا يعبدون هذه الأصنام إلّا لتكون وسيلتَهم إلى اللّه ، كما قال تعالى على لسانهم في سورة الزّمر/ ٣ : ﴿ مَا نَعْبُدُهم إلّا لِيُقرِّبونا إلى اللّه زُلْفىٰ ﴾ ، وبذلك وقعوا في مُفارقات غريبة لا يقبلها عقل ، ولا يُقِرّها منطق ، فهم يعبدون من لا يَخْلُق ولا يَرْزُق ، ويتركون عبادةَ الخالِقِ الرازِقِ ، وقد سجّل القرآنُ العظيم عليهم هذا التناقض فقال في سورة النحل /١٧ بعد أن عدد أشياءَ مما خلق اللّه : من السماء والأرض والإنسان والحيوان والنبات : ﴿ أَفَمَنْ

يَخْلُقُ كمن لَا يَخْلُقُ أفلا تذكّرون !﴾ ، ﴿والذين يدعُونَ من دونِ اللَّه لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلَقون ﴾ النحل/ ٢٠ .

٤) **اقتناعهم بها** : والسؤال الآن : هل كانت عبادة الأصنام تملأ الوجدان الديني عند العرب ؟

إن المستقرىء للحوادث يجزم بأن الأصنام لم تملأ الوجدانَ الديني عند كثير من العرب ، لأنه يجد الكثير قد هجروا الوثنية إلى غيرها من الديانات كالنصرانية والحنيفية . ويجد أن عابدي هذه الأصنام يتصرفون تجاهها تصرفات لا تنم عن احترام ، فهم يصنعونها أحياناً من بعض المواد الغذائية كالتمر ونحوه ، ثم يعبدونها ، فإذا جاعوا أكلوها ، كما فعلت قبيلة حنيفة بالوثن الذي صنعته من التمر ثم أكلته ، وفي ذلك قال الشاعر :

أكلتْ حَنيفَـةُ رَبَّـهـا   زَمَنَ التقحُّمِ والمجاعَة .

وهم يميلون عليها بالذم والشتم إن فُعِلَ بها ما يهدِرُ كرامتها ، كما فعل بعضهم عندما رأى ثعلباً يبول على صنمه الذي نصبه في فنائه ، حيث ثارت ثائرته وقال :

أربٌّ يـبـول الثُّـعْلُبـانُ بـرأسِـه   ألا ذلَّ من بـالتْ عليـه الثعـالبُ

٥) **بعض تعاليمها**: وكانت عبادة الأصنام تستتبع مجموعةً من التطبيقات العملية منها :

● تقديم القرابين لهذه الأصنام: ولما جاء الإسلام فحرم أكل شيء مما ذُبحَ للأصنام فقال تعالى في سورة المائدة/ ٣ : ﴿ حُرِّمت عليكم المَيْتَةُ والدمُ ولحمُ الخِنزير وما أُهِلّ لغيرِ اللّهِ به والمُنْخَنِقَةُ والموقوذَةُ والمَتَرَدِّيَةُ والنَّطيحةُ وما أكلَ السَّبُعُ إلَّا ما ذَكَّيتم وما ذُبِح على النُّصُب ، وأن تستقْسِموا بالأزْلام ، ذلكم فِسْق ﴾ .

- الاستقسام بالأزلام : وهي أقداح صغيرة موضوعة في كيس في جوف الكعبة ، مكتوب على بعضها إفعل ، وعلى بعضها لا تفعل ، وبعضها غُفْل ، فإذا أراد المرء أن يأتي أمراً ذا بال قَدِم الكعبة ، وقدّم القرابين للأصنام ثم يُخرِجُ له الكاهنُ الكيس ، فيمد يده فيه فيخرج قدحاً من هذه الأقداح ، فيعمل حسبما خرج له ، ويكون هذا بمثابة الاستشارة للأصنام ، وقد حرم اللّه تعالى الاستقسام بالأزلام في الآية السابقة ، وشرع مكانه صلاةَ ودعاءَالاستخارة المعروف .
- طواف القادمين من خارج الحرم حولَ الكعبة عراةً سواء كانوا نساء أم رجالاً ، وقد كان الكثير منهم يؤدي الطواف عارياً وهو كاره له ، مَقيت على قلبه ، وقد حفظ لنا التاريخ أقوالاً لهؤلاء الطائفين عراة يعربون فيها عن عدم قناعتهم بما يفعلون، ومن ذلك قول تلك المرأة الطائفة :

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه   فما بدا منه فلا أُحِلُّه

- وكان المزارعون إذا حرثوا حرثاً أو غرَسوا غرساً خطّوا في وسطه خطاً فقسموه باثنين ، فقالوا : ما دون هذا الخط لآلهتهم ، وما وراءه للّه ، فإن سقط فيما جعلوه لآلهتهم شيء مما جعلوه للّه عز وجل أقروه وتركوه ، وإن سقط مما جعلوه لآلهتهم شيء فيما جعلوه للّه تبارك اسمه رَدّوه؛ ثم يرسلون الماء في الذي سموه لآلهتهم، فإن انفتح في الذي سموه للّه عزّ وجلّ سدّوه ، وإن أرسلوه في الذي سموه للّه فانفتح في الذي سموه لآلهتهم قالوا : اتركوه ، فإنه فقيرٌ إليه ، وقد عاب اللّه تعالى عليهم هذا الصنيع بقوله تعالى في سورة الأنعام/ ١٣٦ : ﴿ وجعلوا للّه مِمّا ذَرأَ من الحرثِ والأنعامِ نَصِيباً ، فقالوا : هـذا للّه بزعْمِهِم وهـذا لشُرَكَائِنا ، فما كان لشركائِهِم فلا يصلُ إلى اللّه ، وما كان للّه فهو يَصِلُ إلى شركائِهِم ، ساء ما يحكُمون ﴾.
- وكانوا لا يؤمنون بالحياة بعد الموت، ولا بالحسابِ في الآخرة ، وقصة

أُبَيّ بن خَلَف الوثني حين جاء إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وفي يده عظم بالٍ وهو يفتّه ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن اللَّه يبعث هذا ؟ قال صلى اللَّه عليه وسلم : « نعم ، يميتك اللَّه تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار» فأنزل اللَّه تعالى في سورة يس / ٧٧ ـ ٧٩ :

﴿ أولم يَرَ الإنسانُ أنّا خَلَقْنَاهُ منْ نُطْفَةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبين * وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رميم * قل يُحييها الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مرَّة وهو بكلِّ خلقٍ عليم ﴾ .

ولكن هذا لا يمنع من وجود أشخاص من الوثنيين يؤمنون بالحساب متأثرين بالحنيفية أو النصرانية ، ومن هؤلاء المتأثرين الشاعر الجاهلي الأخنس بن شهاب التميمي حيث يقول :

وعلمتُ أن اللَّه جازٍ عبدَه　　　يوم الحسابِ بأحْسن الأعمالِ

و ـ **الحنيفية** : وكانت الحنيفية في الحجاز وغيرها من أنحاء الجزيرة العربية ، وهي ديانة من بقايا دين إبراهيم عليه السلام ، وقد كان الحنيفيون يؤمنون بوحدانية اللَّه ويرفضون عبادة الأصنام ، وكانوا يؤمنون بالحساب ، ويدعون إلى طرح العادات الجاهلية التي لا تتفق مع إنسانية الإنسان كوأد البنات ، وشرب الخمور ونحو ذلك .

٢ ـ الحالة الاقتصادية :

يغلب على الجزيرة العربية الصحارى الواسعة الممتدة ، وهذا ما يجعلها تخلو من الزراعة إلَّا من واحات محدودة ، فاقتصادها ليس باقتصادٍ زراعي بالجملة ، والمراعي الخصبة فيها قليلة ، تسرح فيها أنعام الناس .

والصناعة فيها معدومة إلَّا من بعض الصناعات البسيطة الضرورية التي تقوم بالحاجة المحلية .

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حُرِمت من نعمتي الزراعة والصناعة ، فإن موقعها الاستراتيجي بين افريقيا وشرق آسيا جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزاً مرموقاً في عالم التجارة .

ولكن الذين كانوا يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن ، ولذلك ساد الرخاء بينهم في الجملة ، وظهر فيهم أثْرِياء مرموقون منهم من قريش : أبو سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة ، وعبد اللّه بن جدعان وغيرهم .

وقد كان لأهل مكة تجارة مشهورة تضم جلَّ أموال مكة ، تشد رحالها في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى بلاد الشام، ينقلون فيها سِلَعَ الشام إلى اليمن ، وسلعَ اليمن إلى الشام ، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه التِجارَة بقولِهِ تعالى : ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْش * إيلافِهم رِحْلَةَ الشتاءِ والصَّيْف ﴾ .

ولكن الجدير بالذكر أن هذه الثروة **لم تكن موزعة بين الناس توزيعاً منصفاً** ، نعم كان هناك الأثرياء أمثال الذين ذكرناهم من قريش ، ولكن كان إلى جانبهم الفقراء المدقعون الذين لا يجدون كفافاً من عيش .

ومما زاد الطين بِلَّةً في سوء توزيع الثروة تفشي نظام **الرّبا** في المجتمع العربي ، ورغم أن الربا في أصله نظام غير أخلاقي ولا إنساني ، إلَّا أنه في المجتمع العربي كان مغرقاً في اللاأخلاقية ، إذ قد تصل نسبته في بعض الأحيان إلى أكثر من مئة في المئة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في المرحلة الأولى من تحريم الربا حيث قال تعالى في سورة آل عمران / ١٣٠ : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا لا تأكُلُوا الرِّبَا أَضعافاً مُضاعَفَة ﴾ ، وَنَهْيُ اللّهِ تعالى المؤمنين في المرحلة الأولى من تحريم الربا عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة دليل على تفشي هذا النوع من المعاملة ، وإلَّا لما كان هناك داعٍ لهذا النهي .

وإذا كانت التجارة من حظ أهل المدن ، فإن أهل البادية ليس لهم إلَّا ما

تجود به أنعامهم ، وما تسطو عليه قبيلة من أموال قبيلة أخرى ، إذ السطو في الغزو كان مورداً من موارد رزقهم عندما تشتد بهم الفاقة ، وكان كثير منهم يكسبون بفروج إمائهم ، حيث تضرب الخيمة للواحدة منهن في السوق فيدخل عليها الرجال فيفجرون بها ، وقد أشار القرآن إلى ذلك في سورة النور/ ٣٣ : ﴿ ولا تُكرِهُوا فَتَياتِكم على البغاءِ إن أردن تحصّناً لتبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدنيا ﴾ .

٣ ـ الحالة الثقافية :

اتفقت كلمة المؤرخين على أن العرب ـ قُبَيْلَ بعثِةِ الرسول ـ كانوا يتصفون بالأُمّيّة ، وسجل القرآن هذه الحقيقة عندما قال في سورة الجمعة /٢ : ﴿ هو الذي بَعَثَ في الأُمّيين رَسولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِهِ وَيُزَكِّيهِم ويعلِّمُهُم الكتابَ والحِكمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ ، ولو ذهبنا نعدّ الذين كانوا يقرأون ويكتبون في مكة لوجدناهم لا يتجاوزون في أحسن الأحوال أصابع اليدين ، وعلومٌ بغير قراءة وكتابة لا يمكن أن تقوم ، ولعل أول محاولة جادَّةٍ لمكافحة الأمية يوم فدى الرسول بعض أسرى بدر على تعليم المسلمين .

نحن لا ننكر أن العرب كانوا على علم بالنجوم والطب ، ولكن علمهم بالنجوم لا يتعدى مقدار احتياجهم إليها كأداة من أدوات الاستدلال على الاتجاهات في الصحراء التي تنعدم فيها معالم الطرقات ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا عندما ذكَّرهم بنعمِ اللّه تعالى عليهم حيث قال تعالى في سورة النحل/ ١٤ ـ ١٦ : ﴿ وهوَ الذي سَخَّرَ البحرَ لتأكلوا منه لَحْماً طرياً . . . وبالنَّجْمِ هم يهتَدون ﴾ وقال في سورة الأنعام/٩٧ : ﴿ وهو الذي جَعَلَ لكم النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ ولو كانوا يعلمون من النجوم أكثر من هذا لامتنَّ اللّه تعالى عليهم به . وأما علمهم بالطبّ فإنه لا يتعدى الوصفات الشعبية المتداولة المبنية على أساس من التجربة لا على أساس من العلم[١] .

---

(١) انظر مقدمة تحقيقنا لكتاب « نور العيون وجامع الفنون » .

ونستطيع أن نحصر علوم العرب في عِلْمَيْن أساسيين هما : التاريخ واللغة .

ونريد بالتاريخ : أيامَ العرب وأنسابَهم ، ولعل ذلك من لوازم الحياة القبلية ، حيث كان رجال القبيلة يسمرون فيقصُّ بعضُهم على بعض أيام العرب ، ويذكرون أنسابهم فيتفاخرون بها .

أما اللغة : فالمعروف أن لغة العرب في عصر رسول الله كانت مقسمة إلى لهجات ويميز الباحث في لهجات العرب بين لهجتين رئيستين :

الأولى : لهجة الحجاز ، وهي لهجة أهل الحضر ، وتمتاز هذه اللهجة بتسهيل النطق وتلطيفه ، ولذلك فإنهم يؤثرون كسر أول الكلمة على ضمّها في نحو « إسْوَة وعِدْوَة» ، بدلاً من « أُسوة وعُدْوَة » ، كما يؤثرون تسهيل الهمزة على النطق بها في نحو : « يومن وآنتم » بدلاً من « يؤمن وَأَأَنْتُمْ» .

والثانية : لهجة نجد ، وهي لهجة البدو ، وتمتاز هذه اللهجة بفخامة الأداء ، وإيثار الضمِّ على الكسرِ في نحو عُدوة وأُسوة . وإيثار نَبْرِ الهمزة على تسهيلها .

ولهجات العرب منها الفصيح : وهي كل لهجة لا تستبدِلُ الحرفَ الأصلي في الكلمة بحرفٍ آخر، وتُخرج الحروف من مخارجها الأصلية، ومنها غير الفصيح : وهي كل لهجة تُخرِج بعضَ الحروف العربية من غير مخارجها، أو تَقلب الحرف العربي إلى حرف عربي غيره ، كقلب الكاف إلى شين عند قبائل تميم وبكر وأسد وربيعة فيقولون في « عيناكِ عيناها » «عيناشِ عيناها » فقد أنشد شاعرهم فقال :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منشِ دقيقُ

وكقلب العين الساكنة إلى نون عند قبائل سعد بن بكر وهذيل والأزد، وقد أُنشد الأعشى قيس القحطاني :

جيـــادك خيـــر جيـــاد المـلوك تصان الجلال وتنطي الشعيراً[١]

ومهما كان أمر اللهجات فإن الشعراء كانوا ماضين في نظم أشعارهم التي يسجلون فيها فخرهم ، وما يجري على قبائلهم من خير وشر ، وما يمر بالعرب من عسر ويُسر ، حتى كان الشعر العربي سجل العرب وديوانَهم . وكانوا يشدون الرحال إلى أسـواق العرب ، عكـاظٍ ، وذي المجاز ، ودومـة الجندل وغيـرها لِيُسمعوا العربَ أشعارهم ، وليَسمعوا قصائِدَ فحول الشعراء ، حتى إذا ما برزت قصيدة ، وأجمع النقاد على جودتها ، علقوها على جدار الكعبـة إعلاءً لشأنها، واعترافاً بفحولة قائلها .

وكان البيت الواحد من الشعر يـرفع أقـواماً ويخفض آخـرين ، ولا يزال الرواة يذكرون جماعة من تميم ينتسبون إلى جدهم « أُنف الناقة » فيخجلون من هذا الاسم ، حتى إذا ما سئل أحدهم عن نسبه قال : من بني قُرَيْع بن عوف ـ والد جعفر أنف الناقة ـ فزارهم الحطيئة فأكرموه فقال فيهم :

قـوم هم الأنفُ والأذنـابُ غيـرهم ومن يُسـوّي بـأنفِ النـاقـةِ الـذنبـا

فصاروا يفخرون بهذا الاسم .

ولا يزالون ـ أي الرواة ـ يذكرون بني عبد المـدان الذين يمتـازون بطول الأبدان وَعِظَمِها ، وفخرهم بهذا ، حتى هجاهم حسان بن ثابت فقال :

لا بـأس بالقـوم من طـولٍ ومن غِلَظِ جسمُ البغـــال وأحـلامُ العصـــافيـــر

فصاروا يستحون من ذلك .

٤ ـ الحالـة الاجتمـاعيـــة :

لا بد لي أن أوضح بـاديء ذي بدء أني لن أستـطيع أن أغـطّيَ في هذه

(١) انظر كتابنا : لغة القرآن لغة العرب المختارة دار النفائس ـ بيروت .

العجالة جميع التصرفات الاجتماعية عند العرب ، ولكن حسبي أنْ أُلْقِيَ الضوءَ على بعضها .

أ ـ **الأسرة** : لقد تعارف العرب أنواعاً من النكاح ، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها ، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة هذه الأنواعَ فقالت : « إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاحُ الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيُصْدِقها ثم ينكحها ؛ ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرتْ من طمثها : أرسلي إلى فلان فاستبضِعي منه ، ويعتزلُها زوجها ، فلا يمسها حتى تتبين حملَها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحبَّ ، وإنما يفعل ذلك رغبةً بنجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ؛ ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يُصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرّت ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدتُ ، فهو ابنك يا فلان ـ تسمي من أحبت باسمه ـ فتُلحِق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع الرجل ؛ ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة ، لا تمتنع ممن جاءها ـ وهن البغايا ـ كنّ ينصبن على أبوابهن الرايات ، وتكون عَلَماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جُمِعوا لها ودَعَوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاط به ، ودعي ابنه ، لا يمتنع من ذلك ؛ فلما بُعِثَ محمد صلى اللَّه عليه وسلم بالحقّ هدم نكاح الجاهلية كلَّه ، إلَّا نكاح الناس اليوم »[1] .

● وكانت العرب تحرّم نكاح الأصول كالأمهات ، والفروع كالبنات ، وفروعِ الأب كالأخوات ، والطبقةِ الأولى من فروعِ الجد كالخالات

---

(١) البخاري في النكاح .

والعمات، ولكنهم كانوا **يُحِلُّون نكاح زوجةِ الأب**، فكان الرجل إذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبَه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد، وقد فرّق الإسلام بين رجالٍ ونساءِ آبائهم بعد أن أسلموا وهم كثير منهم: منظور بن زبّان بن سيار بن عمرو الفزاري الذي كانت تحته مُليكة بنت خارجة بن سنان المرّي، فولد لهما خولة بنت منظور التي تزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب، ثم عبد اللّه بن الزبير بعد الحسن، وكان منظور يحب مليكة، ففرق بينهما عمر بن الخطاب لأنها زوجة أبيه، فقال منظور:

ألا لا أبالي اليومَ ما صنع الدهرُ إذا ذهبت مني مُلَيْكَةُ والخَمْرُ

ومنهم: تميم بن أبيّ بن مقبل، تزوج امرأة أبيه «دهماء» ففرق الإسلام بينهما فقال:

هل عاشقٌ نالَ من دَهْمَاءَ حاجتَه في الجاهلية قبلَ الدِّين مرجومُ

ومنهم: محصن بن أبي قيس بن الأسلب، ألقى ثوبَه على امرأة أبيه كبيشة بنت معين - من بني خطمة - فورث نكاحها، ثم تركها لا يدخل عليها ولا ينفق عليها فاشتكت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حالها فأنزل اللّه تعالى من سورة النساء/ ٢٢: ﴿ولا تَنكِحوا ما نكحَ آباؤكم من النِّساءِ إلَّا ما قد سَلَفَ إنه كان فَاحِشَةً ومقتاً وساءَ سبيلاً﴾[1]

وكانوا يُحلّون **الجمع بين الأختين** في النكاح، وقد جمع بين الأختين أبو أُحَيْحَة سعيد بن العاص، جمع بين صفية وهند بنتي المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم؛ وجمع قسي وهو ثقيف بن منبه بين آمنة وزينب بنتي عامر بن الظرب في نكاح واحد؛ وجمع هنّام بن

(١) المحبر ص ٣٢٦ لأبي جعفر محمد بن حبيب.

سلمة العائشي بين أختين (١) .

● وكانوا يبيحون للرجل أن **يجمع في عصمته** من الزوجات ما شاء دون التقيد بعدد ، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدّ ، وقد جاء الإسلام وفي ثقيف مسعود بن معتب ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وعروة بن مسعود ، وسفيان بن عبد اللّه ، وغيلان بن سلمة ، وأبو عقيل مسعود بن عامر بن معتب، تحت كل واحد منهم عشر زوجات ، ففارق كل من غيلان وسفيان وأبو عقيل ست زوجات لما أسلموا ، ومات عروة مسلماً قبل نزول تحديد النساء بأربع (٢) .

● وكانوا يمارسون **الطلاق** ، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدّد ، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبداً ، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام إلى أن أنزل اللّه تبارك وتعالى قوله في سورة البقرة/ ٢٢٩ : ﴿ الطلاقُ مَرّتـان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تَسْرِيحٌ بإحْسان ﴾ .

● وكان العرب **يعيَّرون بالبنات** ، لأن البنت لا تخرج في الغزو ، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها ، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال ، وإذا ما سُبِيَتْ اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك ، بل ربّما أكرهت على احتراف البغاء ، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله ـ وقد كانت العرب تستبيح ذلك كما تقدم ـ وقد كان هذا يُورِثُ الهمَّ والحزن والخَجَل للأب عندما يولد له بنت ، وقد حكى لنا القرآن الكريم حَالة من يولد له بنت في سورة النحل ٥٨ ـ ٥٩ فقال تعالى : ﴿وإذا بُشِّرَ أحَدُهُم بالأُنثى ظَلَّ وَجْهُه مُسوَداً وهو كظيم * يَتَوارىٰ من القَوْمِ من سُوءِ ما بُشِّرَ بِه أيُمْسِكُه على هُونٍ أم يَدُسُّه في التراب ، ألا سَاءَ ما يحكمون ﴾

(١) المحبر ص ٣٢٧ .
(٢) المحبر ص ٣٥٧ .

وكثيراً ما كانوا يختارون دسَّها في التراب ، ووأدها حية ، ولا ذَنْب لها إلَّا أنها أنثى ، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هـذه الفعلة الشنيعة بقـوله تعـالى في سورة التكـويـر ٨ ـ ٩: ﴿وإذا المَـوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بـأي ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ونهى نهياً قاطعـاً عنها بقـوله تعـالى في سورة الإسـراء / ٣١ : ﴿ ولا تقتُلوا أولادَكم خشيةَ إمْلاقٍ نحنُ نرزُقُهم وإيّاكم إنَّ قتلَهم كان خِطْئاً كبيراً ﴾ .

● وكانت المرأة إذا مات زوجها **اعتدَّت** لموته سنة ، أمـا إن طلقها زوجهـا فليس له عليها عدة ، وتستطيع أن تتزوج بعد طلاقها ولو كانت حاملاً منه ، كما حكى ذلك أبو جعفر محمد بن حبيب في المحبَّر ، وحكى القرطبي أنه كانت عندهم للمطلقة عدة معلومة مقدرة ، ولكنه لم يذكـر قدرهـا ، والحقُّ ما ذكره القـرطبي ، وما سـاقه أبـو جعفر من واقعـات تزوج فيهـا المطلقات وهن حوامل ، وولدن على فرش أزواجهن الآخرين ، فهي لا تعبِّر عن قانون عام يطبقه العرب ، وإنما هي حوادث فرديـة شاذة خـرج فيها النساء عن القانون العام ، خاصة وأن بعض هذه الحوادث حدثت في ظل دولة الإسلام ، وقضى فيها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، وبعضها وطءُ إنسانٍ ـ لم يملك إرْبَهُ ـ السبايا الحواملَ ، ونحو ذلك .

● وكانوا **لا يورِّثون** البنات ولا النساء ولا الصبيان ، ولا يورثون إلَّا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل ، وممن عرف عنه أنه ورَّث البنـات في الجاهلية فأعطى البنت سهماً والابن سهمين هو ذو المجـاسد اليشكـري وهو عامـر بن جشم بن حبيب[1] ، ولكن ذلك لـم يشـع ولـم ينتشر عنـد العـرب ، وبقي حرمـان النساءِ والصِّغـارِ من الميراث عـرفاً معمـولاً بـه عندهم ، إلى أن توفي أوس بن ثابت ـ في عهد رسول اللّه ـ وترك بنتين

(١) المحبر ص ٣٢٤ .

كانت بهما دمامة ، وابناً صغيراً، فجاء ابنا عمه ـ وهما عصبته ـ فأخذا ميراثه كله ، فقالت امرأته لهما : تزوَّجا البنتين ، فأبيا ذلك لدمامتهما ، فأتت رسول اللَّه فقالت : يا رسول اللَّه توفي أوس وترك ابناً صغيراً وابنتين ، فجاء ابنا عمه خالدٌ وعرفطةُ فأخذا ميراثه ، فقلت لهما : تزوجا ابنتيه ، فأبيا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تحركا من الميراث شيئاً » ، ونزل قوله تعالى في سورة النساء / ٧ : ﴿ للرِّجالِ نصيبٌ مما تَرَكَ الوالدانِ والأقرَبونَ ، وللنِّساءِ نصيبٌ ممّا تَرَكَ الوالدان والأقْرَبونَ مما قلَّ منه أوْ كَثُرَ نَصيباً مَفْروضاً ﴾ ثم نزل قوله تعالى في سورة النساء أيضاً/ ١١ : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ في أولادِكم للذكرِ مثلُ حَظِّ الأنْثَيَيْن . . . ﴾ الآية .

ب ـ **القبيلة** : لقد كانت القبيلة هي البوتقة الثانية ـ بعد الأسرة ـ التي ينصهر فيها الفرد العربي ، حتى إنه ليعتبر عزَّها عزّه ، ورفعتها رفعته .

● وكان الاعتداد بالنسب ـ النسب إلى القبيلة ـ والتفاخر به ميداناً واسعاً يتبارى فيه الشعراء ، ويَشمَخُ به بعضهم على بعض .

وتُجمِع قبائلُ العَرب على أن قريشاً أشرفُ القبائل نسباً ، لا تنازعها قبيلة أخرى في ذلك .

● وكانت تُعتبر القبيلة **وحدةً سياسية** وإدارية مستقلة عن غيرها ، لها سيادتها على أفرادها لا تنازعها في هذه السيادة قبيلة أخرى ، الحاكم فيها مجلس شيوخها الذي يتفق على زعامة رجلٍ منهم ، غالباً ما يكون الأرجحَ عقلاً ، والأكثرَ مالاً وولداً ، والأكبَرَ سناً .

● وكانت القبيلة تعتبر **مسؤولة عن تصرفات أفرادها** تجاه القبائل الأخرى ، حتى إذا ما جنى واحد من أفرادها على شخص من قبيلة أخرى وقَبِلَ أولياءُ دم المقتول منه دفعَ الدية ساهمت قبيلته في دفع هذه الدّيَة ، أما إذا لم يَقْبلوا منه الدية كان لهم أن يثأروا لقتيلهم بقتل أيِّ شخصٍ من قبيلةِ

القاتِل ، وغالباً ما يكون الذي يقع عليه الثأر أفضل وأعلى شأناً من المثؤور له ، فيقتلون بالمرأة رجلاً ، وبالعبد حراً ونحو ذلك ، وقد بقي هذا معمولاً به إلى أن نزل قوله تعالى في سورة البقرة/ ١٧٨ : ﴿ يَا أَيُّها الذينَ آمنوا كُتِبَ عليكم القِصاصُ في القَتْلىٰ ، الحُرُّ بِالحُرِّ ، والعَبدُ بِالعَبْدِ ، والأُنْثىٰ بِالأنثى ﴾ فأوجب اللّه تعالى بهذه الآية الكريمة أن لا يُقتَل غيرُ القاتِل سواء كان عبداً أو امرأة .

● ولذلك فإن القبيلة كانت تعاقِبُ أفرادَها إذا ما ظهر منهم الشذوذُ حتى لا يورِّطوا القبيلة في أمورٍ لا مصلحةَ لها فيها ، فقد عاقب النعمان بن المنذر رجلاً من بني عبد مناف بن رادم من قبيلة تميم بالصَّلب لأنه كان يقطع الطريق ؛ وقطعت قريشٌ رجالاً منها كانوا قد سرقوا ، ومنهم : وابصَة بن خالد بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم ، وعوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم ، قُطِع مراراً ، ثم سَرَق فرُجمَ حتى مات ، والخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، وعبيد اللّه بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ، فقد سرق إبلاً فقطعت يده اليمنى ، ومدرك بن عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم وكان يلقب « درواساً » وفيه يقول مالك بن عميلة واصفاً قطعَ يده :

ودرواس مخزومٍ تركنا مجدَّلاً   بما قدّمَت أظفارُه وأشَاجِعُه[1]
فأمسىٰ تليلاً للسباعِ تنوبُه   تسيلُ دَماً آرابُه وكراسِعُه[2]

وقطع مليح بن شريح بن الحارث بن أسد ، ومقيس بن قيس بن عدي السهمي ، وكانا قد سرقا حُلِيّ الكعبة في الجاهلية ، فقال مالك بن عميلة

(١) مجدلاً : صريعاً . وأشاجعه : مُفردها أشجع وهي عروق ظاهر الكف .

(٢) تليلاً : ينزف دماً . وتليلاً : صريعاً . وآرابه مفردها إرب وهو العضو . وكرسعه : مفردها كُرسوع وهو العظم الناتيء عند الرسغ .

يخاطب حميد بن زهير ، ابن عم مليح :

تمنى حميدُ أنه كان حيضة ليالِيَ بانت من مليح أصَابعه
ليالِيَ بانت كفُّه من ذِراعِه فأصبَحَ لا يدْنُو لقَرْبٍ يُنازِعه[١]

وقد كان « الخَلْعُ » من جملة العقوبات التي يُنفذها شيوخ القبيلة بأحد أفرادها إذا تمرد على أعراف القبيلة وأوامر شيوخها ، والخلع يعني : إعلان القبيلة براءتها من تصرفات المخلوع ، وعدم مطالبتها بدمه إن قتله قاتل .

● وكما أن القبيلة لها أن تخلع بعض أفرادها ، فإن لها أن تحميَ من ليس من أفرادها إذا لجأ إليها أو استجارَ بها .

جـ ـ عادات اجتماعية سيئة وحسنة :

● وكان هناك بعض **العادات الاجتماعية السيئة** كشرب الخمور ، ولَعِب الميسر ، وكان لا يلعب بالميسِرَ إلَّا أشرافُ القومِ وأصحابُ اليسار منهم ، ويشترك في هذه اللعبة سبعةُ أشخاصٍ ، وحَكَمٌ يسمى « الحُرضة » ورقيب ، فيشتري الأشخاص السبعة جزوراً بينهم ، ويقسمونه عشرة أقسام ، ثم يؤتى بأحد عشر قِدْحاً ، سبعة منها تحمل أسهماً مختلفة ولها أسماء مختلفة أيضاً هي : الفَذّ : وله سهم واحد ، والتوأم : وله سهمان ، والضَّريب : وله ثلاثة أسهم ، والحِلْس : وله أربعة أسهم ، والنافس : وله خمسة أسهم ، والمُسْبِل : وله ستة أسهم ، والمُعَلَّىٰ : وله سبعة أسهم ، ويضاف إلى هذه الأقداح السبعة أقداح أربعة لا تحمل أسهماً توضع للتمويه ، ويختار كل رجل من السبعة قدحه من الأقداح السبعة ، وتوضع الأقداح كلها في كيس يكون مع الرقيب ، ويُبسَط ثوبٌ أمام الحَكَم « الحرضة » ويدخل الكيس تحته ، ويلف

---

(١) المحبر ص ٣٢٨ .

الحرضة يده بقطعة من القماش لئلا يتحسس بها ملمس القداح فيحابي ، ثم يدخل يده اليسرى في الكيس من تحت القماش المبسوط ، ويخرج منه قِدْحاً ، فيسلمه إلى الرقيب ، فإن وجده من الأقداح التي لا تحمل أسهماً ردَّه في الكيس ، وإن وجده من الأقداح التي تحمل أسهماً فقد فاز الرجل صاحب القدح بقدر ما يحمله القدح من السهام .

وهناك بعض **العادات الحسنة** كالكرم والنجدة والمروءة وحفظ الجوار وفي ذلك يقول عنترة :

وأغضُّ طرفي إن بَدَتْ لي جارتي حتى تُواريَ جارَتي مأواها

ومن عاداتهم : التفاخر بالأموال والأولاد ، والاعتداد بها . ولذلك فإن اللَّه ذكَّرهم أن أموالَهم وأولادَهم هي عطية اللَّه إليهم ، وهي مادة اختبار طرحَها اللَّه بين أيديهم كما قال تعالى في سورة الأنفال/ ٢٨ : ﴿ واعْلَموا أَنَّما أمْوالُكم وأولادُكم فتنةٌ ، وأَنَّ اللَّهَ عِندَه أَجْرٌ عظيم ﴾ فهي لا تقرِّبهم إلى اللَّه ، ولا تدفع عنهم عذابه ، كما قال تعالى في سورة سبأ/ ٣٥ : ﴿ وقالوا نحنُ أكثَرُ أمْوالاً وأوْلاداً وما نحنُ بِمُعَذَّبين * قلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزْق لمنْ يَشاءُ وَيَقْدِر ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون * وما أموالُكم ولا أولادُكم بالتي تُقَرِّبُكم عندنا زُلْفىٰ إلَّا مَنْ آمَنَ وعملَ صالحاً فأولئك لهم جزاءُ الضِّعفِ بما عَمِلوا وهم في الغُرُفاتِ آمِنون ﴾ .

٥ ـ الحالة السياسية :

أ ـ **الدول** : أَقَضَّتْ هجماتُ القبائلِ العربية على حدود دولتي فارس والروم مضاجعَ هاتينِ الدولتين ، وهددتْ أمنَ الحدود ، لذلك أسرعت الرومُ لإنشاء دولةِ الغساسنة في شمال الجزيرة العربية ، وأسرعت دولةُ الفرس لإنشاء دولةِ المناذرة ، لتشكل هاتان الدولتان العربيتان حزاماً أمنيّاً

لحدودهما تتحطم عليه هجمات القبائل العربية ، وبقي قلبُ الجزيرة العربية ومنه الحجاز محافظاً على استقلاله لم تمتد إليه يد أجنبي ، لأنه ليس فيه مطمع لطامع .

ب ـ **الأحلاف** : وقد سبق إن قلنا أن كلَّ قبيلة من القبائل العربية كانت لها شخصيتها السياسية ، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى ، وبهذه الشخصية أيضاً كانت تشن الحرب عليها ، ولعل من أشهر الأحلافِ التي عُقدت بين القبائل العربية :

حلف الفُضُول ، حيث اجتمع رؤساء بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني زهرة ، وبني تيم ، وتحالفوا بينهم على ألّا يَدَعوا بمكة مظلوماً إلّا نصروه ، ولا ظالماً إلَّا أخذوا على يديه .

وحلف المطيِّبين ، وذلك أن قُصَياً ـ من قريش ـ كان له أربعة أولاد هم : عبد العزى ، وعبد مناف ، وعبد الدار ، وزهرة ، فجعل قصي لعبد الدار ولبنيه من بعده : الحجابة ، والندوة ، والسقاية ، والرفادة ، واللواء ، فأراد بنو أعمامهم أن يأخذوا ما بأيديهم ، وأبى أبناء عبد الدار أن يتنازلوا عنها ، فتحازبت قريشٌ ، فأخرجت عاتكَةُ بنتُ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي مركناً ـ وعاء ـ فيه طِيب ، فغمست القبائلُ التي في حزب بني عبد مناف (وهم : بنو عبد مناف بن قصي ، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي ، وبنو زهرة بن قصي ، وبنو تيم بن مرّة بن كعب ـ وتيم هو عمّ قصي ـ وبنو الحارث بن تيم بن غالب بن فهر ـ وهو قريش ـ) أيديها في الطيب واحتلفوا فسُمُّوا بالمطيِّبين ، ونحر الآخرون جَزوراً وغمَسوا أيديَهم في دمه ، ولعق رجلٌ من بني عدي من ذلك الدم لَعقَة ، فَلَعَقُوا ، واحتلفوا ، فسُمّوا الأحلاف ، ثم تناهدوا للقتال ، فمشت السفراء بينهم حتى اصطلحوا على أن لبني عبد مناف بن قُصي السِّقاية والرفادة ، ولبني عبد الدار بن قصي اللواء والحجابة (انظر شجرة نسب قريش) .

الأنساب العدنانية

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣

جـ ـ **الحروب** : ومن أشهر الحروب الكبرى التي قامت بين القبائل الحروب التالية :

١) **حرب البَسوس** : وهي حرب وقعت بين قبيلتي بكر بن وائل وتغلب بن وائل من قبائل ربيعة ، ودامت هذه الحرب أربعين سنة . وكان سببها : وطء طرف العزة العربية ، حين حمى جَسّاسُ بن مُرة من بكر ، على كليب ـ سيد تغلب ـ ناقةَ رجلٍ نزل بدارِ خالته ـ أي خالة جساس ـ التي تسمى « البسوس » ولما قَتَل كليبُ الناقة المذكورة صرخت البَسوس : واذُلّاه ، فقتل جساسٌ ـ وهو أخو زوجة كليب ـ كليباً ، فثارت الحربُ بين القبيلتين تغلب وبكر .

٢) **حرب داحِس والغَبْراء**: وهي حرب وقعت بين قبيلتي عبس بن بغيض ، وذُبْيان بن بغيض ، من قبائل غطفان التي يرجع نسبها إلى قيس بن عيْلان ، ودامت هذه الحرب أربعين سنة . وكان سببها أنه كان لقيس بن زهير حصان اسمه « داحِس » ولحَمَل بن بدر فرس اسمها « الغَبْراء » فاتفقا على سباقٍ بينهما على أن للذي يسبق منهما مائة من الإبل ، فنصب حَمَل بن بدر صاحب « الغبراء » كميناً قبيل نهاية السباق ليردوا « داحس » عن الوصول إلى نهاية السباق إن هو سَبَق ، فسبق داحِسٌ ، فخرج الكمين في وجهه فردّوه ، ووصلَت الغَبْراء ، فغضب قيسٌ صاحبُ داحِس من هذا التصرف ، وما أن وصل مالك ـ أخو حمل ، صاحب الغَبْراء ـ إليه يطلب حق السبق حتى قتله قيس ، ثم تصالح مع أولياء القتيل على الدية فدفعها إليهم ، ولكن أولياء القتيل ما لبثوا أن قتلوا قيساً ، فوقعت الحربُ بين الفريقين ، عبسٍ وذُبيان ، وكانت ذات وقائع كثيرة امتدت أربعين عاماً .

٣) **حروب الفُجّار** : كانت العرب عموماً يعظمون الأشهر الحرم ـ وهي :

ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب ـ ويحرِّمون القتال فيها ، إلاَّ طيئاً وخَثْعَم فإنهم كانوا يُحِلّونها ، وإنما كان تحريمها ليتمكن الناسُ من أداءِ الحج في هذه الأشهر المتوالية فيها ، وليتمكنوا من أداءِ العُمْرة في رجَب وسط العام ، فلا يخافون إغارةَ القبائل على قوافلهم أو أفرادِهم السائرين إلى مكة ، فإذا نشبت في هذه الأشهر الحُرُم حربُ سموها « حرب الفُجَّار » .

وحروب الفجار أربع :

الأولى منها : تلك التي نشبت بين كِنانة وهَوازن ، ولم يقع فيها بأس شديد .

والثانية : نشبت بين قريش وهَوازن ، ولكن لم يلبث أن أصلح بين القوم حربُ بن أميّة .

والثالثة : نشبت بين كِنانة وهَوازن ، حيث تهايج الناسُ في عكاظ بسبب دَيْن كان على رجل من كنانة ، لم يستطع الوفاءَ به ، ولكن ما لبث الناسُ أن تراجعوا لما رأوا تفاهة المُخَاصَمِ فيه ، فلم يقع بينهم قتال .

والرابعة : نشبت بين قبائلَ كِنانة من جهة ، وهوازِن من جهة أخرى ، حين قَتَلَ رجلٌ خليعٌ من كنانة اسمه « البَرَّاضُ » سيداً من سادات هوازن هو « عُرْوَة الرَّحّال الكلابي » ، فأبت هوازن أن تَقْتُل « البرّاضَ » الخليعَ بـ « عروة » السيد ، وطلبوا أن يقتلوا به سيداً من سادة قريش ، فلم تسلّم لهم قريش بذلك ، وتواعدوا للحرب من العام القادم ، فجمعت هوازن قبائلَها واستمالت معها قبائلَ سُلَيم ، وكان الجميع تحت قيادة مسعود بن معتّب ، وجمعت كنانة قبائلها وكان الجميع تحت قيادة حرب بن أميّة ثم وقع القتال ، وقد اشتملت هذه الحرب على خمسةِ

وقائع كبرى في أربع سنين ، قتل فيها خلق كثير.

وقد شهد الرسولُ صلى اللّه عليه وسلم هذه الحرب مع أعمامه وكان عمره فيها أربع عشرة سنة .

وكانت ـ عدا عن هذه الحروب الكبرى ـ تقعُ إغارات فردية بين القبائِل تكون أسبابُها شخصيّةً أحياناً ، أو طلبَ العيش أحياناً أخرى ، إذ كان رزقُ بعضِ القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حدِّ سيوفِها ، ولذلك ما كانت القبيلةُ تأمَن أن تَنْقَضّ عليها قبيلةٌ أخرى في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ لتستلبَ أنعامَها ومؤَنَها ، وَتَدَعَ دِيارَها بلقعاً .

٦ ـ الحالـة النفسيـة :

إذا أردنا أن نقرأ الحالة النفسية العامـة التي كانت تسيـطرُ على المجتمع الجاهلي حين بعثةِ الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، لقرأنا فيها كلمةً واحدة هي « **الخوف** » وهذا الخوف قد يكون خوفاً من الجوع في تلك الطبيعةِ القاسية التي تشحُّ على الناس بإنبات الزرع، لتَشْبَع منه بهائمُهم وأناسِيُّهم؛ وقد تكون خوفاً من أن تُغِيرَ عليهم قبيلةٌ أخرى في ليلٍ أو نهارٍ فتستاق أنعامَهم، وتسبي نساءَهم، وتنهب مؤنهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة النفسية ـ الخوف ـ التي كانت تسودُ الجزيـرةَ العربيـة ، وأمتَنَّ على قريش وأهـلِ مكة بـأن أنقذهم من هـذا الخوف بإتباب الأمن في ربوعهم فقال تعالى في سورة العنكبوت/ ٦٧ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أنا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حَوْلِهم ﴾ وقال في سورة قريش : ﴿ فليعبُدُوا رَبَّ هَذَا البيتِ * الذي أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهم مِنْ خَوْفٍ﴾.

وما الشجاعة التي كان يتحلى بها العربيّ إلاَّ وليـدة هذا الخـوف ، لأنها عِدّة حياته وحياة أسرته وقبيلته ، ولو تخلى عنها لمات جـوعاً ، أو لنـالته رمـاحُ القبائل الأخرى ، فالشجاعة هي خيارُه الوحيد في درب الحياة .

٧ـ الخـــلاصــــة :

إن البيئةَ التي نشأ فيها رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كانت بيئة مهدّمة .

ففسادُ العقيدة يسودُ في كل مكان ، إذ العقائدُ السائدةُ ـ حتى السماوية منها ـ لا تملكُ القدرةَ على السمو بالإنسان، إمّا لتحريفها عن أصولِها الأولى السليمة ، أو لتَسَفُّلِها وارتباطها بالمادية المغرقة .

وسوء الحالة الاقتصادية نتيجة لقسوةِ الطبيعةِ من جهة ، ولسوءِ توزيع الثرْوَةِ من جهة ، منعت كلَّ تطورٍ مدَني في المنطقة ، حتى بقيت البيئة العربية تسيطر عليها البداوة على الرَّغم مما وجد فيها من ممالك .

والأميَّة والجهلُ عَقَلا الفِكْر عن الانطلاق والتفتح ، وجعلاه اسيرَ عاداتٍ متخلفة باليةٍ، وعقائدَ خرافية زائفة، يضيق بها أحياناً، ولكنه لا يتخذ من هذا الضيقِ مَخْرجاً .

وفساد التركيبة الاجتماعية ابتداءً من نُـظُمِ الزواج المسؤولة عن تكوين الخليةِ الأولى في المجتمع ، وانتهاءً بالعصبية القَبَلِيَّة التي جعلت شعارها : انصُرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً .

وغيابُ الدولة السياسية التي تجمعُ القبائل وتظلُّها بمظلةٍ واحدة ، جَعَلَ القويَّ من القبائل يأكُلُ الضعيفَ ، وقانونَ الغابِ هو الذي يحكم .

وجوّ القلق والخوف الذي يسيطر في كل بقعة من أنحاء الجزيرَة العربية استَلَّ السعادة من النفوس ، وجعل الأعصاب مشدودة دائماً .

هذه البيئة ترفع أيديها ضارعة إلى اللَّه العلي الأعلى طالبة منه إرسال المخلِّص الذي يُصْلِح حالَها ويخلّصها من الظلام الدامِسِ الذي تاهت في طياته، وكادت أن تفقد ذاتها فيه .

إنها تضرع إلى اللّه وهي واثقة بأن اللّه لن يتركها تكمل مسيرةَ الضياعِ التي مضت إليها ، وانه لا بد وأن ينتشلها من ضياعها ، كما انتشل أمماً سبقتها في الجهالة .

ومن هنا انطلقت التَخرُّصات بقرب مبعث نبي يرسله اللّه تعالى لإنقاذها .

وَشَدَّ أزرَ هذه التخرصات البشاراتُ التي بَشَّر بها الأنبياء السابقون بمبعث رسولٍ يقودُ الناسَ إلى ساحل السلام[1] فكان رسولُ اللّه هديةَ السماء للأرض قادَ الركْبَ ، وأصلَحَ ذاتَ البين ، وَغَمَرَ النفوسَ بالخير ، وأشاع الأمن والرخاء ، حتى إن الراكب يسير من العراق إلى الحجاز لا يخاف إلّا اللّه والذئبَ على غنمه .

(١) انظر كتابنا : «محمد في الكتب المقدسة» والجزء الأول من «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني ، بتحقيقنا .

مَدى تأثير البيئة في شخصيّة الرسول

١ ـ إن حديثنا عن تأثير البيئة في شخصية الرسول صلى اللّه عليه وسلم **لا يعني إلغاءَ دورِ الوحي** في إعداده نبياً يحملُ أعباءَ رسالةِ الإصلاح ، ولكننا نعتقد أن الوحي لا يجعل الرسولَ صلى اللّه عليه وسلم مشلولَ الفكرِ والتدبير ، ومن هنا كان حديثُنا عن تأثير البيئة في شخصية الرسول لا يتناقض مع توجيه الوحي للرسول صلوات اللّه وسلامه عليه .

٢ ـ كان من المفروض أن يَلُفَّ **التيارُ الجارفُ محمداً** ويدفع به في مساره كما لفَّ سائر شباب العرب ودفع بهم في مساره ، ولكن محمداً صلى اللّه عليه وسلم شخصٌ ليس كبقية الأشخاص ، فقد حَباهُ اللّه تعالى عقلاً راجحاً لا نظير له في رجالات العرب ، فما كان له أن يهجُرَ عقلَه ويتبع غيره ، ولذلك فإنه كان ينظر إلى العاداتِ والأعراف والتصرفات السائدة في البيئة التي نشأ فيها نظرةَ فكرٍ وتأملٍ ، فإذا كانت صالحةً كان أولَ الآخذين بها والمشجعين عليها ، ومن ذلك نظرته إلى حلْفِ الفُضول الذي تحدثنا عنه فيما مضى ، والذي تعاقدت فيه بطونُ قريش على ألاّ يَجِدوا بمكة مظلوماً إلَّا نصروه ، ولا ظالماً إلَّا أخذوا على يديه ، لقد استحسن الرسولُ صلوات اللّه وسلامُه عليه هذا العَمَلَ الجليلَ ، وحَضَره وعمره عشرين سنة ، وشجع عليه بقوله : « ما أحبُّ أنّ لي بحلفٍ حضَرتُه بدارِ ابنِ جدعان حُمُر النَّعم وأني أَغْدِرُ به »[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد ١/١٢٩ .

أما إذا كانت العادة السائدة في هذه البيئة لا تتفق مع عقل ولا منطق ولا خُلُق كريم ، فقد كان رسول اللّه يتأثر بها تأثراً عكسياً ، فيقف ضدها ويحاربها ويعمل على إزالتها .

- لقد أنكر محمد **عبادَةَ الأصنام** منذ أن عقل الأصنام، فهو عليه الصلاة والسلام لم يَسجُد لصنمٍ قط ، بل كان يكره الأصنامَ منذ نعومةِ أظفارِهِ ، وإننا لا ننسى جوابه للراهب « بحيرا » يوم استصحبه عمُّه أبو طالب معه إلى بُصرى من بلاد الشام وعمره آنذاك تسع سنوات ، حيث نزلوا قريباً منها ، فدعاهم الراهب « بحيرا » إلى طعام ، ولما حضروا بدأ يتفحص الطفلَ محمداً ببصره ، ثم قال له : يا غلام ، أسألُك بحقِّ اللات والعُزّى إلاَّ أخبرتني عما أسألُك عنه ، فما كان من الطفل محمد إلَّا أن انتفَضَ غضباً وأجاب : لا تسألني باللات والعزى ، فواللّه ما أبغضتُ شيئاً قطُّ بغضَهما[1] .
- وكما انكر عليه الصلاة والسلام عبادة الأصنام التي كانت منتشرة في بيئته قبل أن تنزل عليه النبوة، أنكر أيضاً **اضطهاد المرأة** والتعيُّرَ منها ووأدَها وهي حية ، ولم يزل العالم اليومَ يردد قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من كانت له أُنْثى فلم يَئِدْها ولم يُهِنْها ولم يُـؤْثِرْ وَلَدَه ـ يعني الذكور ـ عليها ادخَلَه اللّهُ الجنـة »[2] ، وقولـه : « من عالَ ثـلاثَ بنات ، أو ثـلاث أخواتٍ ، أو اختين أو بنتين ، فأدَّبَهن وأحسنَ إليهن وزوَّجهن ، فله الجنة »[3] .
- وأنكـر **الجهلَ والأميَّـة** ، لأنه لا يجتمـع نورُ العقـلِ وظلامُ الجهـل ،وأمّـةٌ ترعى ظلامَ عقـولِها وتحـافظ عليه ليست جـديرةً بـالحياة ، وقـد كانت أولُ محاولة عملية جدّية في مكافحة الجهل والأمية إقدامُهُ عليه الصلاة والسلام على فـداءِ المتعلمين من أسرىٰ بـدر من المشركين بتعليم كـل واحـد منهم القراءَةَ والكتابة لعشرة من المسلمين .

---

(١) سيرة ابن كثير ١/٢٤٥ ..
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب : من عال يتيماً .
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب من عال يتيماً .

● وأنكر هتك حرمَةِ شرفِ الكلمة على لسان شعراء لا يَرْعون لشرفِ الكلمة حُرمة ، يتخذونها عدَّة للباطل وسلاحاً على الحق وهؤلاء الذين قال اللّٰه فيهم في سورة الشعراء ٢٢٤ ـ٢٢٥ : ﴿والشّعراءُ يتّبِعُهم الغاوُون * أَلَمْ تَرَ أنهم في كُلِّ وادٍ يَهيمُون﴾ ، أما الشعرُ البناء الذي يدعو للفضيلة ، ويدافع عن الحق ، ويندد بالباطل ، فقد ناصره الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم ، ومما يذكره المؤرخون أن رسول اللّٰه دخل مكة في عمرة القضاء وعبدُ اللّٰه بن رواحة يمشي بين يديه ويقول :

خلّوا بني الكفارِ عن سَبيله   اليومَ نضربُكم على تنزيله
ضرباً يزيلُ الهامَ عن مَقيله   ويُذْهِلُ الخليلَ عن خَليله

فقال له عمر : يا ابن رواحة ، بين يدي رسول اللّٰه ، وفي حرم اللّٰه تقول الشعر ؟ فقال رسول اللّٰه : خلِّ عنه يا عمر ، فلهيَ أسرع فيهم من نضح النبل (١) .

وروى البخاري عن الهيثم بن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة في قصصه يذكر النبي صلى اللّٰه عليه وسلم يقول : « إن أخاً لكم لا يقول الرَّفث » يعني بذلك عبد اللّٰه بن رواحة ، قال :

أتانا رسولُ اللّٰهِ يتلو كتابَه   إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانا الهُدى بعد العمىٰ ، فقلوبُنا   به موقناتٌ أنَّ ما قال واقِعُ
يبيتُ يجافي جنبَه عن فراشِه   إذا ما استثقلتْ بالكافرين المضاجعُ

وندّد عليه الصلاة والسلام بالشعراء الذين نذروا أنفسهم للشعر، **فجنّوا به** جنوناً ، واستبدلوا الواقع بخيالاته وأوهامه ، وتركوا أسَرَهم وأولادهم وراحوا يضربون آباط الإبل من نجد إلى عكاظ في الحجاز ، ذهابهم شهر ورجوعهم شهر ، لِيُسْمِعوا الناس في سوقهم قصيدة نظموها ، ولو أن

(١) أخرجه الترمذي في الأدب باب إنشاد الشعر والنسائي في الحج باب إنشاد الشعر في الحرم .

الواحد منهم عكف على أولاده فرباهم ، أو على عمله فعمل به ، لصنع شيئاً ، أما أن يملك الشعر عليه عقله وقلبه، فيعلق به ويترك ما سواه من الواجبات ، فذلك أمر غير مَرْضيّ ، ويقول فيه عليه الصلاة والسلام : « لأن يمتلىء جوف أحَدِكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً »(١).

- وأنكر **التعصُّب للنَّسَب والقبيلة** والتفاخُر بهما، وأحلَّ محله التعصب للمبدأ والتفاخرَ بالعملِ الصّالح الذي يؤديه الشخصُ نفسُه ، فقد روى أبو هريرة عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال : « إن اللَّهَ يقولُ يومَ القيامةِ إني جَعَلْتُ نسباً وجَعَلْتُم نَسَباً ، فجعلت أكرَمَكم أتقاكم ، وأبيتم إلَّا أن تقولوا فلان بن فلان ، وأنا اليومَ أرفعُ نسبي وأضعُ أنسابكم ، أين المتقون . . . أين المتقون . . »(٢) .
- وأنكر **سوء توزيع الثروة** بين الناس، فَوَضَعَ الكثير من نُظُم إعادة التوزيع إقامةً لصرحِ العدالة بين الناس ، فكان مما قال في ذلك : « مَنْ أحيا أرْضاً قد عَجَزَ صَاحِبُها عنها وتركها بمهلكة فهي له »(٣) وقال : « إنَّ في المالِ حَقاً سوى الزكاة »(٤) .
- وأنكر عادات كثيرةً سادت في البيئة التي نشأ فيها، ولم تستطع هذه العادات رغم تمكُّنِها في هذه البيئة أن تلفَّه ثم تجرفَه في تيارها كما جرفت الآلافَ من شباب العرب ، لأن التيارات لا تجرفُ إلَّا الهشّ الضعيف ، وما سمعنا قطّ أن تياراً جرف جبلاً ، ومحمد جبل أشمّ ، ولذلك تحطمت عليه التيارات .

٣ ـ ونحن لا نريد أن نرجم بالغيب ولا أن نستنطق المجهول لندعي أن هذا الانكار للأمراض العُقَدية والاجتماعية والاقتصادية في البيئة كان نتيجة طبيعية

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر .

(٢) تفسير القرطبي ١٦/٣٤٥ .

(٣) جامع الأصول برقم ١٣٦ .

(٤) أخرجه الترمذي في الزكاة باب إن في المال حقاً سوى الزكاة .

للتركيبية الفكرية والنفسية لمحمد، أو ندعي أنه كان بتعهد الوحي وتسديده، لأن أي الادعاءين كان فإن مردَّه إلى اللَّه تعالى ، فاللَّه هو الذي خلق محمداً بعقلية عبقرية مت[illegible]ة ، وهو [illegible]بحانه تعالى مصدر الوحي .

ولكننا متأكد[illegible] محمداً لن يكون إلَّا كذلك ، فإن لم يوفَّق لأن يكون كذلك بعقله ، فهو سيكون كذلك بتدَخُّل الوحي ، ولا يزال المؤرخون وكتّابُ السيرة يتناقلون خبر أمّ أيمن حين كلم رسولَ اللَّه عمَّه في حضور عيدٍ لهم وعَزَم عليه ، فخرج معهم كارهاً ، فما لبث أن رجعَ مرعوباً ، فقال : كلما دنوتُ منها من صَنَم تمثَّل لي شخصٌ أبيضُ طويلٌ يصيح بي : وراءك ، لا تمسّه ، فما شهِد بعدُ لهم عيداً[1] .

ولا يزالون يتناقلون مشاركةَ محمدٍ ـ وهو صغيرٌ غضُّ الإهاب ـ في نقل الحجارة لبناء الكعبة ، فقال له عمه العباس : اجعل إزارَك على عاتِقِك من الحجارة ، ففعل ، فخرَّ إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم قام فقال : « إزاري » فشدّ عليه إزاره[2] .

ولا يزالون يذكرون أنه علم بإقامة حفلةِ عرس في مكة فتوجه إلى المكان ليسمُرَ مع السامرين، ويلهو مع اللاهين من شباب قريش، ولكن ما أن وصل المكان مبكراً وجلس على الباب منتظراً قدوم الأقران حتى ألقى اللَّه تعالى عليه النومَ ، وما زال نائماً حتى أيقظه حرُّ الشمس في اليوم الثاني[3] .

وبذلك نؤكد أن شخصيةَ محمدٍ صلى اللَّه عليه وسلم لم ترسمْها البيئة التي نشأ فيها بما فيها من خير وشر، ولم يَكن إنكاره للشر ردّ فعل منه على البيئة ، ولكنها العنايةُ الإلٓهيةُ أولاً وآخراً .

---

(١) الشفاء ٢/ ١١٨ والوفا بأحوال المصطفى ١٣٨ .
(٢) سيرة ابن كثير ١/ ٢٥١ .
(٣) سيرة ابن كثير ١/ ٢٥٢ .

مصادر علم الرسول

١ ـ أُميَّة الرسول :

ونحن في صدد الحديث عن مصادر علم الرسول محمد صلى اللَّه عليه وسلم لا بد لنا بادىء ذي بدء من بتِّ القولِ في أُمِّيته عليه الصلاة والسلام ، وقد ورد النص القاطع على ذلك في الآيتين ١٥٧ و ١٥٨ من سورة الأعراف ، فقال تعالى : ﴿ الذين يتَّبعونَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يَجِدونَه مكتوباً عندهم في التوراةِ والإِنْجيلِ يأمُرُهم بالمعْروفِ وَيَنْهاهم عنِ المُنْكرِ ويُحِلُّ لهمُ الطّيِّباتِ ويُحرِّمُ عليهم الخبائِثَ ويَضَعُ عنهم إصْرَهُم والأَغْلَالَ التي كانَتْ عليهم ، فالذين آمنوا به وعزَّرُوه وَنَصَروه واتَّبَعُوا النورَ الذي أُنزِل معه أولئك هم المفلِحون * قل يا أيها الناسُ إني رَسولُ اللَّهِ إليكم جَميعاً الذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرضِ لا إلَه إلَّا هو يُحيي ويُميتُ فآمنوا باللَّهِ وَرَسولِه النبيِّ الأميِّ الذي يؤمنُ باللَّهِ وكلماتِه واتَّبِعوه لعلكم تهتدون ﴾ والأمي في لغة العرب : الذي لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا ما أكدته الآية ٤٨ من سورة العنكبوت : ﴿ وما كُنْتَ تَتْلو من قَبْلِهِ من كتابٍ ولا تَخُطُّه بيمينِك إذاً لَارْتَابَ المُبْطِلون ﴾ .

ولكننا إذا رجعنا إلى كتب الحديث والأثرِ لعثرنا فيها على ما يمكن أن يُفهَم منه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ وكتب، من ذلك :

أ ـ ما روي أنه صلى اللَّه عليه وسلم قرأ صحيفة لعيينة بن حصين وأخبر بمعناها .

ب ـ ما روي مما يدل على معرفته حروف الخطِ وحسن تصويرها، ومن ذلك: أن معاوية كان يكتب بين يديه فقال لـه صلى اللّه عليه وسلم: «أَلِقِ الـدَّواة وحرِّفِ القلم، وأقِمِ الباءَ، وفرِّق السين، ولا تعوِّر الميم، وحسِّن اللّه، ومدّ الرحمن وجوِّد الرحيم»[١].

جـ ـ ما رواه مسلم عن البراء بن عازِب رضي اللّه عنه قال: لما أحصِر النبي عند البيت صالحه أهلُ مكة على أن يدخلها فيقيم فيها ثلاثاً، ولا يدخلها إلاَّ بجُلُبّان السلاح: السيف في قرابه، ولا يخرج بأحد معه من أهلها، ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه، فقال لعلي: «اكتب الشرط بيننا، بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول اللّه» فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسولُ اللّه تابعناك ولكن اكتبْ: محمد بن عبد اللّه، فأمرَ عليّاً أن يمحاها، فقال علي: لا واللّه لا أمحاها، فقال رسول اللّه: «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها وكتب: ابن عبد اللّه[٢]...

وفي رواية البخاري والإمام أحمد: فأخذَ النبيُّ صلى اللّه عليه وسلّم الكتابَ ـ وليس يحسنُ أن يكتب، فكتب[٣]...

وهذا ما دعا بعضَ العلماءِ أمثالَ الشعبي ـ فيما نقل عنه ـ وأبي عمرو السمناني الفلسطيني، وأبي ذَرٍّ عبد اللّه بن أحمد الهروي، وأبي الوليد الباجي إلى القول بأن رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما مات حتى كتَبَ. وأنَ كتابته عليه الصلاة والسلام لا تُخِلُّ بأمِّيَّتِه التي وصفه بها القرآنُ الكريم، فهو أميٌّ فعلاً، ويعرفه الناسُ كلُّهم بذلك، وما كانت الكتابة منه إلاَّ معجزة أمدَّه اللّه تعالى بها أمام هذا الكافر ومن كان معه لعله يؤمن عندما

(١) الشفاء ١/٢٩٩ والجامع الكبير للسيوطي ٢/٦٠٨ وعزاه للديلمي.

(٢) أخرجه مسلم في السير باب صلح الحديبية.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٢٩٨.

يرى أمياً يكتب .

ولكننا إذا دققنا في هذه الآثارِ نجدُ الأثر « أ » قراءة صحيفةٍ لعيينة : لا يصح سنداً ، صرح بذلك القرطبيُّ وغيرُهُ عند كلامه على تفسير قوله تعالى : ﴿ ما كُنْتَ تَتلُو من قَبْلِهِ مِن كتابٍ . . . ﴾ من سورة العنكبوت/ ٤٨ .

أما الأثر « ب » وهو قوله : أَلِقِ الدّواة وحرِّف القلم . . . الخ فإنه لا يصلح دليلاً لأمرين :

الأول : انه لا يصح من حيث السند .

والثاني : انه لا يحمل إلَّا معلومات عامَّة عن حسن الخط ، كتجويدِ القَلَم وإيضاحِ الحروف ، وبذل المزيد من العناية في رسم الأسماءِ المعظَّمة كاسم اللَّه ، والرحمن ، والرحيم ، وهذه توصيات ما زال الآباءُ أمِّيونَ وغيرُ أميين يُوَجِّهونَها لأولادهم عندما يرون عدم الوضوح ، وعدم الإشراق في خَطِّهم ، فهي إذن معلومات لا تمتنع على الأمِّيين العاديين حتى تمتنع على رسولٍ هو أنورُ الأمّيين عَقلاً ، وأشَدُّهم ملاحظة .

أما الأثر الثالث ، وهو حديث البراء بن عازب ، وهو خبر صحيح ، ففيه « أرني مكانها ، فأراه مكانَها ، فمحاها ، وكتب : ابن عبد اللَّه » وليس في هذا ما يدلُّ على أن الرسولَ هو الذي كتب بيده ، ولكن فيه ما يدل على أن الرسولَ صلى اللَّه عليه وسلم محاها بيده لئلا يحنث عليٌّ كرّم اللَّه وجهه بيمينه ، لأنه حَلَف أن لا يمحوها ، لأن قولَه في الخبر : « وكتب : ابن عبد اللَّه » يَحتَمِل أن يكون الكاتبُ هو رسول اللَّه ، ويحتمل أن يكون الكاتب هو علي بن أبي طالب وهو الاحتمال الأقوى ، نظراً لأن رسول اللَّه كان أمّياً ، ونظراً لأن علياً لم يحلف أنه لا يكتب ، وإنّما حلف أن لا يمحو .

وأما ما جاء في الرواية الثانية لهذا الخبر « فأخذَ النبيُّ الكتابَ ، وليس يُحْسِنُ أن يكتب ، فكتب » فإنها تعني : لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعرُف القراءة سأل علياً عن مكان الجملة المختلف عليها ، فأراه عليٌّ مكانَها ، فأخذ الرسُول صلى الله عليه وسلم منه الكتاب ، ومحا هذه الجملة ، ولما كان رسول الله لا يعرف الكتابة أيضاً ، كتب عليٌّ رضي الله عنه « ابن عبد الله » ، ولكن حبَّ القوم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وَجَّهَ فهمهم إلى إعادة الضمير في « كتب » إلى رسول الله ، لأنهم بذلك يزيدون معجزاته معجزة أخرى ، وفي هذا تعظيم لشأنه ، ولو أنهم ـ رحمهم الله ـ فكّروا في الأمر أكثرَ لوجدوا أن ذلك لا يستقيم ، لأن المعجزةَ في حقهِ عليه الصلاة والسلام أنه أميٌّ أفحَمَ العلماء ، وأَلْجَمَ بالفكرِ المفكّرين ، وساقَ للمؤرخين أخبارَ ما لا يَعلمون ، فقامت له الحجة ، وأُلْجِم بها الجاحدون ، وإن إطلاق الله يَدَ رسوله بالكتابة لتكون هذه الكتابة معجزة له ، وهو نقضٌ للمعجزَةِ الأولى ـ وهي الأمية ـ والمعجزات يستحيل أن ينقض بعضها بعضاً . لأنها إذا تناقضت تَساقَطَتْ ، وليس في تساقطها مصلحةٌ للدعوة ولا للداعي .

وإذا ثبتت لنا أُميَّةُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم سقطت معها كلُّ دعوى تقول أن كتّاباً من داخِلِ الجزيرة العربية أو من خارِجِها كانوا يكتبون العلم للرسول صلى الله عليه وسلم، أو أنه جَمَعَ كُتُبَ الأوّلين، فهو يقرؤها في الليل ويذيعها في النهار .

٢ ـ المصادر التي يمكن أن يستقي الرسول المعلومات منها :

يحاول بعضُ الكتّاب الغربيين مثل « فون كريمر » في كتابه « الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بغيرها من الحضارة الأجنبية » أن يُثبت أن الدينَ الذي جاءَ به محمدٌ من عند ربه ما هو إلَّا مجموعةٌ ملفقةٌ مما خلّفته الأديانُ السابقة من

تعاليم ، ومما سادَ بين الشعوب من عادات وتقاليد ، وبذلك يفرضُ أن محمداً صلى اللّه عليه وسلم رحّالة جَاب الآفاقَ وعرف عادات الشعوب والقبائل التي تعيش وسط أدغالِ الهندِ والصينِ وأفريقيا ، ودائرة معارف درس الأديانَ البائدةَ السماوية منها وغير السماوية ، ثم انتقى من ذلك كلِّه مجموعةً من التعاليم ضمَّ بعضها إلى بعضٍ وسمّاها « دين الإسلام » .

ونحن لا نريدُ أن نردَّ على أمثال هؤلاء الكتّاب لأن الواقع ذاته ومنطق الحوادث يرد عليهم ، فمحمد أميٌّ ، ونشأ في مجتمعٍ أميٍّ ، ولم يخرج من بلده إلَّا في رحلتين لبلاد الشام سنتحدث عنهما فيما بعد ـ إن شاء اللّه تعالى ـ فضلاً عن أن عاداتِ كثير من الأمم التي تحدث عنها هؤلاء لم تُعرَف إلَّا في القرنِ الثامن عشر الميلادي أو التاسع عشر بفضل الحفريات الأثرية .

وعلى العموم : يمكننا أن نحصِر المصادرَ التي يمكن أن يستقي منها الرسولُ المعلومات قبل البعثة ـ استناداً إلى وقائع السيرة المطهرة ـ بالمصادر التالية : المعلومات التي كانت متوفرة عند العرب الوثنيين ، والنصارى ، واليهود ، والقانون الروماني الذي كان سائداً في بلاد الرومان .

ويضافُ إلى هذه المصادرُ « الوحي » بعد النبوة ، وسنناقش فيما يلي مدى استفادة الرسول صلى اللّه عليه وسلم من كلِّ مصدرٍ من هذه المصادر :

أ ـ **المعلوماتُ المتوفرَةُ عندَ العَرَب عبّاد الأوثان** : من الدراسة التي قدّمناها عن البيئة وما أوردنا فيها من معلوماتٍ ، ومقارنة هذه المعلومات مع ما جاء في الإسلام يتبين معنا أن الملاقاة معدومة بين عقائد الإسلام وعقائد الجاهلية ، وهي معدومة أيضاً بين عبادات الإسلام وعبادات الجاهلية إلَّا في مسائل معدودة في الحج ، لأن الحج في أصله ليس من وضعِ العرب ، وإنما هو عبادةٌ مشروعةُ الأصولِ في دينِ إبراهيم عليه السلام ، فقد أمر اللّهُ إبراهيمَ أن يدعوَ الناسَ إليه كما حكى القرآن ذلك في سورة

الحج / ٢٦ : ﴿ وإذْ بَوَّأنا لإبراهيمَ مَكانَ البيتِ أنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطائِفِينَ والقائِمينَ والرُّكّعِ السجودِ * وأذِّنْ في الناسِ بالحَجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كُلِّ ضامِرٍ يأتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميق * لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لهم ويذكُروا اسمَ اللَّهِ في أيَّامٍ مَعْلوماتٍ على ما رَزَقَهم من بَهِيمةِ الأنعامِ ، فكلوا منها وأَطْعِموا البائِسَ الفقيرَ * ثم ليقْضُوا تَفَثَهم وليُوفوا نذورَهم وليَطَّوَّفوا بالبيتِ العتيقِ ﴾ .

ولكن العرب ما لبثوا أن حَرَّفوا حَجَّ إبراهيم وطوَّروه بما يتناسب مع عقيدتهم وعبادتهم لأصنامهم ، فكانت كلُّ قبيلةٍ تُنْسِك لصنمها ، وكان لكل صنم تلبية خاصة تختلف عن تلبيةِ من نَسَكَ لصنم غيره ، وكانت بعض التلبيات يدخلها الشرك .

فكانت قريش تُنسِك لإسافٍ، وكانت تقول: « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلاَّ شريك هو لك ، تملكه وما مَلَك » .

وكانت تلبية من نسك لسُواع « لبيك ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، أَبْنَا إليك ، إن سُواعَ طَلَبْنا إليك » .

وكانت تلبية من نسك لشمس « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، ما نهارنا نجرُّه ، إدلاجُهُ وحره وقرّه ، لا نتقي شيئاً ولا نضره ، حجاً لربٍّ مستقيم برُّه » .

وكانت تلبية من نسك لِهُبَل « لبيك اللهم لبيك ، إننا لِقاح ، حَرَّمْتَنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح » .

وكانت تلبية من نسك لسعيدة « لبيك اللهم لبيك، لبيك لبيك ، لم نأتِك للسياحة، ولا طلباً للوقاحة، ولكن جئناك للنصاحة».

وكانوا يذبحون الهدايا في مِنى ، ويرمون الجمار ، ويقفون بعرفات

ويدفعون منها قبل المغرب والشمس نقيَّة ، إلَّا قريش فإنها كانت لا تخرج من منى ، ولا تقف بعرفات ويقولون : لا نعظم من الحلِّ ما نعظِّم من الحَرَم .

وكل هذه الأمور من آثار إبراهيم عليه السلام، التلبية والرجم وذبح الهدي والطواف ، وإقرار الإسلام لها لم يكن إقراراً لعبادة موجودة في المجتمع الوثني ، ولكنه إقرارٌ لعبادةٍ كانت في دينِ إبراهيم ، شرعها اللَّه تعالى لعبادتِهِ في دينه ، ثم جدَّد مشروعيتها في الإسلام بعد أن خلَّصها مما شابها من عباداتِ الجاهلية وعاداتها .

أما الأمور التي تلاقىٰ فيها الإسلامُ مع العادات التي كانت منتشرة في المجتمع العربي الوثني فهي كثيرة ، نذكر منها : مبدأ تعدُّدِ الزوجات ، ومبدأ الطلاق ، ومبدأ العدة للمطلقة ، وللمتوفى عنها زوجها ، مع ملاحظة الفوارقِ الكبيرةِ في هذه الأنظمة بين ما كانت عليه في الجاهلية وبين ما جاء به الإسلام .

والسؤال الآن : هل كانت مشروعيةُ الإسلام لهذه الأنظمة استقاءً منه لهذه الأنظمة من المجتمع العربي الوثني الذي كان يأخذ بها ؟ أم هي شرع مبتدَأٌ من اللَّه تعالى كان لا بدَّ منه لحاجة الإنسانية إليه في ذلك العصر وفي العصور التي تليه ؟

لا نستطيع أن نقول إن محمداً صلى اللَّه عليه وسلم استقىٰ هذه الأنظمةَ من المجتمع العربيِّ الوثنيِّ لأنه لو كان قد فعل ذلك ، لأخذها كما هي ، وكما يطبقها العرُب ، مع أنه لم يفعل ذلك ، فالمقارِن بين هذه الأنظمة كما هي عليه في الجاهلية وكما هي عليه في الإسلام يجد فوارقَ جذرية بدءاً من فلسفة النظام وانتهاء بالآثار المترتبة عليه ، ومروراً بانسجامِهِ مع الأنظمة الأخرى السائدة معه ، فالعرب الوثنيون ـ مثلاً ـ كانوا يأخذون بمبدأ العِدَّة للمطلقة وللمتوفّىٰ عنها زوجها ـ بقطع النظر عن

مدَّتها ـ حفاظاً على عدم اختلاطِ الأنسابِ ، وهم يتناقضون في ذلك عندما يأمرُ الواحدُ منهم زوجتَه بعد أن تـطهُرَ من حيضِهـا أن تأتي فـلاناً ليـطأها لتحمل منه ثم تعود إلى زوجها طلباً لنجابَـةِ الولـد ـ وهو مـا يسمى بنكاح الاستبضاع ـ فأي تناقضٍ بين الأنظمة هذا ؟!!

ولو تمسك متمسِّك بدعواه أن هذه الأنظمةَ قد استمدَّها محمدٌ من البيئـة العربيـة ، لقاده ذلـك إلى القول : إن كـل ما أتى بـه الإسلام من الفضائل مما يتفق مع ما عليه أهل الوثنيـة من الشجاعـة والكرم ، وحفظ الجوارِ وغير ذلك مأخوذ من البيئة الوثنية ، ولا يقـول بهذا عـاقل ، لأنهـا سَلْبٌ لأخصّ خصـائصِ التفكير الإنسـاني في تحـرّي الحق ، ولأخص خصائص الوحي في شرع ما يُصلِح للناس دنياهم وينقذُهم في أخراهم .

وأما قصصُ الأمم السابقة من العربِ البائدةِ كقوم عادٍ وقـوم هودٍ ، وقومِ ثمودٍ ، وقوم صالحٍ ، وأهلِ مَدْيَنَ قومِ شعيب فإن العربَ لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً ، بل هم لا يعرفون من قصص الأمم السابقة من العرب الباقية كالمعينين والسبئيين والحميريين إلَّا حكايـات شعبية لا تحمـل أيَّ دليلٍ على صحتها لا من الوثائق ولا من الشعر العربي .

ومحمدٌ أذكى من أن يورِّط نفسَه بروايـة حكايـاتٍ شعبيةٍ لا يُعـرف مدى صحتها ، فما حكاه القرآن أو حكته السنـة من قَصَص هؤلاء الأقوام ليس مصـدره ما شـاع بين القوم من حكـايـات ، ولكن مصـدره الـوحي الإلّهي .

وأما علوم السياسة والحرب والاقتصاد والدعـوة فلم يكن شيءٌ منها معروفاً عند العرب .

ب ـ **المعلومـات المتوفـرة عند النصـارى** : لا بد لي من أن أنـوِّه أولاً إلى أن محمـداً صلى اللّه عليه وسلم قـد نشأ في مكـة ـ في ذلـك الـوقت ـ بلد

الأوثان ، وسكانُها كلُّهم من عبّاد الأوثان ، ولم يكن فيها من النصارى إلاَّ نفرٌ يسيرٌ ما كانَ رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يجلس إلى واحد منهم قبل البعثة[1]، وإن كان قد أخذ يتردد عليه بعدَ البِعْثة نَفَرٌ حتى آمن منهم «جَبْر» غلام الفاكه بن المغيرة، وقيل: كان عبداً لبني الحضرمي، و«يعيش»و كان عبداً لبني الحضرمي، وقيل: لبني المغيرة، وقيل: لبني عامر بن لؤي، و « يسار » وقيل اسمه « نبت » ويكنى بأبي فُكَيْهة ، و « بلعام » و « عابس » وكان عبداً لحويط بن عبد العزى ، و « عداس » وكان عبداً لعتبة بن ربيعة ، و « أبو ميسرة » ، أما سلمان الفارسي فإنه لم يلتحق بالرسول إلاَّ في المدينة المنورة .

وإذا كان هؤلاء قد انقلبوا أتباعاً لمحمد، فأسْلَموا، وأخذوا يقتدون بهديه ، فهذا يعني أن محمداً لم يأخُذْ منهم شيئاً ، بل كانوا هم الذين يأخذون منه ، وإلاَّ لما سَلّموا له بالإمامة والنبوة .

ولما سافر رسولُ اللَّه مع عمه أبي طالب إلى بُصرىٰ من بلاد الشام ـ وكانت تلك البلاد تدين بالنصرانية ـ ورأى هناك الراهبَ « بَحيرا » كان عمره لا يتجاوز اثنتي عشرة سنة ، وكان تحت رقابة عمه أبي طالب خاصة ، وتحت رقابة رجال القافلة من قريش عامة ، خاصة بعد أن حذَّرهم « بحيرا » من غَدْرِ اليهودِ به إن هم رأوه ، ورغم أن تفاصيلَ ما دار بين بحيرا ومحمد قد نقلت إلينا ، إلاَّ أنه لم ينقل لنا أن بحيرا علّم رسولَ اللَّه شيئاً من الدين ولا من غيره ، كما لم ينقل إلينا أن محمداً كان يبحث عن معلومات يريد جمعها ، بل إن سِنَّه لم تكن تؤهله لذلك ، ولا تشجِّع أحداً على أن يلقِّنه شيئاً من المعلومات الدينية .

وإذا أضفنا إلى ذلك قِصَر مدةِ الرحلة ، وحرصِ أبي طالب على

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٣٥١ .

استصحاب محمد معه أينما ذهب عملاً بنصيحة « بحيرا » وخوفاً عليه ، أمكننا أن نقطع بأن هذه الرحلة لم تكن مصدراً للمعلومات الدينية بالنسبة لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

ولما سافر رسولُ اللَّه مرَّة ثانيةً إلى بُصرى بتجارة لخديجة بنت خويلد كان عمره آنذاك خمساً وعشرين سنة ، وكان يرافقُه في هذه الرحلة « مَيْسَرة » غلام خديجة .

ورغم أن الراهبَ « نُسطورا » تنبأ بنبوةِ محمدٍ صلى اللَّه عليه وسلم لأنه رآه يجلس تحت شجرة زعم الراهبُ أنه لا ينزل تحتها إلَّا نَبيٌّ ، ولأنه رأى الغمامَ يُظلُّه ـ وأخبر بذلك ميسرة ـ إلَّا أنه لم يكن لقاء ولا حديث بين رسول اللَّه وبين الراهب .

وكان همّ رسولِ اللَّه في هذه الرحلة منصرفاً إلى التجارة ، لأنه كان يريد أن يثبِّت قدمه في عالم التجارة لعلها تدفع عنه بعضَ الفَقْر ، ولذلك فإنه لم يحدِّث أحداً من نصارى تلك البلاد بأمرِ دينِه ، ولم يحمل شيئاً من المعلوماتِ عن النصرانية ، إلَّا تلك المعلومات العاميّة التي يصادفُها كلُّ إنسان ، وهي معلومات لا تصلح مصدراً علمياً يمكن الاعتماد عليه .

المعلومات المتوفرة عند اليهود : لقد عاشَ رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فترةَ ما قبلَ النبوة وثلاث عشرة سنة من النبوة في مكة المكرمة ، ولم يكن في مكةَ من اليهود أحدٌ في ذلك الوقتِ ، لأن اليهودَ كانوا يتوطّنونَ في المدينةِ المنورةِ وما حولها ، وفي خيبر ، وفي تيماء ، وفي وادي القرى ، وفي اليمن ، وكل هذه المراكز كانت بعيدةً كلَّ البُعد عن مكة ، ولم يرحل رسول اللَّه إلى واحد منها ، ولم ينقل إلينا أبداً أن رسول اللَّه كان يتردد على أحد من اليهود ، ولذلك فإننا نجزم بأن اليهودية لم تكن مصدر معلومات للرسول عليه الصلاة والسلام .

د ـ **القانون الروماني** : من المعروف أن الامبراطورَ الروماني « جستِنْيان » لما وضع مجموعاتِه القانونية ألغىٰ جميعَ المدارس القانونية ، ولم يبقَ منها إلاَّ ثلاثة مدارس هي : مدرسة روما ، ومدرسة القسطنطينية ، ومدرسة بيروت ، ليضيِّق دائرة تفسير القانون ، ثم دُمِّرت مدرسة بيروت على أثر زلزال شديد ضرب بيروت وأعقبه حريق هائل قبل ولادة الرسول بعشرين عاماً تقريباً أي سنة ٥٥١م ، ولم تكن هناك أية مدارس قانونية رومانية في الجزيرة العربية لا في الشمال ولا في الجنوب .

وإذا كانت إقامةُ رسول اللّه في مكة ، فإن من المستبعد أن تكون هذه المدارس مصدراً من مصادر المعرفة له ؟

ولا يصح أن يقال : إن محمداً قد اطلع على كتُب القانون الروماني ، لأنه قد تقدم معنا أن محمداً كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب أوَّلاً ، ولأن كتب القانون الروماني لم تكن مكتوبةً باللغة العربية ، وأول كتاب منها ترجِمَ إلى العربية هو الكتاب السوري الروماني ، وكان ذلك في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي .

فإن قيل : إن اطلاع محمد على القانون الروماني كان عن طريق الناس الذين قابَلَهم في رحلته الثانية إلى بلاد الشام ، حيث كان القانون الروماني هو الذي يحكَّم في بصرى الشام .

قلنا : إن الأفكارَ والمبادىءَ القانونية هي أفكارٌ ومبادىء دقيقة ، لا يقدر غير المختصين على نقلها من أمة إلى أمة ، وإذا ما تم نقلها على أيدي العامة أو المثقفين ثقافة عامة فإن نقلها سيكون مَسْخاً ، لأن ما فيها من قيود وشروط وضوابط لا يقدر على استيعابه إلاَّ المختصّون .

ثم إن محمداً لم يكن في هذه الرحلة متفرغاً لهذا ، بل كان في شُغل عنه بالتجارة التي كان يحمل مسؤوليتها ـ وهو يتولىٰ مثلَ هذا العملَ

لأولِ مرة ، ويريد أن يُثبت وجودَه فيه ـ .

ولذلك فإنه يكـون بعيداً عن التصـوّر أن يلتقط محمدٌ المعلومـاتِ القانونية هكذا على عَجَل ، ويأخذها من غير المختصين ، ثم تتفجَّرُ فقهاً ناضِجاً متكاملاً هو الفقه الإسلامي .

ومن هنا فإننا نجزِمُ بأن القانونَ الروماني لم يكن مصدَراً من مصادِرِ العلمِ لرسول اللَّه .

هـ ـ **الوحي**: مما تقدم تبين لنا بأن محمداً صلى اللَّه عليه وسلم لم يستمدّ مـا أتى به من البيئةِ الجاهليَّةِ الوثنية ، ولا من النصرانية ، ولا من اليهـودية ، ولا من القانون الروماني ، فلم يبق له من مصدر لمعلومـاته المتنـوعَة في العقيدة والعبادَةِ والحياةِ ونُظُمِها ، والإخبار عن القـوانين العامـة للكون إلاَّ الوَحيُ .

وعندما نطلق هنا كلمة الوحي ، فإننا نريد بها أمرين :

الأولَ : ما كان وحياً ابتداءً : وذلـك بإعـلامِ اللَّهِ له بـواسطة مَلَك مكرّم هو جبريل عليه السلام بمعلومةٍ ما .

وما نزل على رسولِ اللَّه من المعلومات بالوحي ابتداء هو كل ما جاء في القرآن الكريم ، وفي الأحاديث القدسية ، والعبادات المفروضة وأركانها ، وكل ما حَدَّثَ به الرسول الكريم مما لا يُعلم بالعقل ، كـأخبارِ الآخـرة ، ووصفِ الجنة والنار وغير ذلك ، سواء أسنده الرسول إلى اللَّه تعالى أم لم يُسنده .

والثاني : ما أقره عليه الوحيُ من الأمور الاجتهادية ، إذ لا يجوز لنا أن نتصور رسولَ اللَّه آلة يحركها الوحي ، فاللَّه تعالى خلق محمداً صلى اللَّه عليه وسلم وخلق له من العقل أكمله ، ومن الذكاء أعلاه ، ومن صدقِ المُحاكمة أسدَّه، وأحاط ذلك كله بالوحي يكلَـؤُهُ ويرعاه، ويسدِّدُ خطاه.

فكان رسولُ اللَّه يجتهد في معالجة بعض الحوادث ، فإن وافق اجتهادُه الحقَّ الذي رضيَه اللَّه ، مضى الأمرُ عليه ، وأقرَّ اللَّهُ رسولَه على اجتهاده ، وفي هذه الحالة لا يُشترط التصريح بالإقرار ، بل السكوت وعدم المراجعة يعتبر إقراراً .

وإن جانبَ اجتهادُ رسولِ اللَّه الحقَّ الذي رضيَه اللَّه، راجعه الوحي بذلك وسدَّد خطاه ، كما حدث حين اجتهد رسول اللَّه في أمر أسرى بدر ، وانصرف اجتهادُه إلى أن المصلحة بفدائهم أكبر من المصلحة في قتلهم ، ففداهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، وما هي إلَّا برهة حتى نزل الوحي مسدِّداً وقائلاً في سورة الأنفال ٦٧ ـ ٦٨ : ﴿ما كَانَ لِنَبِيٍّ أن يكونَ له أسْرَىٰ حتى يُثخِنَ في الأرضِ تُريدون عَرَضَ الدنيا واللَّهُ يُريدُ الآخِرَةَ واللَّه عَزيزٌ حكيم * لولا كِتابٌ من اللَّه سَبَقَ لَمسَّكُم فيما أخَذْتُم عَذابٌ عظيم ﴾ .

وأقبل رسول اللَّه على بعض زعماء قريش يَعرِض عليهم الإسلام ، وبينما هو منهمكٌ بدعوتهم إذ أقبَلَ عليه ابنُ أمِّ مكتوم ـ وكان ممن أسلم قديماً ـ وطلب منه أن يعلِّمه شيئاً ، فلم يلتفت إليه رسولُ اللَّه ، اعتماداً على أن ابنَ أم مكتوم مؤمن مسلم ، يمكنه أن يسألَ رسولَ اللَّه عما بدا له في الوقت الذي يشاء ، أما هؤلاء المشركون فقد أتت الآن الفرصةُ لدعوتهم إلى اللَّه ، وربما لا تأتي هذه الفرصة ثانية ، ثم هم إن آمنوا ربما آمنَ بإيمانهم خلقٌ كثير ، ولذلك فإن ابنَ أمِّ مكتومٍ لما كرر السؤال على رسول اللَّه عَبَسَ رسولُ اللَّه في وجهه وطلب منه أن يرجىء سؤاله لوقت آخر ، فمضى ابن أمِّ مكتوم كسيراً حزيناً ، ولكن هذا الاجتهاد من رسولِ اللَّه لم يُصادف الحقَّ الذي أحبه اللَّه تعالى، فنزل الوحي مسدداً وموجهاً بقوله في سورة عبس / ١ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جاءَهُ الأعمى * وَما يُدْرِيكَ لَعَله يَزَّكى * أو يَذَّكَّرُ فتنفَعُه الذِّكرى * أمّا مَنِ استغنىٰ * فأنت

له تَصَدّى * وَمَا عليك ألاّ يَزَّكى * وأمّا مَنْ جَاءَك يَسْعىٰ * وهو يَخْشَىٰ * فأنت عنه تَلَهّىٰ ﴾ .

واجتمـع طائفـةٌ من المنافقين في المـدينة المنـورة واتفقوا على ألاّ يخرجوا للجهاد مع رسول اللّه ، فقال بعضهم : نستأذن محمداً بالتخلُّفِ عن القتال ، فإن أذِنَ لنا قَعَدْنا ، وإن لم يأذَنْ لنـا قعدنـا أيضاً ولم نلتفت إليه، ثم تقدّموا إلى رسول اللّه واستـأذنوه في التخلُّف عن الجهـاد، فأذن لهم ، ظاناً صِدْقَهم فيما أبـدوه من الأعذار ، ولـو لم يأذَنْ لهم لانكشَفَ نفاقُهم وعرفهم جميعُ الصحابة ، فنزل التسديد والتوجيه من اللّه تعالى في سورة التوبة / ٤٣ : ﴿ عَفَا اللّهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهم حتى يَتَبَيَّن لك الذين صَدَقوا وَتَعْلَمَ الكاذبين ﴾ .

وأصـاب رسولُ اللّه أمَتَـه ماريـة أم ولده إبـراهيم في بيتِ حفصة، فغضبتْ حفصةُ وقالت : يا رسول اللّه في بيتي وعلى فراشي !! فقال لها : أيُرضيكِ أن أحرِّمها على نفسي ، قالت : نعم ، فحرّمها ، فنزل قول اللّه موجهاً في سورة التحريم/ ١ : ﴿ يا أيُّها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أحـلَّ اللّه لك تبتغي مرضاةَ أزواجِك . . . ﴾ .

ولمـا حضرت الـوفاةُ أبـا طالب دخَـلَ عليه النبيُّ وعنـده أبو جهـل وعبدُ اللّه بن أبي أمية فقال النبي : أي عم قل « لا إلَه إلاَّ اللّه » كلمة أحاجّ لك بها عند اللّه ، فقال أبـو جهل وعبـد اللّه بن أبي أمية : يـا أبا طـالب أتـرغبُ عن ملةِ عبد المـطلب ؟! فقـال أبـو طـالب : أنـا على ملة عبـد المطلب ، فقال النبيّ : لأستغفرنّ لك ما لم أُنهَ عنك ، فأنزل اللّه مرشداً نبيَّه ومسدداً في سورة التوبـة/ ١١٣ : ﴿ مـا كـانَ للنبيِّ والذينَ آمَنـوا أن يَسْتَغْفِرُوا للمشركين ولو كانوا أولي قُرْبَىٰ مِنْ بعدِ ما تبيَّنَ لهم أنهم أصْحابُ الجَحيم ﴾ .

وإن المستقرىء للمعلومات التي استمدها الرسولُ من الوحي يجدُها لا تخرج عن نوعين :

الأول : العلم بالمغيبات ، ونعني بالمغيبات ثلاثة أشياء :
١) المغيباتُ الضاربة في القدم كأخبار الأمم الماضية وقصصِهم .
٢) والمغيّباتُ التي ستحدث في مستقبل الزمن كأمارات الساعة ، والبعث والحساب وغير ذلك .
٣) ومغيباتٌ حاضرة ، ولكن لا سبيل إلى معرفتها بوسائلنا الأرضيَّة المتاحَة ، كوصْفِ الجنة والنار ، والإخبار عن بعض القوانين الطبيعية كقوله تعالى في سورة يس ٣٨ ـ ٤٠ : ﴿ والشمسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العليم * والقَمَرَ قدَّرناه منازِلَ حتى عَادَ كالعُرْجونِ القَديم * لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرِكَ القمَرَ ولا الليلُ سابِقُ النهارِ وكلٌّ في فلكٍ يسبحون ﴾ .
والثاني : الأحكام : وهي تشتمل على أحكام العقائد والعبادات والمعاملات وآداب التعامل والسلوك .

أما الحِرَفُ والصناعات كتأبير النخل وحبسِ الماء للزراعة ونحو ذلك فلا دخل للوحي فيها، وإنما يتعلمها الرسول وغيره من البيئة التي يعيش فيها .

٣ ـ الخلاصَة :

إن المصدر الوحيد لرسول الله في كل ما يتعلّق بالعقيدةِ والعبادَةِ والأحْكام وآدابِ السلوك وقصصِ الأوَّلين وقوانينِ الطبيعة هو الوحيُ ، ليس له مصدر سواه وإنه عليه الصلاة والسلام لم يأخذ شيئاً من ذلك من البيئةِ الوثنية ولا من النصارى ولا من اليهود ولا من النظم السائدة في عصره .

شخصية الرسول الآدمية

١ - بشريتُهُ :

خلق اللَّه تعالى البشر ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الشرائعَ ، واقتضت حكمةُ اللَّه سبحانه أن يكون الرسُل لكلِّ جماعةٍ منهم ، لأن ذلك أدعىٰ للالتفافِ حولهم ، والأُنْسِ بهم، قال تعالى في سورة النحل/ ٤٣ : ﴿ وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجالاً نوحِي إليهم ﴾ وكان إرسال الرسُل إلى البشر من البشَر قانوناً إلٰهياً لَا يتخلف ، ولا يُلتَفَتُ إلى مَنْ عَارَضَه لأنها معارضة للمعقول ، ولذلك ما كان جواب اللَّه تعالى لمن طلب أن يكون الرسول إلى البشر واحداً من الملائكة ، إلاَّ تقرير القانون الإلٰهي الطبيعي : أن الرسولَ يجبُ أن يكون من جنسِ المرسَلِ إليهم ، فإذا كان المرسَلُ إليهم بشراً فلا بد أن يكون الرسُول بشراً من جنسهم ، ليكون مألوفاً لديهم ، ولو افتُرِضَ أن أرسَلَ اللَّهُ إلى البشر ملكاً رسولاً لجعله في هيئة البشر كما قال تعالى في سورة الأنعام/ ٩ : ﴿ ولو جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ ولكن لو كان المُرْسَل إليهم ملائكةً لكان الرسولُ مَلَكاً كما قال تعالى في سورة الإسراء/ ٩٥ : ﴿ قلْ لو كانَ في الأَرْضِ مَلائكةٌ يَمْشونَ مُطمَئِنِّين لَنَزَّلْنا عليهم من السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾ .

وطالما أن محمداً كان رسولاً للبشر ، فلا بد من أن يكون بشراً، اطراداً للقانون الإلٰهي ، ولا يجوز أن يكون غير ذلك ، وقد أمره اللَّه تعالى أن يُعلِنَ بَشَرِيَّتَه للناس جميعاً فخاطبه ربه بقوله له في سورة الكهف/ ١١٠ : ﴿ قُلْ إِنَّما

أنَا بشرٌ مِثلُكم يُوحى إليَّ أَنما إِلَهُكم إِلَهٌ واحِدٌ﴾ .

وإذا كان محمد صلى اللَّه عليه وسلّم بشراً فإنه يشتركُ مع سائر البشر في أصل الخلقة ، فهو إنسانٌ من لحم وعظم ودمٍ وأعصابٍ في أصل خلقته ، وليس بشيءٍ آخر مجردٍ أخذ شكلَ إنسان ، ولِدَ من أبوين معروفين هما عبد اللَّه بن عبد المطلب ، وآمنة بنت وهب ، وعاش طفولَتَه كما يعيشُها بقيةُ الصبيان ، وعاش شبابَه وكهولتَه وشيخوختَه كما يعيشُها بقيةُ الناس ، يأكل ويشرب ويتصرف كما يتصرف بقية الناس من بيع وشراء ومشي في الشوارع والأسواق ، وقد تَعَجَّبَ القرآنُ من أقوامٍ ظنّوا أن الرسولَ عليه الصلاة والسلام تكفيه الملائكةُ جميعَ حاجاتِه ، أو أنّ اللَّهَ يعطيه ما يكفلُ له الحياة الرغيدة في الدنيا دون عناءٍ منه أو تَعَب ، معطِّلاً بذلك قانونَ السببية في الرزق ، فحكى لنا قولهم ، وكيف لَقَّن رسولَه الردَّ عليهم ، فقال تعالى في سورة الفرقان ٧ ـ ١٦ وما بعدها : ﴿وقالوا مالِ هذا الرسولِ يأكُلُ الطعامَ وَيَمْشِي في الأَسْواقِ لولا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يُلْقىٰ إليه كَنْزٌ أو تكونَ له جَنَّةٌ يأكُلُ منها . . . تبارك الذي إن شاءَ جَعَلَ لك خيراً من ذلكَ جَنَّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ ويجعلْ لك قُصوراً * . . . . قل أذلكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ التي وُعِدَ المتقونَ كانت لهم جَزَاءً ومَصيراً * لَهُمْ فيها ما يَشاءُون خَالدينَ كانَ على رَبِّكَ وعداً مسؤولاً ﴾ .

ومما يؤكد بشريتَهُ وجود الغرائز والصفات البشرية فيه ومنها :

أ ـ **غريزة الجوع** : مما لا خلاف فيه أن رسولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم كان يجوعُ كما يجوعُ الناس ، فقد قال : عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاءَ مكة ذهباً فقلت : لا يا رب ولكني أشبع يوماً وأجوعُ يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليكَ وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك[1] ، وقد روى

(١) طبقات ابن سعد ١/٣٨١ .

الترمذي عن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما قال : (كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يبيت الليالي المتتابعة وأهلُه طاوياً لا يجدون عشاءً ، وإنما كان أكثر خبزهم خبزَ الشعير)[1] ، وكان يحتاج إلى الطعام لسدِّ جوعه وإقامةِ أوده ، شأنه في ذلك شأن الناس جميعاً .

وقد كان لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم أدبٌ خاص في إرواءِ غريزة الجوع نذكر من ذلك : أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يعيب طعاماً قط قُدِّم إليه ، ولكن إن اشتهاه أكله وإن عافه تركه ، وكان يحب اللحم والحلوى ، وكان الذراعُ أحبَّ شيء إليه من اللحم ففي الصحيحين أن رسول اللَّه أُتي بلحم ، فرفع إليه الذراع وكان يعجبه[2] .

وكان عليه الصلاة والسلام إذا أكل يأكل على السفرة يمدها على الأرض ، وكان لا يأكلُ متكِئاً ويقول : « لا آكل متكئاً »[3] وإنما أجلسَ كما يجلس العبدُ وآكلَ كما يأكل العبد[4] ، وكان يغسل يديه قبل الطعام ، وكان يحب أن يجتمعَ الناسُ عليه ولا يأكلوا فرادى ، وكان إذا جلس إلى طعام سمى اللَّه تعالى في أوله لتدبَّ البَرَكةُ في الطعام ، وأكلَ بيمينه ، وأكلَ مما يليه ، وقد كانت من توجيهاته عليه الصلاة والسلام لعمر بن أبي سلمة قوله له : « يا غلامُ سمِّ اللَّهَ ، وكُلْ بيمينِك ، وكُلْ مما يَليك »[5] ولا يكبّر لقمتَه ، وقد نهى أن يقرن الرجلُ بين تمرتين[6] في لقمة ، وكان يستعمل في طعامه ثلاثَة أصابع[7] ، وكان لا يضع في قصْعتِه إلَّا بمقدار ما يأكل ، وكان إذا أكلَ لا يبقي فيها شيئاً ، وقد كان صلواتُ اللَّه عليه يقول :

---

(١) الترمذي في الزهد باب معيشة النبي .

(٢) البخاري في الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً ﴾ ومسلم في الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة .

(٣) البخاري في الأطعمة .

(٤) طبقات ان سعد ١/٣٨١ .

(٥) البخاري في الأطعمة، ومسلم في الأشربة وغيرهما بألفاظ مختلفة .

(٦) البخاري في الأطعمة ، ومسلم في الأشربة .

(٧) مسلم في الأشربة باب لعق الأصابع .

« من أكل في قصعةٍ ثم لَحَسَها استغفرتْ له القصعةُ »[١] ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أكل كفَّ قبل أن يمتلىء ، ليسهل على المعدة حركتها ، وكان يقول : « إن أكثرَكُم شِبَعاً في الدنيا أطولكم جوعاً يومَ القيامة » [٢] .

وكان إذا شبع لَعَقَ أصابعَه، إن كان يأكلُ بهما، ثم غسل يديه وفمه وقال : « بركةُ الطعامِ الوضوءُ قبلَه والوضوءُ بعده » [٣] .

ب ـ **غريزة العطش** : كان رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه يعطشُ كما يعطشُ جميعُ الناس، ويحتاجُ إلى الماء لإرواءِ ظمئه كما يحتاج إليه جميع الناس .

وكان لرسول اللَّه أدبٌ خاص في إرواءِ غريزة العَطَش ، فكان صلى اللَّه عليه وسلّم لا يشربُ من فمِ السِّقاء أو القُربة وينهى عن ذلك [٤] ولكن يَصُبّ منه في القدح ويشرب ، ويسمي اللَّه تعالى قبل أن يَشْرَبَ ، ويشرب على ثلاث دفعات ، ولا يتنفس في الإناء أثناء شربه ، ويقول : « لا تَشْربُوا واحداً كشُربِ البَعيرِ ولكن اشربُوا مثنى وثلاثَ ، وسَمُّوا إذا أنتم شربتم واحمدوا اللَّهَ إذا رَفَعْتم » وفي رواية عن ابن عباس قال : إن رسول اللَّه كان إذا شرب يتنفس نَفَسَيْن[٥] ، ولا يشرب من ثلمة القَدَح إن كانت له ثلمة وكان ينهى عن ذلك[٦] لأن ثلمة القدح لا تتماسك عليها الشَّفَة ، فربما سالَ الماءُ على وجهه وثيابه ؛ فإذا رَوِي حَمَدَ اللَّهَ تعالى كما تقدم من قوله صلى اللَّه عليه وسلّم : « واحمَدوا اللَّه إذا رَفَعْتم » .

---

(١) الترمذي في الأطعمة باب اللقمة تسقط .
(٢) الترمذي في صفة القيامة باب صور من الفضائل .
(٣) الترمذي وأبو داود في الأطعمة .
(٤) البخاري في الأشربة .
(٥) الترمذي في الأشربة .
(٦) البخاري ومسلم في الأشربة .

وإذا أراد أن يسقي جماعةً بدأ بأكبرِ القوم قَدْراً ، ثم من على يمينه ، فقد تناولَ رسولُ اللّه القدحَ فشرب ، وعن يساره أبو بكر ، وعن يمينه أعرابي ، فأعطى الأعرابيَّ فضلته ، ثم قال : « الأيمن فالأيمن »[1] فإن أراد الساقي أن يشرب شرب بعدما يسقي الناسَ كلَّهم لقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « ساقي القومِ آخِرُهم شُرْباً »[2] .

جـ - **غريزة الألم** : وكان رسول اللّه يمرض كما يمرضُ بقيةُ الناس ، ويتألم كما يتألمون ، فقد ذكر ابنُ عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم احتجم وهو محرم من أكلَةٍ أكلها ، من شاة سَمَّتْها امرأة من أهل خيبر فلم يزل شاكياً[3] - أي متألماً - ؛ ولما رجع عليه الصلاة والسلام من البقيع وجدَ عائشة تصيح : وارأساه ، فقال لها رسولُ اللّه : بل أنا يا عائشة وارأساهُ ، يشكو من ألم رأسه ، وكان هذا بداية مَرَضِه الذي توفي فيه عليه الصلاة والسلام ، وقد اشتد في هذا المرضِ الألمُ على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم[4] .

د - **غريزة الجنس** : لقد أودع اللّهُ تعالى رسوله الغريزةَ الجنسية ، شأنه في ذلك شأنَ سائر البشر، بل لقد أعطاه اللّه تعالى من قوة الجنس ما يفوق الذي أعطاه للناسِ العاديين تأكيداً لبشريته وإعداداً له للمهمة الكبرى التي يُعِدُّه اللّه تعالى لها ، والذي يتطلب القيام بها أن يكون في بيته من الزوجات أكثر مما ببيتِ غيره - كما سيأتي معنا في مبحث «محمد الزوج » -.

وقد كان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم هَدْيٌ خاص في إرواءِ هذه الغريزة ، فكان لا يجيزُ إرواءَها إلّا عن طريق النكاح المشروعِ ، أو

---

(١) الترمذي وابن ماجه في الأشربة .

(٢) طبقات ابن سعد ١/٤٤٥ .

(٣) قراءة جديدة للسيرة ٤٣٤ وما بعدها ، والشفاء ٢/١٩٥ .

عن طريقِ وطءِ الأمَةِ المملوكة ، ولذلك كان عليه الصلا والسلام يشجِّع على الاستكثار من الزوجات ، وكان هو صلوات اللَّه عليه أكثر الأمَّةِ الإسلامية نساءً ، وقد فهم ذلك منه صحابتُه ، حتى قال بن عباس رضي اللَّه عنه : «تزوجوا فإن خيرَ هذه الأمَّة أكثرُها نساءً»(١) ولذلك لا نجد واحداً من الصحابة اقتصر على زوجة واحدة إلَّا القليل .

وقد كان الرسولُ يرى أن اللَّه تعالى لم يضع هذه الغريزة في الإنسان إلَّا إدامةً لنسله ومحافظةً عليه من الانقراض ، ولذلك كان رسولُ اللَّه يمنعُ كلَّ إرواءٍ لهذه الغريزة يمنع تحقيق هذه الغاية ، فمنع من إروائها عن طريق اللواطة ، أو عن طريق السحاق ، أو عن وطء المرأة في دبرها ، أو عن طريق وطءِ البهيمة ، أو عن طريق الاستمناءِ باليد؛ ومنع من وطءِ الحائضِ والنفساءِ لما في ذلك من الضرَرِ على الزوجين قال تعالى في سورة البقرة/ ٢٢٢ : ﴿ ويَسألونَك عن المَحيضِ قُلْ هُو أذىً فاعتزِلُوا النِّساءَ في المَحِيضِ ﴾ ، ونهى أن يباشرَ المرءُ الوطءَ بحضورِ من يراه ممن يعقلُ الوطءَ حتى لو كان ذلك الحاضر زوجته الأخرى ، فلا توطأ امرأةٌ بحضرةِ ضُرَّتها ، ونهى عن أن يتجرَّدَ الزوجانِ للجماعِ تجرداً كاملاً حتى يصبحا كالحيوانات ، ووجَّه الأزواجَ إلى ممارسة الإثارة الجنسية بالتقبيل ونحوه قبل الجماع ، فإذا أخذ في الجماع دعا اللَّه تعالى وقال : (بسم اللَّهِ ، اللهم جَنِّبْنَا الشيطانَ ، وجنبِ الشيطانَ ما رزقْتَنَا)(٢) ، فإذا قضى الرجل حاجتَه ، فيستحب له أن لا ينصرفَ حتى تقضي المرأة حاجَتَها .

هـ ـ غريزة النوم : وكان رسول اللَّه ينام كما ينام سائرُ الناس ، وكان له هديٌ خاص في نومه عليه الصلاة والسلام . فكان يُؤْثِر أن لا ينام على فراشٍ

---

(١) البخاري في النكاح .

(٢) البخاري في بدء الخلق ، ومسلم في النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند المنام .

وثيرٍ مُغرِق في إراحةِ البدنِ ، لئلا يستسْلِمَ للنوم والراحة ، فيقعد به ذلك عن سرعة النهوض لأداءِ الواجبات ، ولذلك كان فراشُه أدَماً حشوه لِيف ، وكانت وسادتُه أيضاً أدَماً حشوها ليف ، وكان له مَسْحٌ ينام عليه يُثْنىٰ بثنيَتين ، وثني له يوماً أربعَ ثنيات ، فنهاهم عن ذلك وقال : « رُدّوه إلى حاله الأوّل ، فإنه مَنَعَني صلاتي الليلة »(١) ، وكان إذا أوىٰ إلى فراشه للنوم قال : « باسمك اللهمَّ أحيا وأموت »(٢) ثم يقرأ ثلاث سُوَرٍ من القرآن هي ﴿ قُلْ هو اللَّه أحد ﴾ و﴿ قلْ أعوذ بربِّ الفَلَق ﴾ و﴿ قل أعوذُ بربّ الناسِ ﴾ ثم يضطجع على شقه الأيمن ، ويضعُ يده اليمنى تحتَ خَده الأيمن ويأخذ بتلاوة بعض الدعوات حتى ينام(٣) .

و ـ **ما يترتب على كونه بشراً** : يترتب على كون محمد بشراً أمور كثيرة منها :

١) التكليف : إن اللَّه تعالى أرسل محمداً صلى اللَّه عليه وسلّم بتكاليفَ شرعية إلى أمته ليُصْلِح بها ما فَسَد من أمرِها ، وكان رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم أولَ المكلفين بتطبيق هذه التكاليف ، شأنه في ذلك شأن أمته ـ إلَّا ما خصه اللَّه به مما سيأتي ذكره عند حديثنا عن محمد النبي ـ لأن اللَّه تعالى نصبه قدوةً لأمته بقوله جل شأنه في سورة الأحزاب/ ٢١ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، ولا تسقط عنه هذه التكاليف إلَّا في حالة العُذْرِ ، شأنه في ذلك شأن سائر البشر ؛ ونحن نلمح هذه التكاليف في كتاب اللَّه تعالى في نحو قوله تعالى في سورة العنكبوت/ ٤٥ : ﴿ اتلُ ما أُوحيَ إليكَ من الكتابِ وأقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تنهى عَنِ الفَحْشَاءِ والمنكرِ ﴾ ، وقوله سبحانه في سورتي التوبة/ ٧٣ والتحريم/ ٩ : ﴿ يا أيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ

---

(١) الترمذي في الشمائل برقم ٣٣٢ .
(٢) البخاري في الدعوات ومسلم في الذكر والدعاء .
(٣) انظر : زاد المعاد ١/ ١٥٦ .

والمنافقين﴾ وغير ذلك كثير في كتاب اللّه تعالى .

٢) **محدودِيَّة العلم** : إن محمداً كبشر لا يستطيع أن يَعْلَم بذاتِه أكثرَ مما يعلَمه سائر البشر ، إلَّا أن يُعلِمه اللّه بالوحي ـ كما سنرى عندما نتحدث عن محمد النبي ـ فهو لا يعلم شيئاً عن الغيب ، وقد أمره اللّه تعالى أن يُعلِنَ عَدَم علمه بالغيب إلَّا ما أعلمه اللّه إياه فقال تعالى في سورة الأنعام/ ٥٠ : ﴿ قلْ لا أقُولُ لكم عِندي خَزائِنُ اللّهِ ، ولا أَعلَمُ الغَيبَ ﴾ ولذلك صار يقول لهم كما في سورة الأعراف/ ١٨٨ : ﴿ ولو كنتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لاستكثرتُ من الخيرَ وما مسَّنيَ السّوء إن أنا إلَّا نَذيرٌ وبشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤمِنون ﴾ ولا يعلم شيئاً عن موعد قيام الساعة كما قال تعالى في سورة الأعراف/ ١٨٧ : ﴿ يسألونَكَ عن السَّاعةِ أيَّانَ مُرْسَاها قلْ إنما عِلْمُها عندَ رَبي لاَ يُجَلّيها لوقتها إلَّا هو ﴾ ، ولا يعلم شيئاً مما يخفيه الخصُوم من الباطل ، فقد روت أم سلمة أن رسولَ اللّه سمع جَلَبَةَ خَصْمٍ بباب حُجرته ، فخرج إليهم ، فقال : « إنَّما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصَم ، فلعل بعضَهم أن يكون أبلغَ من بعضٍ ، فأحسبَ أنه صادق ، فأقضي له ، فمن قضيت له بحقِّ مسلمٍ فإنما هي قطعة من النار ، فليحملها أو يذرها »[1] ، ولكنه قد يعلم كثيراً من الغيبِ بالوحي كما قال تعالى في سورة هود/ ٤٩ : ﴿ تلك مِنْ أنباءِ الغَيْبِ نوحيها إليكَ ، ما كنتَ تعلمُها أنتَ ولا قومُك مِنْ قَبْلِ هذا ﴾ .

٣) **محدودية القدرة** : وهو كبشر لا قدرة له على تغيير ما قدّر اللّه تعالى له أو لغيره من خيرٍ أو شرٍ ، وقد أمره اللّه تعالى أن يُعلن ذلك للناس جميعاً فقال له في سورة الأعراف/ ١٨٨ : ﴿ قُلْ لا أملكُ لِنَفْسِي نفعاً ولا ضَراً

---

(١) البخاري في الشهادات باب من أقام البينة بعد اليمين ، ومسلم في الأقضية باب الحكم بالظاهر ، وغيرهما بألفاظ متقاربة .

إلَّا ما شَاءَ اللَّه ﴾ وفي سورة يونس/ ٤٩ : ﴿ قل لا أملكُ لِنَفْسِي ضَراً ولا نَفْعاً إلَّا ما شَاءَ اللَّه ﴾ وقال في سورة الجن/ ٢١ : ﴿ قلْ إني لا أملكُ لكم ضَراً وَلَا رَشَداً ﴾ .

فقدرَةُ رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم كقدرةِ باقي البشر ، محدودة بالقدر ، لا تستطيع أن تتجاوزه ، وهذا ما أفهَمَه اللَّهُ تعالى لرسوله بقوله تعالى في سورة القصص/ ٥٦ : ﴿ إنك لَا تَهدي من أحبَبْتَ ولكنَّ اللَّهَ يَهدي مَنْ يَشاء ﴾ ، وقوله في سورة المائدة/ ٤١ : ﴿ ومن يُرِدِ اللَّهُ فتنَته فلن تَمْلِكَ له من اللَّهِ شَيْئاً ﴾ .

٤) **الإصابة والخطأ** : إن محمداً كبشر يجتهدُ في تصرفاتِهِ ، فيصيبُ في أكثر أحيانه، فيوافقه الوحي كنبي على اجتهاده، فيكون اجتهادُهُ هذا في حكم الوحي ، ويخطىء في أحيانٍ قليلة ، فيصحح له الوحي ما اخطأ فيه ، وهو لا يخطىءُ فيما يبلِّغه عن ربه ، وقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُعْلِن هذه الحقيقة للناس بقوله تعالى في سورة سبأ/٥٠ : ﴿ قل إن ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نفسي ، وإن اهتَدَيْتُ فبما يُوحي إليَّ رَبي إنه سَمِيعٌ قَريب ﴾ وقد تقدم بعضُ ما أخطأ فيه اجتهادُ رسول اللَّه صلى اللَّه تعالى عليه وسلم وتسديد الوحي إياه من فدائه أسْرى بدر ، وإقباله على الكافرين وتركه ابنَ أم مكتوم حين قدم عليه ، وإذنه لبعض المنافقين في التخلف عن الجهاد ، وتحريمه أَمَتَه مارية على نفسه إرضاء لإحدى زوجاته ، ووعده بالاستغفار لعمه أبي طالب .

٥) **السَّهو** : السهو من خصائص البشر ، ومحمد كبشرٍ يسهو كما يسهو بقيةُ البشر ، ولكن سهوه لا يكون فيما أُمِرَ بتبليغه قبل التبليغ ، وجائز أن يكون السهوُ بعدَ التبليغ ، وهو عليه الصلاة والسلام لا يستمرّ على سهوه لئلا يؤدّي ذلك إلى نسخ الصحيح بالسهو ، ولكنه إما أَن يذكُر ، وإما أن يسخِّرَ اللَّهُ له من يُذَكّره ، فقد حدث « أن رسول اللَّه قام من اثنتين من

الظهر ، لم يَجلس بينهما ، فلما قضى صلاتَه سجد سجدتين ثم سلّم بعد ذلك» وحدث « أن صلى رسولُ اللّه إحدى صلاتَيِ العَشِي ـ يقول أبو هريرة : وأكبر ظني : العصر ـ ركعتين، ثم سلَّم، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يده عليها ، وفيهم أبو بكر وعمر ، فهاباه أن يُكَلِّماه ، وخرج سرعانُ الناسِ فقالوا : أَقُصِرَتِ الصلاةُ ؟ ورجلٌ يدعوه النبيُّ « ذو اليدين » فقال : يا نبي اللّه ، أَنَسيتَ أم قُصِرت ، فقال : لم أنس ولم تُقصر ، قال : بلى ، قد نسيتَ ، قال : صدق ذو اليدين، فقام فصلى ركعتين، ثم سلَّم ثم كَبَّرَ فسجد مثلَ سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبّر »[١] .

٦) **الموت** : ومحمد كبشر له أَجَلٌ مُعَين يموتُ فيه كما يموت سائرُ البشر كما قال تعالى في سورة الزمر ٣٠ ـ ٣١ : ﴿إنك ميّتٌ وإنَّهم ميّتون * ثم إنكم يَوْمَ القيامةِ عندَ ربِّكم تختصِمون﴾ وذلك لأن سنة اللّه لم تجرِ بأن يخلِّد أحداً من البشر في هذه الدنيا ، قال تعالى في سورة الأنبياء ٣٤ ـ ٣٥ : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ، أَفَئِنْ مِتَّ فهم الخالدون * كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت﴾ وقال في سورة القصص/ ٨٥ : ﴿ إنّ الَّذِي فَرَضَ عليكَ القُرآنَ لرادُّكَ إلى مَعاد ﴾ .

ويجوز أن تكون ميتةُ رسول اللّه ميتةً طبيعيةً ، ويجوز أن تكون بالقتلِ كما يقتل كثير من البشر ، وكما قُتِلَ بعضُ الأنبياء السابقين قال تعالى في سورة آل عمران ١٤٤ ـ ١٤٥ : ﴿وما محمدٌ إلَّا رسولٌ قد خَلَتْ من قبلِه الرُّسُل أفئِنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلَبْتُم على أعقابِكم ومن ينقلبْ على عَقِبَيْه فلن يَضُرَّ اللّه شيئاً وسيجزي اللّهُ الشاكرين * وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلَّا بِإذنِ اللّهِ كتاباً مُؤَجَّلاً ﴾ .

---

(١) أخرج هذين الحديثين البخاري في السهو ، ومسلم في المساجد بألفاظ متقاربة .

٢ ـ صفاته النفسية والسلوكية :

أ ـ **الفطرة والاكتساب** : إذا عَرَّفنا **الفطرة** بأنها مجموعُ الصفاتِ النفسية التي يَخلُقها اللّه تعالى في الإنسان وتولَدُ معه ، وعرَّفنا **الاكتسابَ** بأنه تكوين صفاتٍ نفسية أو سلوكيةٍ لم تكن موجودة في المرء حين ولادته ، أمكننا أن نَعرِفَ أن الفطرةَ أكثرُ أصالةً في النفس الإنسانية ، وان الاكتسابَ مهما سما فإنه لا يصل إلى عمق الفطرة .

وإذا كان في مقدور الاكتسابِ أن يَصْقِل الفطرةَ ويسمو بها ـ وهو ما يسمى بالتَّصْعيد ـ وإذا كان في مقدوره أن يحرِّفها ـ وهو ما يسمى بالتحويل ـ فإنه ليس بإمكانه أن يقتَلِعَها من جذورها، وإن الاكتسابَ مهما أمعن في تصعيد الفطرة أو تحويلها فإنه سيفاجأ في لحظةٍ من اللحظات بظهورها المفاجىءِ بحقيقتها التي خلقها اللّه تعالى عليها . فَمُتَخَلِّفُ الذكاءِ مهما بذلنا من الجهد في تعليمه وتثقيفه وإجراءِ الرياضات الذهنية له حتى بَدَا لَنا وكأنه يضاهي الأذكياءَ بالفطرة ، بل ويتقدم عليهم ، إذا ما وُضِع في مأزقٍ يتطلبُ تصرفاً سريعاً مستعجلاً ، نراه لا يحسن التصرفَ ، بل يتصرفُ كإنسان متخلّفِ الذكاء في كثير من الأحيان .

ب ـ **التلازم بين الصفات النفسية والسلوكية** : الأصلُ أن يكونَ هناك تلازمٌ بين الصفاتِ النفسية والتصرفاتِ السلوكية ، فرحيمُ القلب يمد يدَ المساعدة للمريض الذي لا يجد ثمنَ الدواء ، وينزل البئر ليملأ خِفَّه ماءً ليسقيَ كلباً يلهث قد أخذ العطشُ منه مأخذاً ، ويبكي للطفلِ الذي يتلوّى ألماً ؛ والزاهدُ يبذل ما في يده ابتغاءَ ما عند اللّه من الثوابْ ، وهكذا .

ولكن قد يُخالَف هذا الأصل ، بوقوع الاختلاف بين الصفة النفسية والتصرف السلوكي وعندئذ لا يخلو الأمر من أحد حالات ثلاثة :

الحالة الأولى : وهي خاصة بالعقائد ، وهي على قسمين :

القسم الأول : وهو أن يعتقدَ في قلبـه الكفرَ بـالله أو بالـرسولِ أو بالملائكة أو بافتراض الصلاة والزكاة أو غيرها ، مما يكون جحودُه كفراً ، ويُعلِن إيمانه بها ، وهو ما يسمى بـ « **النفاق** » وهو إن وقَعَ من بعض الناس فإنه لا يقع من الأنبياء أبداً ، لأنه مُخِلّ بعصمتهم التي أوْجَبَها الله تعالى لهم .

القسم الثاني : أن يعتقد في قلبه بالعقيدة الصحيحة ويظهِرَ للناس بلسانه الكفرَ، وهذا لا يخلو من حالين: **الأول**: أن يكون إعلانه الكفر بغير إكراه وقع عليه ، وعندئذ يُحكَم بكفره ، **والثاني** : أن يكون إعلانه الكفر نتيجة إكراه له على النطق بالكفر ، فقد أخذ المشركون عمارَ بن ياسر فما زالوا يعذبونه حتى نطق بالكفر ، فتركوه ، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلّم وشكا إليه ذلك فقال له الرسول : كيف تجد قلبَك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان ، فقال : فإن عادوا فَعُدْ، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله في سورة النحل/ ١٠٦ : ﴿ إلَّا مَنْ أُكرِهَ وقَلْبُه مطمئنٌ بالإيمان ﴾[١] .

وإذا كان قد رُخِّص للمرء في حالة الإكراه أن ينطق بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، فإنه لا يُرَخص للأنبياء ذلك ، فقد روى خبّاب بن الأرتّ قال: شكونا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبة فقلت : ألا تستنصرْ لنا ، ألا تدعُو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلَكم يؤخَذُ الرجلُ فيُحْفَر له في الأرضِ فيُجعل فيها ، فيجاءُ بالمنشارِ فيوضَعُ على رأسه فيُجعل نصفين ويمشَّط بأمشاطِ الحديد ما دون لحمِهِ وعَظْمه فما يصدّه ذلك عن دينه[٢] .

الحالة الثانية : أن يقولَ القولَ أو يعمل العمل يريد الناسَ لينالَ الحظوةَ عندهم وهو « الرياء » وهذه الصفةُ مُحالة على الأنبياء ، ولم تقع

---

(١) تفسير ابن كثير لهذه الآية من سورة النحل . (٢) تفسير القرطبي ١٠/١٨٨ .

قط من رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلّم .

الحالة الثالثة : أن يُظهِرَ شخصٌ لآخَرَ البشاشة ، ويبذل له حسن المعاملة مع كرهه له ، لئلا يكون شقاقٌ بينهما ، وهو ما يسمى بـ « المداراة » وهو أمر مطلوب من كل مسلم ، وقد خاطب اللّٰه تعالى رسوله بقوله في سورة آل عمران/ ١٥٩ : ﴿ ولو كنت فَظّاً غليظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا من حَوْلِك ﴾ وروت عائشة أنه استأذن على النبي رجل فقال : إئذنوا له ، فبئس أخو العشيرة ، فلما دخل ألان له الكلام فقلت : يا رسول اللّٰه قلت ما قلت ثم ألنت له في القول ، فقال : « أي عائشة إن شر الناس منزلة عند اللّٰه من تركه الناس اتقاء فحشه » ، وفي ذلك يقول أبو الدرداء : إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبَنا لتلعنهم[١] .

جـ - **فطريَّة صفاتِ رسول اللّٰه** : إن المتتبع لِسيَر الأنبياء عموماً ، ولسيرة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلّم خصوصاً يجد أن صفاتهم النفسية كالزّهد والرحمة والشجاعة وغيرها ، وصفاتهم السلوكية كالصدق والأمانة وغيرها موجودة فيهم منذ نعومة أظفارهم ، أما ترى أن اللّٰه تعالى قال عن يحيى في سورة مريم/١٢ : ﴿ يَا يَحيى خُذِ الكتابَ بقوةٍ وآتيناه الحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ ، والحكم هنا : الحكمَة ، وقدحكى كتّاب السير أن آمنة بنت وهب أخبرت : أن محمداً صلى اللّٰه عليه وسلّم وُلِدَ حين وُلد باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء ، وأنه بُغِّضت إليه الأصنام وهو صغير ، فكان ينفُر منها ولا يألفُها .

ويجد أن هذه الصفات مطّرِدة فيهم لا تتخلَّف، وتبرز بسرعة وبشكل

---

(١) أخرج الحديث والأثر البخاري في الأدب باب المداراة مع الناس ، وأبو نعيم في الحلية١/٢٢٢ من كلام أبي الدرداء ووصله ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي في غريب الحديث والدنيوري في المجالسة ، والموقوف أصح - واللّٰه أعلم - .

طبيعي دون عناء، ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام حينما فوجىء بتحكيمه بين قبائلِ العربِ فيمن يضعُ الحجر الأسود في موضعه من الكعبة المشرفة بعد أن اختلفوا في ذلك طويلاً دون أن يَصِلوا إلى حلٍّ مُرضٍ للجميع ، تصرف عليه الصلاة والسلام بسرعة وذكاء نادر ، حيث خلع رداءه ووضع الحجر الأسود عليه وأمر رؤساءَ القبائلِ كلِّها أن تحمل هذا الرداء لرفع الحجرِ الأسود إلى مكانه ، ثم تناولَه رسولُ اللَّه من الرداء بيديه ووضعه موضعه من جدار الكعبة ، فسرَّ الجميع لهذا الحلّ .

وإنه تلافى الفتنة التي ذرَّ قَرْنُها في طريق عودَته من غزوة بني المصطلق ، وذلك حين تزاحم على الماء رجلٌ من الأنصار ورجل من المهاجرين ، فصاحَ الأنصاري : يا معشر الأنصار ، وصاح المهاجري : يا معشر المهاجرين ، وكان في القوم رأسُ المنافقين عبدُ اللَّه بن أُبَيّ بن سلول من أهلِ المدينة ، فوقف في مجموعة من قومه ليُضرِمَ نار الفتنة ويقول لهم : أَوَ فَعَلوها ـ يعني المهاجرين ـ قدنافرونا وكاثَرونا في بلادنا ، واللَّه ما نحنُ وجَلابيبُ قريش ـ يعني : المهاجرين ـ إلاَّ كما قال الأَوَل : سمِّن كلبَك يأكُلك ، أما واللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذَل ، ثم أقبلَ على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحْلَلْتُموهم بلادَكم ، وقاسَمْتُموهم أموالكم ، أما واللَّه لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتخلَّوا إلى غير داركم .

ونُقِلَ حديث عبد اللَّه بن أُبَيّ بن سلول إلى رسول اللَّه ، وكان على رسول اللَّه أن يتصرَّف بسرعة ليفوِّت على هذا المنافق فرصةَ تفريق كلمة المسلمين ، وضربِ بعضهم ببعض ، فأذَّنَ رسولُ اللَّه بالرحيل فمشى بالناس يومَهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدْرَ يومِهم حتى آذتهم الشمس ، ولما وقف بهم كان التعبُ قد بلغ بهم مبلَغاً كبيراً ، فما وضعوا جنوبَهم على الأرض حتى راحوا نياماً ، إن هذا التصرُّف الحكيم

بهذه السّرعة لَيَدُلّ على ذكاءٍ فطري لا يتطلب كثيراً من العناء لظهوره .

وإن ظهور هذه الصفات النفسية والسلوكية في وقت مبكر من حياة رسول اللّه ، وإن إطراد هذه الصفات وعدم تخلُّفها في موقف من المواقف وبروزها بسرعة ودون تكلّف ليدل على أنها صفات فطرية أصيلة في نفس رسول اللّه وفي تركيبته السلوكية ، أوْجَدَها اللّه تعالى فيه ليؤهِّله بها للرسالة التي يَحملُ أعباءَها فيما بعد ، قال القاضي عياض : « وكان صلى اللّه عليه وسلّم مجبولاً على هذه الصفات في أصل خِلْقَته وأوَّلِ فِطْرته ، لم تحصل له باكتسابٍ ولا رياضة إلَّا بجودٍ إلّهي وخصوصِيّة رَبّانية ، وهكذا لسائر الأنبياء »[١] .

د ـ **تكامل صفات الرسول** : لا تكون الصفةُ في الإنسان نبيلةً إلَّا إذا استُخْدِمَت استخداماً بناءً ، وإلَّا إذا تكاملت مع غيرها من الصفات ، وإذا تخلت الصفةُ عن هذين الشرطين ربما صارت صفة ذميمة ، لا يُمدَح من اتصف بها ، ولنأخذ على ذلك صفة « العفو » مثلاً ، إن العفو يبقى صفة نبيلةً ما دام يُؤدّي إلى إصلاح المعفو عنه ، أو إذا كان الشخص قد عُرِف عنه الصلاح وعدم التعدي ، ولكنه وقع في التعدي في لحظة من لحظات الضعف ، وإن عَدَم العفو عنه سيؤدي إلى تفرّق الناس عنه ممن ينتفِع بعلمه وفضله ، ولذلك أمر الرسول صلى اللّه عليه وسلّم بالعفو عن هذا النوع من الناس وفي مثل هذه الظروف فقال صلى اللّه عليه وسلّم : « اقِيلُوا ذَوي الهَيْئاتِ عثراتِهم إلَّا الحُدود »[٢] ؛ أما العفو عن محترفي الإجرام فإنه لا يؤدي إلى خير أبداً ، ولذلك لم يكن العَفْوُ عنهم من الصفاتِ النبيلة .

---

(١) الشفاء ١/ ٧٢ .

(٢) أبو داود في الحدود باب الحد يشفع فيه ، والامام أحمد في المسند ٦/١٨٦ .

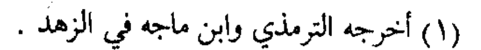
والعفو كذلك لا يكون صفة نبيلةً إلَّا إذا عَضَدَتْه وشدّت أزره العِزة ، أما عفوُ الذّليل المستضْعَف ليس بعفو ، ولكنه استسلام وعجز .

وإن الدارس لصفاتِ رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يجد أنه ، عليه الصلاة والسلام ، قد جمع هذين الشرطين في هذه الصفات ، ولذلك نرى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم أحياناً يعفو ، وأحياناً يعاقِب بشدة ، وأحياناً يَرحم ، وأحياناً يعامِل بمنتهى القَسْوة ، وأحياناً يُعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر ، وأحياناً يُمسِك ، كل ذلك بحسبِ ما تقتضيه الحكمةُ في مراعاةِ الظروفِ والأحوالِ ، وسنحاول أن نتبيَّن فيما يلي بعضَ صفاتِ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم .

١) **الزهد** : ليس بزاهد ذلك الذي تنيخ عليه الدنيا بكلكلها ثم تبخل عليه بكسرة خبز فيقول : وللآخِرَةُ خَيرٌ لي من الدنيا ، لأنه ما قال هذا القول إلا لأنه عجز أن ينال منها ما يريد .

ولكن الزاهد من سيقَتْ إليه الدنيا ، فحطّت رحالَها في ساحته ، فقال لها : يا دنيا غرّي غيري ، فأنا ليست لي بكِ حاجة ، وإنما حَاجتي لما عند ربي ، ثم راح يفرِّج بها كربة المكروب ، ويُطعم منها الجائعَ والمحروم ، وهذا ما أفصح عنه الرسول بقوله : « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال وإضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق مما في يد اللَّه »[١] .

ومحمد قد سيقت إليه الدنيا فزهد فيها ، وسخّرها لقضاء حاجة المحتاج طالباً ما عند اللَّه من الثواب في الآخرة ، فهو قد اختار الفقر المقرِّب إلى اللَّه عن طيبِ خاطِر ، وفضَّلهُ على لذائذ الحياة الدنيا ، ألم



(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه في الزهد .

يجعل له اللّه تعالى خُمُس الغنائم بقوله تعالى في سورة الأنفال/ ٤١ : ﴿واعلموا أنّما غَنِمْتُم من شيء فأنَّ للّه خُمُسَهُ وللرّسول ولِذِي القُربىٰ واليَتَامىٰ والمساكينِ وابنِ السَّبيل﴾ . . . ألم يُجعل له خُمُسُ الفيءِ بقوله تعالى في سورة الحشر/ ٧ : ﴿ما أفَاءَ اللّهُ عَلى رسولِهِ من أهلِ القُرىٰ فللّهِ وللرّسولِ ولذي القُربىٰ واليَتَامىٰ والمساكينِ وابنِ السبيل﴾ ، ألم يقل لعائشة رضي اللّه عنها : إني عُرِضَ عليّ أن يُجعل لي بطحاءَ مكة ذهباً فقلت : لا يا رب ، أجوعُ يوماً وأشبَعُ يوماً(١) .

وفلسفة محمد رسول اللّه في زهده : أن هذه الدنيا دارُ ممر وليست بدارِ مَقَرّ ، يمر بها الإنسان إلى الآخرة، فمن اغترَّ بها ، وأخلدَ إليها فقد أخطأ التقدير ، وما كان لنبي مثل محمد أن يفعل ذلك ، قال عبد اللّه بن مسعود : دخلتُ على رسول اللّه وقد نام على رُمالِ حصير ـ أي : حصير مضفور ـ وقد أثّرَ في جنبه ، فقلنا : يا رسولَ اللّه لو اتخذنا لك وطاءً تجعلُه بينك وبين الحصير ، يقيك منه ، فقال : « ما لي وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلّا كراكبٍ استظَلَّ تحتَ شجرةٍ ثم راح وتركها »(٢) .

وإذا أردنا أن نكوِّن فكرة واضحة عن زهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم علينا أن نعرف طعامه ، ولباسه ، ومسكنه ، ومدّخراته .

أما طعامه : فقد كان خبز رسول اللّه خبز الشعير في أكثر أحيانه ، وما أكل نَقِياً ـ أي خبز طحين منخولٍ ـ حتى مات(٣) ، ويا ليته كان يشبع يومين متواليين من خبز الشعير قال عبد اللّه بن عباس : كان رسول اللّه يبيتُ اللياليَ المتتابعة وأهلُه طاوياً ، لا يجدون عشاءً ، وإنما

---

(١) الشفاء ١/ ١٠٥ .
(٢) الترمذي في الزهد .
(٣) صفة الصفوة ١/ ١٩٨ .

كان أكثر خبزهم خبز الشعير[١] ، وقد جاءت فاطمة عليها السلام بكسرة خبز إلى النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، فقال : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ قالت : قرص خبزته فلم تَطِبْ نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : أما إنه أولُ طعام دَخَلَ فَمَ أبيك منذ ثلاثة أيام[٢] هذا هو خبزه .

أما إدامه : فهو الخَلّ أحياناً يلت به خبزه ويقول : نعم الإدام الخل[٣] ، واللحم أحياناً ، ولكن المقطوعَ به أنه لم يَشْوِ خروفاً ليأكله ، ولم يأكل من خروف مشويٍ ، وقد كان أنس بن مالك يقول : « ما أعلمُ رسولَ اللّه رأى رغيفاً مَرَقَّقاً حتى لحق باللّه ، ولا رأى شاةً سميطاً بعينيه حتى لحق باللّه »[٤] والشاة السميط هي : المشوية .

وأما لباسه : فيكفينا أن نعلم أنه صلى اللّه عليه وسلّم ـ كما تقول السيدة عائشة ـ ما اتخذ من شيء زوجين ، لا قميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا من النعال[٥] ، وكثيراً ما كان يلبس المرقَّعَ من الثياب ، قال أبو هريرة : دخلنا على عائشة فأخرجتَ لنا كساءً مُلَبَّداً ـ أي مُرَقّعاً ـ وإزاراً غليظاً ، فقالت : في هذا قُبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم[٦] .

وكما كان هو عليه الصلاة والسلام يلبس المرقَّعَ ، كان أهلُ بيته يلبسون المرقَّع أيضاً ، فقد قال عروة بن الزبير : ما كانت عائشةُ تستجِدُّ ثوباً حتى ترقِّع ثوبها وتُنَكِّسه[٧] .

---

(١) الترمذي في الزهد باب معيشة النبي .
(٢) أحمد في المسند ٣/ ٢١٢ .
(٣) مسلم في الأشربة، وأبو داود والترمذي في الأطعمة .
(٤) البخاري في الأطعمة .
(٥) صفوة الصفوة ١/ ٢٠٠ .
(٦) مصنف عبد الرزاق برقم ٢٠٦٢٤ وابن أبي شيبة برقم ١٦١٧٠ .
(٧) جامع الأصول ٤/ ٦٧١ .

وكانت هذه الثياب من النوع الرخيص ، حتى قدر الحسن البصري ثمن مروط ـ والمرط ما تتلفع به المرأة من الثياب ـ نساءِ النبي بستة دراهم (١) .

أما مسكنه : فإنه لم يكن قصراً ، وإنما كان غرفة واحدة لكل زوجة من زوجاته ، فيها ينام ، وفيها يجلس ، وفيها يأكل ، وفيها يستقبل الضيوف ، وكان أثاثُها بسيطاً رخيصَ الثمن ، وكان فراشُ رسول اللَّه ومخدَّته من جلدٍ محشوٍّ بالليف ـ كما تقدم ـ .

وكان لا يزيِّن جدرانَ بيته شيءٌ من الستور ، وكان يغضب إذا رأى ذلك ، لما في ذلك من الإسراف والمسلمون في حاجة ، ولما في ذلك من صرفِ المرءِ إلى التعلّق بالدنيا ، تقول عائشة : خرج رسولُ اللَّه في غَزاةٍ ، فأخذت نَمَطاً ـ أي وعلقته ـ فلما قدم فرأى النمط عرفتُ الكراهيةَ في وجهه ، فجذبَه حتى هتكه وقال : « إن اللَّه لم يأمرْنا أن نكسُوَ الحجارَةَ والطين »(٢) . فلم يبح عليه الصلاة والسلام كسوة الحجارة والطين والمسلمون لا يجدون ما يكسو أجسامهم ويدفع عنهم الحرَّ والقرَّ .

وجاء صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى بيت ابنته فاطمة فرأى ستراً منشوراً ، فرجَع ، فأتاه علي فقال : ألَمْ أُخْبَرْ أنك أتيتَ ابنتك فلم تدخل ، فقال : « أفلم أرها سُترَ بيتُها بنفقةٍ في سبيل اللَّه »(٣)ـ وكان الذي سترت به قرام ثمنه أربعة دراهم ـ .

أما مدّخراته : فإن رسول اللَّه لم يكن يدخر شيئاً لا من المال ولا من الأشياء ، قال أنس بن مالك : كان رسول اللَّه لا يدخر شيئاً

(١) مصنف ابن أبي شيبة برقم ١٦٢٢٣ .
(٢) مسلم في اللباس باب تحريم تصوير الحيوان .
(٣) مصنف ابن أبي شيبة برقم ١٦٢٢٢ .

لغد[١] ، ويكفي أن نعلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم لما مات ما ترك إلّا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة في سبيل اللّه[٢] ، وترك دِرْعاً له مرهونةً عند رجلٍ من يهود على ثلاثين صاعاً من شعير أخـذها رِزْقاً لعيالِهِ عليه الصلاة والسلام[٣] .

٢) الكَـرَم : لعل الكرَمَ شعبة من شعب الزهد ، أو هو على الأصح الوجه المقابل للزهد ، لأن الزهد انصراف النفس عن الشيء ، والكرم هو دفع الشيء إلى الغَيْر عن طيب نفس .

أما وقد أثبتنا زهدَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم فإن من السهل إثبات كرمه ، لأن الأصل الإيماني والنفسي للكرم ـ وهو الزهد ـ قد توفر في نفس رسول اللّه . وقدوصف لنا عبدُ اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما كرم رسول اللّه فقـال : كـان رسـولُ اللّه أجْوَدَ الناس بالخير ، وكان أجودَ ما يكون في شهرِ رمضان ، إن جبريل كان يلقاه في كل سنةٍ من رمضان حتى ينسلخَ ، فيعرض عليه رسول اللّه القرآنَ ، فإذا لقيه جبريلُ كـان رسول اللّه أجودَ بالخير من الريحِ المـرسَلَة[٤] وكـان جابرُ بن عبـد اللّه وأنس بن مالك يقولان : ما سئـل رسول اللّه شيئـاً إلّا أعطاه[٥] ، وقـد سأله رجل غنماً بين جبلين فـأعطاه إيـاه ، فأتى قـومه فقـال : أي قومِ أَسْلِموا ، فواللّه إن محمداً يعطي عطاءَ من لا يخشىٰ الفقر[٦] .

وما زال المؤرخون يذكرون عطاءَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم في الجعرانة على أثَرِ انتصاره الساحِقِ على المشركين في حُنَيْن ، حيث

---

(١) الشفاء ٨٤ .
(٢) الشفاء ١/ ١٠٥ .
(٣) البخاري في الجهاد باب درع النبي ، ومسلم في المسـاقـاة بـاب الرهن، وأحمـد في المسنـد ٣/٢١٦ .
(٤) مسلم في الفضائل باب الجود ، والبخاري في بدء الخلق .
(٥) مسلم في فضائل النبي .
(٦) مسلم في فضائل النبي .

أعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مئة بعير ، وأعطى حكيمَ بن حزام مئة بعير ، وأعطى الحارثَ بن الحارث بن كلدة مئة بعير ، وأعطى سهيل بن عمرو مئة بعير ، وأعطى حُوَيْطب بن عبد العزى مئة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي مئة بعير ، وأعطى عُيَيْنَة بن حُصْن مئة بعير ، وأعطى الأقْرَع بنَ حابس مئة بعير ، وأعطى مالك بن عوف النصري مئة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مئة بعير ثم مئة . . . وأعطى غيرهم ، وكان هذا بعضُ عطائه عليه الصلاة والسلام[١] .

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على تحرّرِ نفسِ رسول اللّه من أن تملكَها الدنيا ، فكان رسول اللّه يجود بها طيبة بها نفسه .

٣) **الرحمة**: إن اللّه تعالى بعث محمداً رحمة بالإنسانية ليهديها سبيل الرشاد ، ويبلِّغها الشريعة الخاتمة التي لا يَضِلّ من أخذَ بها فقال تعالى في سورة الأنبياء/١٠٧ : ﴿وما أرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً للعالمين﴾ وإذا كانت بعثته عليه الصلاة والسلام رحمةً ، فمن البديهي أن يكونَ هو عليه الصلاة والسلام رحيماً ، ولذلك نوّه اللّه تعالى بأنه قد طبعَهُ بالرحْمَة وفطَرَهُ عليها عند توفر أسبابها فقال تعالى في سورة التوبة/ ١٢٨ : ﴿ لقد جاءَكم رَسُولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عِنتُّم حَريصٌ عليكم بالمؤمنين رَؤوف رَحيم ﴾ .

ومظاهر رحمة رسول اللّه كثيرة ، نذكر منها :

- **رحمته بالمؤمنين** : وهي حقيقة نصت عليها الآية السابقة ﴿ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حَريصٌ عليكم بالمؤمِنينَ رَؤُوفٌ رَحِيم﴾ وقد أخذت هذه

(١) قراءة جديدة للسيرة النبوية ٣٦٦ .

الرحمةُ في تصرفاتِ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم صُوَراً لا أروع منها ولا أجملَ ، ألا ترى تلك الصورة الرائعة التي تتجلى بقصر رسول اللّه الصلاة، بتقليل القراءةِ فيها، وقصرِ ركوعها وسجودها وهو الذي يقول : « وجعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة »(١) لسماعه بكاءَ صبيٍّ قد اشتغلت عنه أمُّه بالصلاة خلف رسول اللّه ، فيعتصر قلبه ألماً على الصبي وعلى أمه فيتجَوَّزُ في صلاته ، فقد روى البخاري عن أنس أن النبي قال : « إني لأدخُلُ في الصلاةِ وأنا أريدُ أن أطيلَها ، فأسمعُ بكاءَ الصبي فأتجوّزُ في صلاتي مما أعلم من شدة وجْدِ أمه من بكائه »(٢) .

وتأمل هذه الصورة الثانية وهي أن رسول اللّه كان يصلي ، فتعلقت به أُمَامةُ ابنة ابنته زينب ، فحملها على عاتِقه ، فكان إذا سجد وضعَها على الأرض ، وإذا قام حَمَلها(٣) .

أما الصورة الثالثة فإنها تحمل معنى للرحمة مختلفاً ، ونكهةً لها خاصة ، لأن الرحمة تقف فيها في مقابلة العبادة وذلك حين قدم عبد اللّه بن عمرو بن العاص إلى رسول اللّه ، وقد علم الرسولُ أن ابنَ عمرو يجتهدُ في العبادَةِ فيقومُ الليلَ كلَّه ، ويصوم فلا يفطر ، فرأى فيه الرسول ذبولاً ، فقال له : « ألم أُخْبَر أنك تصومُ النهارَ وتقومُ الليل ؟ قلت: بلى يا رسولَ اللّه ، قال : فلا تفعلْ ، صُمْ وأفْطِرْ ، ونَمْ وقُمْ ، فإن لجسدِكَ عليكَ حقاً ، وإن لعينِك عليكَ حقاً ، وإن لزوجِك عليك حقاً ، وإن لزَوْرِكَ عليك حقاً »(٤) ودخل عليه الصلاة والسلام المسجد فإذا حبلٌ ممدودٌ بين الساريتين فقال : ما هذا الحبلُ ؟ قالوا : هذا حبلُ

---

(١) النسائي في عشرة النساء ، وأحمد في المسند ١٢٨/٣ .

(٢) البخاري في صلاة الجماعة ، ومسلم في الصلاة باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة .

(٣) الشفاء ١/ ٩٦ .

(٤) البخاري في الصوم باب صوم الدهر .

لزينب فإذا فَتَرت تعلّقت به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « حُلّوه ، لِيُصَلّ أحدُكم نشاطَه ، فإذا فَتَر فليرقد »[١] .

أما الصورة الرابعة فهي رائعة الروائع لأن رحمةَ رسولِ اللّه دفعته لذكر أمرٍ ليس من السهل على المرء ذكره ، ومع ذلك فإن رسولَ اللّه ذكره ليخفّف به حزناً حلَّ بإنسانٍ مؤمن ، فقد قدم عليه رجل فقال له : أين أبي ؟ قال : في النار ، فلما رأى رسولُ اللّه ما في وجهه ـ أي من الحزن ـ قال : « إن أبي وأباك في النار »[٢] .

● **رحمته بالكفار** : لم تكن رحمةُ رسول اللّه قاصرة على المؤمنين ، بل شملت الكافرين أيضاً ، وتتجلى هذه الرحمة بالكافرين في أروع معانيها بحرص رسول اللّه على إنقاذِهم من النار يوم القيامة ، فكان يرهقُ نفسَه في دعوتهم ، ويتملكه الحزنُ العميقُ لإعراضهم، حتى خاطبه اللّه تعالى بقوله في سورة الكهف / ٦ : ﴿ فلعلك باخعٌ نفسَك على آثارِهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديثِ أسَفاً ﴾ وقوله في سورة فاطر / ٨ : ﴿ فلا تذهَبْ نفسُكَ عليهم حَسَرات ﴾ .

ولما خرج رسول اللّه إلى الطائفِ يطلبُ من أهلها الايمانَ والنصرةَ ، فضربوه ، وردوه أسوأ ردّ ، جلس يدعو اللّه تعالى ، فأرسل اللّه تعالى عليه ملك الجبال ـ على ما يرويه ابن إسحاق ـ وقال له : يا محمد لو شئتَ أن أطبقَ عليهم الأخشبين لفعلت ، فعزّ على رسول اللّه أن يهلِك قومه ، فقال صلى اللّه عليه وسلّم : بل أرجو أن يُخرِجَ اللّهُ من أصلابِهم من يعبدُ اللّه وحده لا يشرك به شيئاً .

● **رحمته بالحيوان** : لم تقتصر رحمة رسول اللّه على الإنسان فحسب ، بل شملت الحيوان أيضاً ، فهو يوصي بكل ما يخفف ألم الحيوان

(١) البخاري في التهجد .

(٢) مسلم في الايمان .

المذبوح ، فلا يسقها إلى الموت سوقاً عنيفاً ، ولا يجرّها برجلها إلى المذبح ، فقد حدث أن جزاراً فتح باباً على شاة ليذبحها ، فانفلتت منه حتى أتت النبي صلى اللّه عليه وسلّم ، واتّبعها ، فأخذ يسحبها برجلها ، فقال لها النبي : « اصبري لأمرِ اللّه ، وأنتَ يا جَزّارُ فَسُقْها إلى الموتِ سَوْقاً رفيقاً »[١] ؛ وليحدّ السكينَ قبل الذبح قال صلى اللّه عليه وسلّم : « وليحدّ أحدُكم شفرَتَه وليُرِحْ ذَبيحَتَه »[٢] ، ولا يحد السكين أمامها وهي تنتظر الذبح ، فقد رأى النبيُّ رجلاً أضجع شاة ، فوضع رجله على عنقها وهو يحد شفرته فقال له النبي : « ويلك ، أردت أن تميتها ميتات؟ هلاّ أحددت شفرتك قبل أن تُضْجِعَها »[٣] .

- والرحمة تبقى صفةً حسنة **ما وُضِعَتْ موضعها** ، أما إذا لم توضع موضعها ، واستعملت استعمالاً غير صحيح انقلبت إلى عنصر تخريب كما قال الشاعر :

ووضعُ النَّدىٰ في موضِعِ السيفِ بالعُلىٰ
مُضِرٌّ كوضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ الندى

ولذلك نجد الرسول الكريم الذي اتصف بما وصفناه به من الرحمة يتصرف بمنتهى العنف لأن الحكمة تقتضي أن يتصرف هذا التصرف ، ونحن لا نشك في أن قلبَ رسولِ اللّه كان يعتصر أَلَماً وهو يتصرف بعنف ، ويودّ أن لا يكون قد اضطر إليه ، كما حدث مرة أن خرجت امرأة على عهد رسول اللّه تريدُ الصلاةَ ، فتلقاها رجل فتَجَلَّلها ، فقضى حاجَتَه منها ، فصاحت ، فانطلق ـ هارباً ـ ومرت بعصابة ـ جماعة ـ من المهاجرين فقالت : إن ذلك الرجل فعل بي كذا وكذا ، فانطلقوا فأخذوا

(١) مصنف عبد الرزاق برقم ٨٦٠٩ .
(٢) مسلم في الصيد .
(٣) مصنف عبد الرزاق برقم ٨٦٠٨ .

الرجلَ الذي ظنَّت أنه وَقَعَ عليها ، فأتوها به ، فقالت : نعم، هُوَذا ، فأتوا به رسولَ اللّه ، فلما أمر بـه لِيُرْجَمَ،قام صاحبُها الذي وقـعَ عليها فقال : يا رسول اللّه : أنا صاحبُها ، فقال لها : اذهبي ، فقد غفر اللّهُ لكِ ، وقال للرجل ـ الذي كان متهماً ـ قولاً حسناً ، وقال للرجل الذي وقع عليها : «ارجموه» وقال : « لقد تابَ توبةً لو تابَها أهلُ المدينة لقُبِلَ منهم »[١] .

وقال عليه الصلاة والسلام مثلَ هذا القول في ماعز والغامدية بعدما أمر برجمهما ، وهذا يدل على تألّم رسول اللّه لإقامة الحدِّ عليهم ، ولكنه لم لو يُقَمْ عليهم حدُّ اللّه لاجترأ الناسُ على الباطل ، ولسادت الفوضى ، واضطربت الأمورُ ، وآلَ أمرُ الناس إلى بوار ، ولذلك كانت الرحمة للأمة تكمن في تصرفِ رسولِ اللّه بقسوةٍ ، ولو وجد غيرها طريقاً لسلكه عليه الصلاة والسلام .

ويظهر هذا بجلاء حين ذهب رسول اللّه في تأليف قلوب اليهود كل مذهب ، وسلك إلى تجميد عدائِهم وكيدِهم للدولة الإسلامية كلَّ طريقٍ، فقد جرَّب الرسول معهم المعاهدات فخانُوها، وجرَّب ترحيل بعضهم ـ وهم بنو قينقاع وبنو النضير ـ ولكن هؤلاء المرحّلين ما لبثوا أن بدأوا باتصالاتٍ مشبوهةٍ مع دولة الفرس ، وتحركات مشبوهةٍ لصالح مشركي العرب حتى جَمَعَ بنو قُرَيْظة لحرب رسول اللّه جموعَ العرب يوم الأحزاب بقصد استئصالِه وأصحابه وهدمِ دولة الإسلام ، فكان لا بدَّ لرسول اللّه من أن يتصرف معهم بعنفٍ يردَعُ بقية اليهود عن التحرك ضدَّ دولة الإسلام ، فقتل محاربة بني قريظة ، وسبى نساءهم وأولادهم .

---

(١) أبو داود في الحدود .

وما كان تصرف رسول اللّه هـذا ضدهم لحقدٍ عليهم في صدرِه عليه الصلاة والسلام ، ولكن إيقافاً لشرٍّ قد استطارَ ، لعلهم يـراجعون رصيدَهم ويُشْفَوْن من غـرورهم . . . ثم فتح رسـولُ اللّه لليهودِ البـاب ليُثْبتوا حسنَ نيتهم وتعاونهم مع الدولة الإسلاميـة ، فأقـرَّ يهود خيبـر في ديـارِهم وعقد معهم معـاهدةً تحـدِّدُ حقوقهم في الـدولـة الإسـلاميـة ، وواجباتِهم نحوها ، كما أقر يهودَ فَدَك ووادي القرىٰ وتيماءَ وعاهدهم على ما عاهد عليه أهل خيبر .

وهكذا فإن الرحمةَ لا تكونُ رحمةً مستحسنة إلَّا إذا كانت بناءَة ، أما إذا أدت إلى الدمار والخراب كانت الرحمة في غيرها .

٤) **الحِلْـم** : الحلم صفةٌ إنسانيـة يجعلُها اللّه تعـالى في قلب من أرادَ به خيـراً ، تمتصُّ الغَضَب منه ، وتـدفع العفـوَ والإحسانَ مكـان العقوبـةِ والسيئةِ مع توفر أسبابها ، وقد جعلها اللّه تعالى من صفات سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، تُحبِّبُهُ إلى الناس ، وتُعلي شأنَه فيهم .

ولو ذهبنا نستقرىء واقعَةَ الحِلْم في حياة رسولِ اللّه لوجدنا فيها مؤشرات على غاية من السموّ والنبل ، فهذه واقعـة يتعمد فيهـا زيدُ بن سُعْنـة إثارة رسـول اللّه ليختبر حلمـه لأنه قـد ورد في وصفـه في كتب السـابقين : أنـه يَسبقُ حلمُـه جهلَه ، ولا تـزيـده شـدةُ الجهـلِ إلَّا حِلْماً ، . . . يقدم عليه زيد ـ قبل إسلامه ـ يتقاضـاهُ ديناً عليـه ، فجبَذَ ثوبَه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلَظَ عليه ، ثم قال : إنكم يا بني عبـدِ المطلب مُـطْلٌ ، فانتهـره عمر بن الخـطاب وشـدد عليـه في القول ، والنبي يتبسَّم ، فقال رسول اللّه :«أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحْوَج يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء ، وتـأمره بحسن التقـاضي » ثم قال : لقد بقي من أجَلِه ـ يعني : حتى يَحِلَّ أَجَلُ وفائه ـ ثلاث ، وأمر

عمرَ أن يقضيَه دينَه ويزيده عشرين صاعاً لما رَوَّعَه(١) .

ونظير هذا ما رواه أنس قال : كنت أمشي مع رسول اللَّه وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدة حتى نظرت إلى صفحةِ عُنُق رسول اللَّه قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مُرْ لي من مالِ اللَّه الذي عِندَكَ ـ وفي رواية : فإنك لا تحملُ لي من مالِك ولا من مالِ أبيك ـ فالتفت إليه رسولُ اللَّه ثم ضحك ، ثم أمر له بعطاء(٢) .

ويقرب من هذا ما حدث يوم الجعرّانة ، حيث وزع رسول اللَّه الغنائمَ التي اجتمعت فيها على من رأى رسول اللَّه أن في إعطائهم خيراً للإسلام والمسلمين ـ وهم المؤلّفة قلوبُهم ـ فقال رجل : واللَّه إن هذه لقسمةٌ ما عُدِلَ فيها ـ وفي رواية : فقال : يا رسول اللَّه اتّقِ اللَّه ـ فقال رسولَ اللَّه : «ومن يعدل إذا لم يعدل اللَّهُ ورسولُه ، خِبْتُ وخَسِرتُ إن لم أعْدِل ، رحم اللَّه موسى لقد أوذيَ بأكثرَ من هذا فصبر» فقال خالد بن الوليد : يا رسول اللَّه ألا أضربُ عنقه ؟ قال : «لا ، لعله أن يكون يُصلّي» قال خالد : وكم من مُصَلّ يقولُ بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال رسول اللَّه : «إني لم أؤمَرْ أن أنقُّب عن قُلوبِ الناسِ ولا أشقَّ بُطونَهم»(٣) .

وهاك حلماً من نوع آخر ، **إنه ليس في مقابلة إثارة** ، كما هو الحَال في الحوادث المتقدمة ، ولكن **في مقابلة غَدْرٍ وتعمُّد قتل** ، وذلك أن رسول اللَّه كان في غزاة مع أصحابه ، فاضطجع ليقيل ،

---

(١) الشفاء ١/ ٨١ .

(٢) البخاري في الأدب باب التبسم ، ومسلم في الزكاة باب اعطاء المؤلفة قلوبهم ، وابن ماجة في اللباس ، وأحمد في المسند ٣/١٥٣ .

(٣) الحديث ملفق من عدة روايات : ر : البخاري في الخمس باب المؤلفة قلوبهم ، ومسلم في الزكاة باب المؤلفة قلوبهم ، والشفاء ١/ ٧٩ وصفة الصفوة ١/١٧٢ وغيرها .

واضطجع أصحابُه ، وبينما هو متوسِّد تحت شجرة إذ بِغَوْرَث بن الحارث قائماً على رأسه وسيفُه بيده وهو يصيح : من يمنعُك مني يا محمد ، فانتبه رسول اللَّه ، وأجابه على الفور : اللَّه ، فسقط السيف من يد غَوْرَث ، فأخذه النبي صلى اللَّه عليه وسلّم وقال لغورث : من يمنعك مني ؟ فقال غورث : كن خير آخذ ، فتركه رسول اللَّه وعفا عنه(١) .

ويقرب من هذا : انه اجتمع ثمانونَ رجُلاً من المشركين في التنعيم ، فهبطوا مكة عند صلاة الصبح ليقتُلُوا رسولَ اللَّه ، فأسرهُم المسلمونَ جميعاً ، وما أن مُثُلُوا بين يدي رسول اللَّه حتى أعتقهم جميعاً ، فأنزل اللَّه تعالى في سورة الفتح / ٢٤ : ﴿ وهو الذي كفَّ أيديَهم عنكم وأيدِيَكُم عنهم بِبَطْنِ مَكَّة مِنْ بَعْدِ أن أظفَرَكم عليهم وكانَ اللَّهُ بما تَعْملونَ بَصِيراً ﴾(٢) .

لقد حمل عبد اللَّه بن أُبَيّ بن سلول لواءَ المعاداةِ لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم منذ أن وطِئَتْ قدما رسول اللَّه المدينة المنورة ، وَخَذَلَ رسولَ اللَّه ، وتآمرَ عليه في أكثر من موطن ، وحاول الإيقاعَ بين المسلمين أكثر من مرة ، ولما توفي ابنُ سلول جاء ابنُه عبد اللَّه ـ وكان حسن الإسلام ـ بدافع من عاطفة البُنُوَّة وطلب من رسول اللَّه أن يعطيَه قميصَه ليكفِّنَ به أباه ، ليكون ذلك أمارة صفح من رسول اللَّه عما بدر من ابن سلول من أعمال خبيثة ، ليس هذا فحسب ، بل وطلب منه أن يصلي على أبيه ، ويستغفر له ، فدعاء رسول اللَّه واستغفاره مقبول ، لعل اللَّه ينفع به أباه ، وكان من المنتظر أن يثور رسول اللَّه في وجه عبد اللَّه لطلبه غير المعقول هذا ، إذ كيف يعطي رسولُ اللَّه قميصَه

---

(١) الشفاء ١ / ٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير للآية ٢٤ من سورة الفتح .

ليكفَّن به رجلٌ نذر حياته للكيد لرسول اللَّه ؟! ولكن ذلك لم يحدث ، فقد سبق حلمُ رسول اللَّه غضبَه، وأعطى قميصَه عبد اللَّه ليكفِّنَ به أباه ابن سلول ، وقال له : آذنّي لأصلِّيَ عليه[1] .

أما حلمه يوم أُحُد فأمرٌ عَجَب ، لأنه فاق كل تَصَوُّر ، فإنه لما كُسرت رباعيته ـ سنه ـ وشُجَّ وجهه، وصُوِّبت نبالُ المشركين عليه يريدون قتله ، شق ذلك على صحابة رسول اللَّه شقاً شديداً وقالوا : لو دعوتَ عليهم ، فقال : « إني لم أبْعَثْ لَعّاناً ، ولكني بُعِثْتُ داعياً ورحمة ، اللهم اهْدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون » قال القاضي عياض معلقاً على هذه الحادثة : انظر إلى ما في هذا القول من جِماع الفضْل ، ودرجاتِ الإحسان ، وحسنِ الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر على السكوتِ عنهم حتى عفا عنهم ، ثم أشْفَقَ عليهم وَرَحمَهم ودعا وشفع لهم ، فقال : اغفر واهْدِ ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله : لقومي ، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال : إنهم لا يعلمون .

ولكن هذا الحِلْمَ الكبيرَ ذا الجُذُورِ الراسخة في نفسِ رسولِ اللَّه لا يلبَثْ أن يتلاشى إذا ما انتُهِكَتْ حُرُمات اللَّه، حتى قالت السيدة عائشة رضي اللَّه عنها : ما انتقم رسول اللَّه لنفسه في شيء قط إلَّا أن تنتهك حُرْمَةُ اللَّه فينتقم[2] ، وما زلنا نذكر يوم أتى أسامة بن زيد رسول اللَّه يشفع عنده للمخزومية التي سرقت حتى لا يُقيم الحدَّ عليها ، فانفجر الرسولُ غاضباً وقال له : « أتشفعُ في حدٍّ من حدود اللَّه !! » ثم قام فاختطب فقال : « إنما أهلك الذين قبلَكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم

---

(١) انظر الحديث في البخاري في تفسير سورة التوبة ، وفي النسائي في الجنائز ، وقد توسع ابن حجر في فتح الباري في الكلام عن ذلك .

(٢) البخاري في الأنبياء باب صفة النبي ، ومسلم في الفضائل باب مباعدته للآثام .

الشـريف تركـوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقـاموا عليـه الحدَّ ، وايم اللّه ، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعتُ يدها »(١) .

أرأيت كيف أنه يحلَم فيعفو عمن أرادَ قتلَه ، ولكنه لا يحلُم على من عمل على الإخلالِ بالأمْنِ وإشاعة الفسادِ في الأرض .

٥) **شجـاعتـه** : إذا عرَّفنا الشجاعة بقولنا : هي مظاهرُ الجرأةِ والإقدامِ أمامَ العدو ، أمكننا أن نجعلها على نوعين :

شجاعة مادية : وهي تلك التي تظهر بالثبات في وجـه العدو في الحروب .

وشجاعةٌ أدبية : وهي تلك التي تظهر بالجرأة على قولِ الحَقّ في حضرة من يُخشى منه من قولِ الحق .

وقد بلغ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم في ذلك كله الأوج .

● **شجـاعتهُ في القتـال** : نحـن لا ننكـر أن ثبـاتَ المرءِ مـع من ثبت في مواقفِ الخطرِ ، واقتحامَه الموتَ مع من يقتحمه مع الأبـطال شجاعـة تستحق الاحترام .

ـ ولكن تقـدمَ المرءِ الصفـوفَ ووقوفَـه مواقفَ الـرَّدىٰ حتى **ليستظلَّ به الصناديدُ** الأبطالُ أكثرُ من شجاعةٍ ، أوَمـا سمعتـم بوصف فـارسِ فوارسِ العرب وبطل شجعانهم علي بن أبي طالب لحالِ رسول اللّه في القتال إذ يقول رضي اللّه عنه : « كنا إذا حَمِيَ الوَطيسُ واحمرّت الحِدَق اتقينا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فما يكون أحَدٌ أقربَ إلى العدوّ منه ، ولقد رأيتنا يومَ بدْر ونحن نلوذُ بالنبي صلى اللّه عليه وسلّم وهو أقربنا للعدو »(٢) .

---

(١) البخاري ومسلم في الحدود . (٢) الشفاء ١/ ٨٦ .

ـ واقتحامَه المخاطرَ وهو **يجدُ من يكفيه** هذا الاقتحام أكثر من شجاعة ، أما رأيته عليه الصلاة والسلام يقف يوم أُحُدٍ شامخاً وقد نالت منه الجراحُ ، حيث كسرت رباعيّته وشج وجهه ، وأخذ منه الإرهاق مأخذاً حتى جلس مسْنِداً ظهرهُ إلى صخرة في الشِّعب ، حين أقبل أُبَيُّ بنُ خَلَف يلف جسمَه الحديدُ ، هائجاً كالثور ينادي : أين محمد ، لا نجوتُ إن نجا ، فقال بعض الأصحاب الذين يحيطون برسولِ اللَّه في الشعب : ألا يعطفُ عليه واحدٌ منا يا رسول اللَّه ؟ فقال رسول اللَّه : لا ، دعوه ، ونهض رسولُ اللَّه بقلب أشدّ ثباتاً من الجبل ، وتناول حربة بيده ، فأقبل عليه ، فطعنه في عنقه ، تدحرج منها عن فرسه[1] .

لقد كان بإمكان رسولِ اللَّه أن يقولَ لأصحابه: اعطِفُوا عليه فاقتلوه ، وبذلك يوفِّر على نفسه المخاطرة بحياتِهِ ، ويضمنُ قتلَه ، ولكن قلبَه الشجاعَ أبىٰ إلَّا أن يكون هو وحده المتعرِّض له ، وتلك شجاعة لا يرقى إليها إلَّا من صنعه اللَّه صناعةً خاصَّة ، ورعاه رعاية خاصة ، ومحمد صلوات اللَّه وسلامه عليه من هؤلاء .

أوَما رأيته حين سُمِعَ في ظاهر المدينة صَوتٌ لا يُدرىٰ ما هو ، أفزعَ أهلَ المدينة ، فخرج بعضُ الناسِ إلى جهةِ الصوتِ ليعلموا ما هو ، وأقعَدَ الفزعُ البعضَ الآخر ، فوجدوا رسولَ اللَّه قد سبقهم إلى مصدرِ الصوتِ على فرسٍ عُرْيٍ ، لأبي طلحة ، ما عليه سَرْج ، وفي عنق رسول اللَّه السيفُ ، ثم عاد إليهم ليقول لهم : لم تُراعوا[2] .

---

(١) سيرة ابن كثير ٣/ ٦٤ .

(٢) انظر القصة في البخاري كتاب الإيمان باب حسن الخلق ، وفي مسلم باب شجاعته ، وقد سقناها هنا بتصرف .

لقد كان بإمكان رسول اللّه أن يقعُدَ مع القاعدين ، أو أن ينفِرَ مع النافرين ، ليكون جانب السلامة له أرجح ، ولكن قلبَه الشجاعَ لم يبال بامتطاء جيادِ المخاطِرِ بالذهاب وحده لاستطلاع الخبر ، وتلك أكبر من شجاعة .

ـ وثباته في المعركة ، وهو في جفن الردى حين يفرُّ الشجعان أكثر من شجاعة ، ولو رأيته يوم أُحُد ، وقد تمزق جيشُه ، وتناثر أبطالُه ، يقف في ساحة المعركة كالجبل الأشم تتحطم عليه سيولُ هجمات العدوّ لعلمت أنه الشجاع ، بل لو كان عندك كلمة تعبر عن أكثر من الشجاعة لأطلقتها عليه .

بل لو قد رأيته يومَ حُنَيْن وقد فَرَّقَتْ إغارةُ العدو المفاجئةُ جيشَه، فسلكت كل فرقة منه مسْلَكاً لا تلوي على شيء، وهو عليه الصلاة والسلام واقفٌ لا يتزعزعُ يحاول جمع أصحابه من جديد ليقذف بهم المغيرين ، ينادي : إليّ . . . إليّ . . .

أنا النبيُّ لا كذِب   أنا ابنُ عبدِ المطّلب[(١)]

لعلمت أنه البطل الذي لا ترقى إلى شجاعته شجاعة الشجعان .

ـ هذا القلب الشجاع بين حنايا رسول اللّه كان لا يطيش ، ولا يُسقط بيده في مقابل المفاجآت المذهلة ، ولو رأيته في إحدى الغزوات ، وقد توسد رسول اللّه تحت شجرة وعلق عليها سيفه ، يفاجئه غورث وقد أصلت السيف فوق رأسه وهو يقول : من ينقذك مني يا محمد ، فقال رسول اللّه : اللّه ، فسقط السيف من يد غورث وتناوله رسول اللّه[(٢)] ، ولو أن قلب رسول اللّه قد ارتجف واسقط

---

(١) البخاري ومسلم في المغازي باب غزوة حنين .   (٢) الوفاء/ ٣٢٦ .

برسول الله ، لكانت بذلك نهايته .

ولو رأيته يوم بدر وهو يتخذ قرار القتال ، وجنود رسول الله لا يتجاوزون ثلاثة عشر وثلاثمائة رجلاً ، ليخوض بهم حرباً ضروساً أمام قوات تفوقهم ثلاث مرات عِدة وعُدداً لعلمت أنها الشجاعة .

● **شجاعته الأدبية** : إن هذا القلبَ الذي كان وراء هذه المواقف كلِّها ، كان أيضاً وراء كثير من مواقف الجرأة الأدبية التي كان يتحلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

ولا يزال كتّابُ السيرة يذكرون أن الراهبَ بحيرا لما قال له ـ وعمر محمد تسع سنوات ـ يا غلام أسألُك بحقِّ اللاتِ والعُزّى إلَّا ما أخبرتني عما أسألُك عنه ، فلم يَهَبْ هذا الصغيرُ ذلك الراهبَ الجليلَ ، وكانت عنده من الجرأة الأدبية ما يمكّنه من القول له : « لا تسألني باللات والعُزّىٰ شيئاً ، فوالله ما أبغَضْتُ شيئاً بغضهما »[1] .

ولا يزالون يذكرون يوم نزل على رسول الله قوله تعالى في سورة الشعراء/ ٢١٤ : ﴿ وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقْرَبين ﴾ أتى الصفا وصعد عليه ، وهو يَعْلَم ما يمكن أن يحلَّ به ، ثم نادى : يا صباحاه فاجتمع الناس إليه ، فقال رسول الله : «يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني لُؤَي ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفحِ هذا الجَبَلِ تُريد أن تُغيرَ عليكم ، صَدَّقتموني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذاب أليم»[2] .

ولا يزالون يذكرون أن قريشاً لما قالت لعمِّ رسولِ الله أبي طالب : يا أبا طالب إن لك سِنّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من

---

(١) سيرة ابن كثير ١/ ٢٤٥ .

(٢) البخاري في تفسير سورة الشعراء ، ومسلم في الإيمان .

ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا واللَّه لا نصبر على عيبِ آلهتِنا وتسفيهِ أحلامِنا حتى تَكُفَّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يَهلِكَ أحدُ الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول اللَّه فقال له : يا ابنَ أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فابقِ عليَّ وعلى نفسك ، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أُطيق . لم يفتَّ هذا في عَضُدِ رسول اللَّه ، بل قذف قلبُه الشجاعُ على لسانِهِ كلماتٍ ما زالت نبراساً للدعاة في كل عصر وأوان حيث قال : « واللَّه يا عمّ ، لو وَضَعُوا الشمسَ في يميني والقمر في يساري على أن أترُكَ هذا الأمر ما تركته حتى يظهِرَه اللَّهُ أو أهلِك دونه »[1] ومثل هذه التصرفات المعبِّرة عن شجاعةِ رسول اللَّه كثيرة في سيرته العَطِرة .



ليست هذه الصفات التي ذكرناها هي كل الصفات النفسية والسلوكية لرسول اللَّه ، بل هي قليلٌ من كثير ، وإذا كان خُلُق رسولِ اللَّه القرآن ـ كما تقول السيدة عائشة ـ فمعنى ذلك أن كلَّ صفةٍ من صفاتِهِ وكلَّ سلوكٍ من سلوكه صلوات اللَّه عليه مكرمة تستحق الوقوف عندها والاقتداء بها. وسنتحدث عن صفات أخرى لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، عند حديثنا عن شخصية الرسول التربوية .

(١) سيرة ابن كثير ١/٤٦٣ .

شَخصيَّةُ الرَّسُولِ النَّبَوِيّة

١ - إعداد محمد للنبـوة :

إن منصب النبوة منصبٌ خطيـر ، ومسؤوليةٌ لا يقـدرُ على حملها إلَّا من أعدَّه اللَّه تعالى إعداداً خاصاً يَليق بجلالِ هـذا المنصِب ، وإن محمداً صلى اللَّه تعالى عليه وسلم قد خَصَّه اللَّه تعالى بهذا الإعداد دون أبناء عصرِه كلِّهم ، ونحن إذا نَفَذْنا ببصيرتنا في أعمـاقِ رسول اللَّه صلى اللَّه عليـه وسلّم ، وتتبّعنا سيرته الشريفة لتجلَّىٰ لنا هذا الإعداد بما يلي :

أ - سموّ الفطرة: لقـد سبق أن قلنا أن الفـطرة هي مجموع الصفـات النفسية التي يخلقها اللَّه تعالى في الإنسان وتولد معه ، وبيَّنّـا أن جميعَ الصفـاتِ النفسية التي خلقها اللَّه تعالى في محمد هي غايةُ ما يُتَصَوَّرُ في الإنسان من النّبلِ والسُّمُوّ ، وإن هذه الصفات على ما هي عليه من الكمال والتكامُل والوَفْرة ما اجتمعت إلَّا في نبيّ ، بل هي لم تكتمل في نبي كما اكتملت في محمدٍ صلوات اللَّه وسلامه عليه ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عن نموذج من هذه الصفات كالزهد والكرم والـرحمة والحلم والشجـاعة والصـدق، ورأينا سموَّها ونبلَها واكتمالَها في رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم .

والذي نريد أن ننبّه عليه هنا أن هذا النبل والسُّمُوّ والاكتمال والتكامل لا يمكن أن يجتمع في نفسٍ إلَّا بعنايةٍ إلَهيَّة خاصَّةٍ ، ولمهمَّةٍ خاصَّة يريدُ

اللَّه تعالى أن يُنيطَها فيمن توفرت فيه .

ب ـ **شرف النسب** : لَقد كان ـ وما زال ـ شرفُ النسب له المكانة في النفوس ، لأن ذا النسب الرفيع لا تُنكَر عليه الصّدارةُ ، نبوةً كانت أو مُلْكاً، وينكر ذلك على وضيعِ النسب ، فيأنف الكثيرُ من الانضواءِ تحتَ لوائه ، ولما كان محمد يُعَدُّ للنبوة ، فقد هيأ اللَّه تعالى له شرفَ النسب ليكون مساعداً له على الْتِفافِ الناسِ حوله .

ومحمد من أشرفِ بيوتاتِ قُريش ، وقريشٌ من أشرف قبائل العرب نسباً ، فهو صلوات اللَّه عليه محمد بن عبد اللَّه (واسم عبد اللَّه : شيبة الحَمْد) بن عبد المطلب ، بن هاشم (واسم هاشم : عمرو العلي) بن عبد مناف (واسم عبد مناف : المغيرة) بن قصي (واسم قصي : زيد) بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر قريش بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . هذا هو نسبه من أبيه .

أمّا نسبُه من أمه فهو يلتقي مع نسبه من أبيه في كلاب بن مُرّة ، فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مُرّة .

وقد كان رسول اللَّه ينوّه بعلوّ هذا النسب وشرفه ويقول : « إن اللَّهَ اصطفىٰ كِنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريشٍ بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم»[1] .

جـ ـ **شق الصدر** : روى أنس بن مالك رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغُلمان ، فأخذه فصرعه ، فشقَّ عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقةً سوداء فقال : هذا حظ الشيطان منك ،

---

(١) مسلم في الفضائل، والترمذي في المناقب .

ثم غسله في طِسْتٍ من ذهبٍ بماء زمزم ، ثم لأَمَه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمانُ يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا : إن محمداً قد قُتِل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون ، قال أنس : وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدرِهِ[١] .

وأصل هذا الأثر ترويه حليمة السعدية ـ مرضعة رسول اللَّه ـ ورغم أنها تروي لنا الحادثة بتفصيل أكثر[٢] ، إلاَّ أننا آثرنا رواية أنس المختصرة لأنها عند المحدّثين أكثر صحة .

وحادثة شقِّ صدرِ الرسول وعمره لا يتجاوز السنتين إلاَّ قليلاً ، لا شك في صحتها لورودها من طرق صحيحة ، ولأن أنس بن مالك كان يرى بأمِّ عينيه أثَرَ الجرح وأثر غرزات المخيط في صدر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ، مع أن الثابت تاريخياً أن رسول اللَّه لم تُجرَ له عمليةٌ جراحِيَّة تستدعي خياطة الجُرح في حياته .

وحادثة شقِّ الصدر واستخراجِ القلب ، واستخراج العلقة السوداء التي تحوي الغل والحقد والحسد والجبن وغير ذلك من أمراض القلب ، ثم تطهير القلب ، ثم إعادته إلى مكانه ، هو نوع من أنواع الإعداد التي أعدَّ اللَّه بها محمداً صلى اللَّه عليه وسلّم للنبوّة .

د ـ **العصمة قبل النبوة** : وقد عَصَم اللَّه تعالى رسوله وحفظه منذ نعومةِ أظفاره قبل النبوة من الوقوعِ في الكبائر كالشركِ باللَّه تعالى وعبادة الأصنام ، والكذبِ والسرقة والزنا ونحو ذلك ، لأن السلوكَ الشائِنَ الظاهِرَ يوسِّخُ الباطِنَ ، ويدنِّسُ القلبَ الذي طهّره اللَّه تعالى ـ كما تقدم في حديثنا عن شقِّ الصدر ـ ولأن السلوكَ الشائن يستلزم تحقير صاحبه في أعينِ الناسِ ،

---

(١) مسلم في الإيمان باب الإسراء ، والنسائي بلفظ آخر في الصلاة باب أين فرضت الصلاة .

(٢) انظر حديثها في سيرة ابن إسحاق .

وعدم الإصغاءِ إليه حين يدعوهم إلى اللَّه .

وإن المستقرىء لسيرةِ رسولِ اللَّه قبل البعثة يجد فيها هذه العصمَةَ بارزة .

فقد عصمه اللَّه تعالى من **الكذب والخيانة** حتى عُرِف بين قومه بالصادق الأمين ، وحتى كان جواب قومه لما جمعهم وقال لهم : لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ ؟ قالوا : ما جَرَّبنا عليك كذباً قط .

وعصمه من **تعظيم الأصنام** حتى أن عمه لما كلمه في حضور عيد لهم وعزم عَلَيه ، وخرج معهم كارهاً ، كان كلما دنا من صنم تمثل له شخص أبيض طويل يصيح به : وراءَكَ لا تمسّه ، فما شهد لهم عيداً بعد ذلك[1] .

وعصمه من **كشف عورته** مرتين :

المرة الأولى : عندما كان يلعبَ ، يحملُ الحجارةَ مع الصبيان ، فتعرّىٰ الصبيانُ وجعلوا أُزُرَهُم على رقابهم يحملون فيها الحجارة ، وما أن فعلَ محمدٌ كما فعلوا ، وبدت عورته حتى شعر بلكْمَةِ لاكِمٍ لا يراه ، وهو يقول له : شدَّ عليك إزارك ، فأخذ محمدٌ إزاره وشده عليه[2] .

والمرة الثانية : عندما كان يساعدُ في بناء الكعبة ، فقد روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد اللَّه قال : لما بُنيت الكعبةُ ذهبَ رسولُ اللَّه ينقل الحجارة ، فقال العباسُ لرسول اللَّه اجعل إزاركَ على عاتِقك من الحجارة ، ففعل ، فخرّ إلى الأرض وطمَحَتْ عيناه إلى السماءِ ثم قام فقال : « إزاري » فشدّ عليه إزاره .

---

(١) انظر الشفاء ٢/ ١١٨ والوفا بأحوال المصطفى ١٣٨ .

(٢) سيرة ابن كثير ١/ ٢٥٠ .

وعصمه من **المشاركة في لهو الجاهلية ومجونها** ، فقد روى علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول : « ما هممت بشيءٍ مما كان أهل الجاهلية يهمّون به من النساء إلاَّ ليلتين كلتاهما عصمني اللّه عزّ وجل فيهما ، قلت ليلةً لبعض فِتيانِ مكة ـ ونحن في رعاء غنم أهلها ـ فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخُلَ مكة أسمُرُ فيها كما يسمُرُ الفتيان ، فقال : بلى ، قال : فدخلتُ حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفاً بالغَرابِيلِ والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : تزوج فلانٌ فلانةً ، فجلست أنظر ، وضرب اللّه على أذنيَّ ، فواللّه ما أيقَظَني إلاَّ مَسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلتَ ؟ قلتُ : ما فعلتُ شيئاً ، ثم أخبرته بالذي رأيت . ثم قلتُ ليلةً أخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمُر ، ففعل ، فدخلتُ ، فلما جئتُ مكة سمعتُ مثلَ الذي سمعتُ تلك الليلة ، فسألت ؟ فقيل : نكح فلانٌ فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب اللّه على أذنَيَّ ، فواللّه ما أيقظني إلاَّ مَسُّ الشمس ، فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلتَ ؟ فقلت : لا شيء ، ثم أخبرتُه الخَبَرَ ، فواللّه ما هممتُ ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني اللّه عزّ وجلّ بنبوته »(١) .

هـ ـ **الخلوة** : كان رسول اللّه ـ قبل البعثة ـ يحب الانزِواءَ عن قومه ، لما يراهم عليه من عبادة الأصنام ، فكان يخلو عليه الصلاة والسلام بنفْسِه ، وقويَ عنده حُبُّ الخلوة للتفكر في آلاء اللّه بعد زواجه بخديجة ، فكان يصعَدُ إلى غارِ حراء شهراً من كل عام يخلو فيه بنفسه ويعبد اللّه ، وزاد عنده حُبّ الخلوة أكثر لما قَرُبَ موعِدُ البعثة .

إن من يزور غار حِرَاء يدركُ ما معنى الخلوة فيه شهراً كاملاً ، إنها

(١) سيرة ابن كثير ١/ ٢٥٢ نقلاً عن دلائل البيهقي .

انقطاعٌ عن الدنيا وعن الناس بما هم عليه من جَشَع وتكالُبٍ على الدنيا ، وانحرافٍ في السلوكِ ؛ ويدرك ما معنى التأمّل في آلاءِ اللّه في ذلك المكان المرتفع ، حيثُ الهدوءُ التام ، والإشراف على الأَوْدِيَة والجبال ، والإطْلال عن بعد على الكعبة المشرفة ، إن التأمل فيه لا يعني سوى السّمُو بالروح ، وتطهير النفس من أدرانها ، استعداداً لحملِ الرسالة الخالدة ، هديَّة السماء للأرض .

و ـ **تدريبه على التلقي من غير البشر** : إن مخاطبَةَ المجهولِ ، أو تَلَقّي الخطاب من غير البَشر ليس بالأمر الذي اعتاده الناس ، وإذا ما فوجىءَ به المرْءُ ربما أَذْهَلَتْه غَرَابَةُ المفاجأة، بل ربما فقد صَوابه، ولذلك اقتضت حكمة اللّه تعالى أن يدرّب رسولَه قبل البعثة على هذا النمط من التخاطُب ، ولذلك فإنه لما قَرُبَ موعِدُ البعثَة كان رسول اللّه إذا خرج لقضاءِ حاجَته لا يمرُّ بحَجَرٍ ولا شَجَرة إلاَّ قال : السلام عليك يا رسول اللّه[١] ، وكان رسول اللّه يعرفُ حجراً بعينه من هذه الأحْجار في مكة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إني لأعرفُ حَجَراً بمكة كان يُسَلِّم عليّ قبل أن أُبْعَثَ ، إني لأعرفه الآن »[٢] .

ز ـ **الرؤيا الصادقة** : عندما قَرُبَ عهدُ البعثة بدأ محمد يرى في منامه جبريلَ عليه السلام فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثلَ فَلَقِ الصُّبح في صِدقها ووُضُوحها[٣] ، فكانت هذه الرؤى تزيد ثقته بنفسه حتى أيقنَ أن هذه الرؤىٰ ليست أضغاثَ أحلامٍ ولا خيالات نائم ، ولكن وراءها ما وراءها ، إنها تدريب من اللّه لرسوله على تلقي الوحي الذي سيتردد عليه بعد زمن غير بعيد .

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني بتحقيقنا برقم ٢٨٩ وسيرة ابن كثير ١/٤٠٨ وانظر دلائل أبي نعيم برقم ٣٠٠ و ٣١٠.

(٢) مسلم في فضائل النبي ، والترمذي في المناقب .

(٣) انظر الحديث في البخاري باب بدء الوحي ، ومسلم في الايمان باب بدء الوحي .

٢ ـ تهيئة الناس لاستقبال نبوّة محمد صلى اللّه عليه وسلم :

إن تهيئة الأمة لاستقبال أمر ما يدفع عنها ذهولَ المفاجأة ، ويكون أدعى لقبول هذا الشيء ، بخاصة إذا كان هذا الشيء له أصوله في الفطرة والفكـر ، ولذلك شاءت حكمة اللّه أن يُعِـدَّ الناسَ لاستقبـال نبوة محمـد صلى اللّه عليه وسلّم بأمور منها :

أ ـ **الحالة العامة** التي وصل إليها الناسُ في العقيدة والثقافة والاقتصاد والسياسـة والاجتماع ، فهي بلسان حالها تنادي طالبة المصلِحَ ـ كما تقدم ـ .

ب ـ **بشارة الأنبياء والكتب السماوية بمبعثه** : ذكر القرآن الكريم أن اللّه تعالى أنـزل البشارة بمبعث محمـد في الكتب السماويـة المنـزلـة على الأنبيـاء السابقين فقال تعالى في سورة الأعراف/ ١٥٧ : ﴿ الَّذينَ يَتَّبِعونَ الرسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدونَه مكتوباً عِندَهم في التـوراةِ والإِنْجيل ، يـأمُرُهم بالمعروفِ ويَنْهَاهُم عن المنكَرِ ويُحِلُّ لهم الطَّيِّباتِ ويحرّمُ عليهم الخبائثَ ويضعُ عنهم إصْرَهُم والأغْلاَلَ التي كانت عَليهم ، فالذين آمَنوا به وعَزَّرُوه وَنَصَروه واتَّبَعوا النورَ الذي أُنْزِلَ مَعَه أولئك هُمُ المفلِحون ﴾ .

ودعا إبراهيم ربَّه أن يبعث في العرب رسولاً منهم ، فأرسل محمداً إجابة لدعوته ، كما قال تعالى في سورة البقرة/ ١٢٩ : ﴿ ربَّنا وابْعَثْ فيهم رَسُولاً منهم يَتْلُوا عليهم آيَاتِك وَيُعَلِّمُهُم الكتابَ والحكمـةَ ويُزَكيهم إنَّـكَ أنتَ العَزيزُ الحكيم ﴾ .

وبشَّـــرَ بـه عيسى ، وحكىٰ اللّه تعــالى بشـارة عيسى في ســـورة الصف/ ٦ : ﴿ وإذ قالَ عِيسىٰ ابنُ مريمَ يـا بَني إسْرائيـلَ إنّي رَسُولُ اللّهِ إليكم ، مُصَدِّقاً لما بين يَدَيَّ مِنَ التوراةِ ومُبَشِّراً بِـرَسولٍ يـأتي من بَعْدي اسمُهُ أحْمَد ﴾ .

وأعلم اللّه جميع الأنبياء ببعثته ، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به واتباعه إن هم أدركوه ، كما قال تعالى في سورة آل عمران/ ٨١ : ﴿ وإذ أَخَذَ اللّهُ ميثاقَ النبيّين لما آتَيْتُكم مِنْ كِتابٍ وحكمةٍ ، ثم جاءَكم رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكم لتؤمِنُنّ به ولتنصُرُنَّه قال : أأقْرَرْتم وأخَذْتُم على ذَلِكم إصْري ؟ قالوا : أقْرَرْنا ، قال : فاشهدُوا وأنا معكم مِنَ الشّاهِدِين ﴾ .

جـ ـ **بشارة الكتب المقدسة بمبعثه** : نحن لا نشك في أن كُتُبَ اللّه التي أنزلها على رسله السابقين قد بشرت بمبعثِ محمدٍ ، كما أننا لا نشك في أن الأنبياءَ السابقين قد بشروا به أيضاً ، لأن القرآن الكريم قد قَصَّ علينا ذلك في الآيات التي ذكرناها في الفقرة السابقة ، ومع أن هذه الكتب التي أنزلت على الأنبياءِ السابقين قد أصابَها ما أصابها من التحريف إلَّا أن بعضَ البشارات بمبعثِ محمدٍ ما زالت فيها ، كما سنرى فيما يلي :

١) **بشارة التوراة بمبعثه** : لقد صَرَّحَت التوراةُ التي بين أيدينا اليومَ بمبعث « حمدوت » وحَمْدُوت هو الذي تحمَدُه كلُّ الأمم ـ كما جاء في حاشيةِ الأصلِ العِبْري ـ وهي تعني بالعربية محموداً أو محمداً أو نحو ذلك ، ولكن مترجمي العهد القديم ـ ومنه التوراة ـ إلى العربية فضَّلُوا أن يستخدِمُوا عبارَة « مُشْتَهىٰ كُلِّ الأمم » بدلاً من محمد أو محمود لصرفِ أذهانِ قرّاء التوراةِ عن بشارةِ التوراةِ بمبعث محمد ، وإليك نص التوراة في سفر حجي ، الإِصْحاح الثاني « ٦ لأنه هكذا قال ربُّ الجنود ، هي مرة بعد قليل فأزلزلُ السماواتِ والأرضَ والبَحْرَ واليابِسة ٧ وأزلزلُ كلَّ الأمم ويأتي **مُشْتَهىٰ كُلِّ الأمم** فاملأُ هذا البيتَ عدلاً قالَ رَبُّ الجنود» .

ولم تقتصر بشارة التوراة على ذكر اسمِ النبيِّ المبعوثِ محمدٍ ، بل حددت نسبه ، وأنه سيكون من بني إسماعيل لا من بني إسحاق ،

فقد جاء في سفر التثنية الإصحاح ١٨ قول اللّٰه تعالى لموسى : « ١٥ يقيمُ لك الربُّ إلٰهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون » ثم يتابع كلامه في الإصحاح نفسه « ١٨ أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » .

بل إن التوراة لم تقتصر على تحديد نسب النبي المبعوث أيضاً بل حددت زَمَنَ بعثَتِه تحديداً تقريبياً في خبرِ النبي دانيال عندما كان في الأسْر ، فقد جاء في الإصحاح التاسع من سفر دانيال ما يلي : «٢٤ سبعونَ أُسْبوعاً قضيتُ على شَعْبِك وعلى مدينتك المقدسة لتكميلِ المعصيَة وتتميمِ الخَطَايا ولكفارَةِ الإثْمِ وليؤتىٰ بالبِرِّ الأبدي ولِخَتْمِ الرُّؤيا والنُّبُوَّة ولمسحِ قَدوسِ القدوسين » .

والأسبوع المراد هنا هو أسبوع سنين ، لأن اليومَ في قضاءِ اللّٰه وعقابه لبني إسرائيل بِسَنَةٍ ، كما جاء في الإصحاح ١٤ من سفر العدد « ٣٣ وبنوكم يكونون رُعاةً في القَفْر أربعينَ سنة ٣٤ كعدد الأيام التي نَجَّسْتُم فيها الأرْضَ أربعينَ يوماً ، للسنة يوم » .

وبناء على ذلك فإن رؤيا دانيال تعني أنه سيمر على بني اسرائيل عذابٌ مقداره ٧ × ٧٠ = ٤٩٠ عاماً حتى يجيءَ لهم الفَرَجُ على يد خاتم الأنبياء ، وإذا علمنا أن رحلَةَ العذابِ هذه قد بدأت سنة ١٣٢م حيث أرسل الأمبراطور أدريانوس عليهم جيشاً خَرَّب مدينتهم أورشليم ولم يُبْقِ فيها حجراً على حجر ، واستمر اضطهادهم حتى سنة ٦٢٨ التي تم فيها فتحُ القدس على يد المسلمين ، لم يستريحوا خلالها غير ١٤ سنة من سنة ٦١٤ ـ ٦٢٨ حين دَخَلَ الفُرسُ أورشليم ورفعُوا الظلم عن اليهود ، وإذا حسبنا هذه المدة التي قضاها بنو إسرائيل في العذاب لوجدناها ٤٩٠ عاماً كما قال دانيال .

وإذا كان رفعُ الاضّطهاد عن بني إسرائيل لا يكون إلا بعد مجيءِ خاتَم الأنبياء ، فإن اليهودَ إذن يعرفون بالتقريبِ زمَنَ بعثَتِهِ ، ولذلك وردت الأخبار على لسانهم بقرب مبعثه كما سيأتي بعد قليل .

٢) **بشارة الإنجيل بمبعثه** : وكما بَشَّرَت التوراةُ بمبعثِ رسول اللّه بشّر الإنجيل أيضاً ، وذلك حين بشّر بـ « الفارقليط » والفارِقْليطِ بالعبريّة يعني : « المحمود الصفات » ويسمى بالعربية « محمود ، أو محمد ، أو أحمد » وهذا ما جرى عليه مترجمو إنجيل « برنابا » في الإصحاح ٤١ حيث جاء فيه : « ٢٧ ما أسْعَد الزمَن الذي سيأتي فيه إلى العالم ٢٨ صَدِّقوني أني رأيتُه وقدّمت له الاحترامَ كما رآه كلُّ نبي ٢٩ لأن اللّه يُعطيكم روحه نبوَّةً ٣٠ ولما رأيته امتلأتُ عَزاءً قائلاً **يا محمد** ليكن اللّه معك وليجعلني أهلاً أن أحِلّ سيرَ حِذائك ٣١ لأني إن نِلْتُ هذا صِرْتُ نبياً عظيماً وقدوس اللّه» .

ولكن مترجمي انجيل يوحنا فضلوا أن يترجموا كلمة «الفارقليط» الواردة في الأصل بكلمة « المُعَزّي » بدلاً من « محمد » التي فضلها مترجمو إنجيل برنابا، لأن مترجمي هذا الإنجيل ـ انجيل يوحنا ـ إلى العربية أرادوا أن يُبْعِدوا اسمَ محمد لئلا تقوم عليهم الحجة بعدم الإيمان به ، فقد جاء في إنجيل يوحَنا الاصحاح ١٤ : « ٢٦ وأما المُعَزّي الروحُ القُدس الذي سيرسُلُه الأبُ باسمي فهو يعلمُكُم كل شيءٍ، ويُذَكِّركم بكلِّ ما قلتُه لكم » وجاء في الاصحاح ١٥ : « ٢٦ ومتى جاء المُعَزّي الذي سأرسله إليكم من الأب روحِ الحقّ من عندِ الأب ينبثق فهو يشهد لي ٢٧ وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء » وفعلاً فقد شهد محمد لعيسى بالنبوة وأمر المسلمين بالإيمان به كرسول من عند اللّه ، وجاء في الاصحاح ١٦ : « ٧ لكي أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنْطَلِق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي ، ولكن إن ذهبتُ أرسله

إليكم » ويتابع قوله في الاصحاح نفسه : « ١٢ إن لي أموراً كثيرة لأقولَ لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ١٣ وأما متى جاءَ ذاكَ الروح الحقّ فهو يُرشِدُكم إلى جميعِ الحقّ لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ١٤ ذاك يمجِّدُني . . . » وفعلاً فإن قوم موسى لا يحتملون تلك الشريعة الأبدية من عيسى عليه السلام ، لأن التطور البشري لا يسمح لهم بتلقيها بعد ، ولأنهم يحتاجون إلى تربية تمتد أمداً ليصلُحوا لتلقّي آخرَ الشرائع .

ولم تقتصر بشارةُ الإنجيل على ذكر اسمِ رسولِ اللّه محمد صلى اللّه عليه وسلّم ، بل ذكرت نَسَبَه أيضاً ، وأنه سيكون من بني إسماعيل ، لا من بني إسحاق فقد جاء في إنجيل برنابا في الاصحاح ٤٣ : « ٢٥ متى جاءَ رسولُ اللّه فمن نسل مَنْ يكونُ ؟ ٢٦ أجاب التلاميذ : من داود ٢٧ فأجاب يسوع : لا تغُشّوا أنفسَكم ٢٨ لأن داود يدعوه في الأزل الروح قائلاً: قال اللّه لربي اجلسْ عن يَميني حتى أجْعَلَ أعداءَك موطِئاً لقدميك ، ٢٩ يرسلُ اللّه قضيبَك الذي سيكون ذا سلطانٍ في وسَط أعدائِك ٣٠ صدّقوني لأني أقولُ لكم الحقَّ إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق » .

وقد كان النصارى يضيفون إلى البشارات الواردة في الانجيل بمبعث محمد ، البشاراتِ الواردة في التوراة أيضاً ، لأنهم يقرأون التوراة أيضاً ، ويعتبرونه كتاباً مقدساً لهم أيضاً، لأن انجيل مَتّى ينقُلُ في الاصحاح الخامس قول عيسى : « ١٧ لا تظنوا أني جئت لأنقُضَ الناموسَ أو الأنبياءَ ، ما جئت لأنقُضَ بل لأُكمِلَ » .

د ـ **توقع الناس بعثته** : بناء على هذه البشارات الواردة في التوراة والانجيل وتحديد زمن البعثة المشرَّفة في التوراة فقد عُرِفَ عند الكُهّان ، وشاعَ بين

الناسِ قربُ مبعث نبي حتى أصبح الحديثُ عنه في دخيلَةِ كُلِّ نفْسٍ وعلى كل لسان .

١) **فمن ذلك إخبار رهبان النصارى ورجالاتها** بقربِ مبعثه عليه الصلاة والسلام ومنها :

إخبار **بحيرا** راهبُ بُصرى عندما سافر الرسول مع عمه إلى بلاد الشام .

وإخبار **نسطورا** الراهب عندما سافر الرسول إلى بلاد الشام ثانية برفقة «مَيْسرة» في تجارة لخديجة بنت خويلد التي تزوجها الرسول فيما بعد .

وإخبار **راهبِ عمورية** الذي آل إليه أمرُ سَلْمَانِ الفارسي ، ولما حضرت الوفاةُ هذا الراهب قال لسلمان : إنه قد أظَلَّ زمانُ نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم ، يخرُج بأرضِ العرب ، مهاجَرُه إلى أرض بين حَرَّتَيْن بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكلُ الهدِية ولا يأكُل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعتَ أن تَلْحَق بتلك البلاد فافعل[1] .

وإخبار **سيف بن ذي يزن ـ النّعْمان بن قيس** بقرب مبعثه ، وذلك : انه لما ظهر سيفُ بن ذي يزن على الحبشة ـ بعد مولد رسول اللّه بسنتين ، اتته وفودُ العرب تهنئه ، وفيهم عبد المطلب جَدُّ رسول اللّه ، فقال سيف لعبدِ المطلب ـ باعتباره زعيم مكة ـ : إذا وُلِدَ بتهامة غلامٌ به علامةٌ ، بين كتفَيْه شامة ، كانت له الإمامَة ، ولكم به الزَّعامة ، إلى يومِ القيامة ، هذا حينُه الذي يولدُ فيه[2] .

وإخبار الراهب **بكا** ـ في بلاد الشام ـ أَبَان بن سعيد بقرب مبعثه

(١) سيرة ابن كثير ٣٠٠ ودلائل أبي نعيم برقم ١٩٩ .

(٢) سيرة ابن كثير ١/٣٣٦ ودلائل أبي نعيم برقم ٥٠ .

حتى قال أبان : فوصفَهُ فما أخطأَ في وَصْفِه شيئاً ، ثم قال لي : هو والله نبيٌّ هذه الأمة ، والله ليظهرن[١] .

٢) ومن ذلك إخبار أحبارِ **اليهود** ورجالاتها بقرب مبعثه عليه الصلاة والسلام ، ونذكر من ذلك :

إخبار ابن الهيّبان الذي خرج من بلاد الشام ونزل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة النبوية بسنتين ، فإنه لما حضرته الوفاة قال لبني قريظة : يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجَني من أرضِ الخَمْر والخَمير - الشام - إلى أرض البؤس والجوع - يعني : الحجاز -؟ قالوا : أنت أعلم ، قال : إني قدمتُ هذه البلدَةَ أتوكَّفُ - انتظر - خروجَ نبي قد أظَلَّ زمانُه ، وكنت أرجو أن يُبعَثَ فأتبعه[٢] .

ومن ذلك ما حَدَّث به سَلَمة بن سلام بن وقْش - من أهلِ بدر - قال : كان لنا جارٌ من يهود بني عبد الأشهل يقال له **يوشع** ، أشار بيده إلى مكة واليمن وقال : نبيٌّ يُبْعَث من نحو هذه البلاد ، قالوا : من يراه ؟ فنظر إليّ - إلى سلمة - وأنا من أحدثُهُم سناً فقال : إن يستكمِلْ هذا الغلامُ عُمُرَه يدركْه[٣] .

وقد شاع حديث ذلك وانتشر بين اليهود وغيرهم حتى بلغ درجة القطع عندهم ، وبناء عليه كان اليهودَ يقولون لأهل المدينة المنورة : إنه قد تقارب زمان نبي يُبْعَث الآن ، نقتلكم معه قتلَ عادٍ وإرم[٤].

٣) ومن ذلك إخبار **الكهان** الذين لهم اتصال بالجن **كشِقّ وسَطيح**[٥]

---

(١) السيرة المحمدية ١/ ١٢٩ .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم برقم ٤٢ .

(٣) مستدرك الحاكم ٣/ ٤١٧ وسيرة ابن كثير ١/ ٢٩٤ وصفوة الصفوة ١/ ٨٩. ودلائل أبي نعيم برقم ٣٤ و ٣٦ .

(٤) سيرة ابن كثير ١/ ٢٩١ .

(٥) شق هو ابن صعب بن يشكر بن أفرك بن قيس بن عبقر بن أنمار ، وسمي شقاً لأنه كان نصف إنسان ، وأما سطيح فهو الربيع بن ربيعة بن =

وغيرهم ، وكان شق وسطيح أعلمُ أهلِ زمانهما بما كان وما يكون ، فقد رأى ربيعة بنُ نصر ملك اليمن رؤيا هالته، وهي : انه رأى ـ قطعةَ نارٍ ـ خرجَتْ من ظُلْمة ، فوقعت بأرض تِهمة ـ منخفضة ـ فأكلت منها كل نَسَمة ، فاستقدم شقاً وسطيحاً لتأويل رؤياه، فأوَّلها له شقّ ـ ولم يخالفه سطيح بما أوّله ـ بأن سودانَ الحبشة ليملكُن بلادَه ، ويبقون فيها إلى أن يَقضيَ عليهم سيفُ بن ذي يزن ، ويبقى ملكُه قائماً إلى أن يقضيَ عليه رسولٌ مرسل من عند اللّه يأتي بالحق والعدل[1] . وغير ذلك من أخبار الكهّان كثير ذكر طرفاً منها أبو نُعيم الأصبهاني في دلائل النبوة .

٤) ومن ذلك الرؤىٰ الكثيرة التي رآها أناسٌ عديدون وكلها يَحملُ البشارة بمبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، نذكر من ذلك :

رؤيا **عمرو بن مُرَّة الجُهَني** ، قال عمرو : خرجت حاجّاً في جماعةٍ من قومي في الجاهلية ، فرأيتُ في نومي وأنا بمكة نوراً ساطعاً خرج من الكعبةَ حتى وَصَلَ إلى جَبَل يثرب وأشْعَرِ جُهَيْنَة ـ جبل على مشارف ينبع ـ فسمعتُ صوتاً بين النور وهو يقول: انقشَعَت الظَّلماء ، وسطع الضياء ، وبُعث خاتم الأنبياء . . .

ونذكر أيضاً **رؤيا عبد المطلب** ، ولنترك عبد المطلب يقصُّها علينا ، قال عبد المطلب : إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحِجْر كأن شجرةً نبتت قد نالَ رأسُها السماءَ ، وضربت بأغصانها المشرقَ والمغرب ، ورأيت نوراً أزهرَ منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً ،

= مسعود من الأزد ، كان مسكنه الجابية في مشارف الشام ، عمر طويلاً ولم يدرك الإسلام ، وسمي سطيحاً لأنه كالسطيحة ليس له عظم . وولد شق وسطيح في يوم واحد فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية فتفلت في أفواههما فورثا منها الكهانة، كما يقولون .

(١) سيرة ابن كثير ١/١٥ والوفا ١/٧٤ ودلائل أبي نعيم برقم ٧٠ .

ورأيت العربَ تُزهِر ، ورأيت رَهْطاً من قريش قد تعلّقوا بأغصانِها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخَّرَهم شابٌّ لم أرَ قطُّ أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً ، فيكسر أظهرهم ويقلَع أعينَهم ، فرفعتُ يدي لأتناوَل منها نصيباً فمنعني الشاب ، فقلت : لمن النصيب ؟ فقال : لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوكَ إليها ، فانتبهت مذعوراً فزعاً(١).

وظاهر في تعبير هذه الرؤيا أن الشجرةَ : هي الإسلام ، وان الشاب : هو رسول اللّه ، وأن الذين تعلقوا بها : هم صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم .

وإذا كانت الرؤى والأحلام ـ كما يقول أصحاب مدرسة التحليل النفسي ـ هي همـوم الماضي وآمال المستقبل يقذفها اللاشعور إلى المخيِّلة أثناءَ النوم ، فإن هذه الرؤى تعبر عن أملِ الناسِ في ابتعاثِ نبيٍّ يزرع الخيرَ في الأرض وينثر زهور الحب في القلوب .

هـ ـ وإذا كنا نقطع بصحة بشارات الأنبياء والكتب السماوية السابقة بمبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، لأننا نملك الدليل المادي على ذلك من آيات قرآنية ونصوص من الإنجيل والتوراة ، ونقطع بصحة ما ورد من إخبارِ الرهبان ورجالات اليهود والنصارى بقرب مبعث رسول اللّه ، لقيام الدليل العقلي على وقوع تلك الإخبارات منهم ، إذ أن القوم ينطقون بما نطقت به كُتُبهم المقدَّسة، وهذا أمر طبيعي في كل مؤمن .

ولكننا رغم أننا لا نملكُ الدليلَ الماديَّ على صحة ما ورد عن الكهان من البشارة بمبعث رسول اللّه، فإننا نميلُ إلى تصديقِ وقوعِ

(١) انظر الرؤية في دلائل النبوة برقم ٥١ .

ذلك منهم ، لأننا نجزم بوجود الجنِ ونجزم أيضاً بأن الجنَّ كانوا ـ قبل بعثة الرسول ـ يستَرقونَ السمعَ لقول اللّٰه تعالى في ذلك في سورة الجن ٨ ـ ٩ : ﴿ وأنّا لَمَسْنا السَّماءَ فوجَدْناها مُلِئَت حَرَساً شديداً وشُهُباً * وأنّا كُنّا نقعُدُ منها مَقاعِدَ للسَّمْعِ فمن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهاباً رَصَداً ﴾ ، ونجزم بوجود الاتصال بين البَشَرِ والجنّ ، فما المانع أن يخطفَ الجنُّ من الملائكة خبر بعثةِ الرَّسولِ صلى اللّٰه عليه وسلّم ثم يلقونه إلى اتباعهم من البشر ؟ بل إن من الحكمة أن يحدث ذلك ليتهيأ الناسُ ذِهْنياً ونفسِياً لاستقبالِ النبيّ المنتظر .

أما الرؤى والأحلام رغم افتقارها إلى الأسانيد الصحيحة ـ على شروط المحدّثين ـ فإن المنطقَ العلميَّ يحتِّم وجودَها ، لأن المجتمعَ الجاهلي قدبلغَ من السوءِ حداً ضاق به أهلُه ، وهم يسمعون أهلَ الكتابِ من اليهودِ والنصارى ، ويسمعون الكهان يُبَشِّرون بقدومِ نبيٍّ يملأ الدنيا قِسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً ، وظَرْفُ مثلُ هذا لا بد من أن يُفرِزَ أحلاماً ورؤى ، ولذلك فإننا لا نستبعد وجودها .

و ـ إن كل **هذه الأمور مجتمعة** (بشارات الكتب المقدسة ، إخبارات اليهود والنصارى ، إخبارات الكهان ، الرؤى والأحلام) أوجدت جواً فكرياً ونفسياً مليئاً بالترقب لظهور نبي ، يكون الخيرُ على يديه .

٣ ـ بعثة النبي محمد صلى اللّٰه عليه وسلم :

أ ـ **الوحي** : بعد أن تم إعداد رسول اللّٰه محمد لحمل الرسالة ، وتمت تهيئة الناس لتقبُّل هذه الرسالة بعث اللّٰه تعالى محمداً ، وأنزل عليه الوحي بعدما أتمَّ الأربعين من عمره .

وكان أولُ مرة يوحى إليه فيها بنزول جبريل عليه في إحدى ليالي العشر الأخير من رمضان حين كان رسولُ اللّٰه يتعبَّد اللّٰهَ تعالى في غار

حراء ، حيث جاءه المَلك جبريل فقال : اقرأ ، قال الرسول : فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغَطّني حتى بلغ مني الجَهْد ، ثم ارسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغَ مني الجَهْد ، ثم أرسلني ، فقال اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغَ مني الجَهْد ، ثم ارسلني ، فقال : ﴿ اقرأْ بِسْمِ ربِّك الذي خَلَق * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق * اقرأ وربُّك الأكرَم * الذي عَلّمَ بالقَلَم * عَلَّم الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ فرجع بها الرسول صلى اللّه عليه وسلّم يرجف فؤادُه ، فدخل على خديجة بنتِ خويلد ، فقال : زمِّلوني ، زمِّلوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروعَ ، فقال لخديجة : [أرأيتِ الذي كنتُ أرى في المنامِ ، والصوتَ الذي كنت أسمعُ في اليقظة وأهالُ منه ؟ فإنه جبريلُ قد استعلَن لي وكلّمني وأقرأني كلاماً فزعْتُ منه ، ثم عاد إليّ فأخبرني أني نبي هذه الأمة ، فأقبلت راجعاً ، فأقبلتُ على شجر وحجارة فقلن : السلام عليك يا رسول اللّه][1] لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا، ابشر، فواللّه لا يخزيك اللّه أبداً ، إنك لتصلُ الرحم وتصدقُ الحديثَ ، وتحملُ الكلَّ ، وتكسِبُ المعدوم ، وتقْري الضيف، وتعين على نوائبِ الحق، فانطلقت به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ـ وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ـ وكان امرءاً تنصَّر فيَ الجاهلَية ، وكان يكتُبُ الكتابَ العبراني ، فكتب من الإِنجيل بالعبرانية ما شاء اللّه أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسولُ اللّه خبرَ ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموسُ الذي نزلَ على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً ، ليتني أكونُ حياً إذ يُخرجُك قومُك ، فقال له رسول اللّه : أوَمُخْرِجيَّ هم ؟!

(١) ما بين المعقوفين مقحم من سيرة ابن كثير ١/٤٠٨ في رواية الحديث .

قال : لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئت به إلاّ عودي ، وإن يدركني يومك حياً أنصرْك نصراً مؤزّراً ، ثم لم ينشَبْ ورقةُ أن توفي ، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى اللّه عليه وسلّم حزناً غدا منه مِراراً كي يتردّىٰ من رؤوس شواهق الجبال ، فكلَّما أوفى بذُروة جبلٍ لكي يلقي نفسه تبدّى له جبريلُ فقال : يا محمد إنك رسولُ اللّه حقاً ، فيسكن لذلك جأشُه وتقرُّنفسُه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترةُ الوحي عاد لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك[1] ، وقد دام هذا الانقطاع سنتين أو أكثر .

أما عودة الوحي فيحدثنا عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم فيقول : إني جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جِواري هبطْتُ فاستبطنت الواديَ ، فنودِيتُ ، فنظرتُ أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ، ثم نوديت ، فنظرتُ فلم أجدْ أحداً ، ثم نوديتُ ، فرفعت رأسي فإذا جبريلُ على عرشٍ في الهواءِ ، فأخذتني رجفةٌ شديدةٌ ، فأتيتُ خديجةَ فقلت : دثِّروني ، فدثروني ، وصبُّوا عليّ ماءً بارداً ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ يا أيُّها المُدَّثِّر * قُمْ فأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فكبِّر * وثيابَك فَطَهِّر ﴾[2] .

ب ـ **أشكال الوحي** : كان جبريل يأتي رسولَ اللّه بالوحي على ثلاثة أشكال :

الأول : كان يأتيه بشكل رجُلٍ ، وقد أتاه مرة وهو شديدُ بياضِ الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثرُ السفر ، ولا يعرفه من الصحابة أحد[3] ، وكان يتشكل في بعض الأحيان بشكل رجل من الصحابة هو « دِحْيَةَ الكلبي » ، فقد أتاه مرة بشكل دحية ، وكان عند

---

(١) البخاري في بدء الوحي ، ومسلم في الإيمان باب بدء الوحي .

(٢) المراجع السابقة .

(٣) مسلم في الإيمان باب وصف جبريل .

رسول اللَّه أم سلمة ، فجعل يتحدث ، ثم قام ، فقال نبيُّ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم لأم سلمة : من هـذا ؟ قالت : هـذا دِحْيَة الكلبي ـ قـالت أم سلمة : أيمُ اللَّهِ ما حسبتُه إلَّا إياه ، حتى سمعتُ خـطبة النبي صلى اللَّه عليه وسلّم يخبر خبر جبريل[(١)] .

الثاني : كان يأتيَه بشكلِ صلصلةِ الجرس ، فقد سأل الحـارثُ بن هشام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم فقال : يا رسول اللَّه ، كيف يأتيكَ الـوحيُ ؟ فقال رسـول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم : « أحيـاناً يـأتيني مثـل صلصلة الجـرس ـ وهو أشـده علي ـ فيفصمُ عني وقـد وعيتُ مـا قـال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول »[(٢)] .

الثـالث : النّفْثُ في الـرَّوْع : ونعني بـالنفث في الـروع : الإلقـاء بالقلب ، والإلهام ، فقد روى أنس بن مالك وعبد اللَّه بن مسعود وأبو أمامة الباهلي وأبو هريرة أن رسـول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم قـال : « إن روح القُدُس نَفَثَ في روعي أنه لَنْ تموتَ نفسٌ حتى تستَكْمِلَ رِزْقَها »[(٣)] .

والجدير بالذكـر أن القرآن كـان ينزل بـالشكلين الأولين من أشكال الوحي ، ولم ينزل منه شيء بالإلهام .

جـ ـ حـالة رسـول اللَّه حين نزول الـوحي : قلنـا إن الـوحيَ كـان ينـزلُ على رسول اللَّه بثلاثة أشكال : الأول : كان يأتيه بشكل رجل ، والثاني : كان يـأتيه بشكـل إلهام ، ولم يكن يحـدث في هذين الحـالين أي تغيـر على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم .

---

(١) مسلم كتـاب فضائـل الصحابـة باب فضـائل أم سلمة .

(٢) البخـاري في بدء الـوحي باب ذكـر الملائكـة ، ومسلم في الفضائل بابَ عَرَق النبي .

(٣) جـامـع الأصـول بـرقم ٧٥٨٦ وحليـة الأوليـاء ١٠/٢٧ .

والثالث : كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وفي هـذه الحالـة كان يعتري رسول اللّه الكثير من الضيق والشدة ، قال ابن عباس : كان النبي يعالج من التنزيل شدة[١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من مرّة يـوحى إليّ إلاّ ظننت أن نفسي تغيظ ـ أي : تقبض ـ منه »[٢] .

ـ وكان من هذه الشدة يحمرّ وجهه ، فقد دخل عليه يعلى بن أمية وهو يوحى إليه وعنده عمر بن الخطاب فوجده محمرّ الوجه[٣] .

ـ ويتفصد عرقاً : قالت عائشة : ولقد كان ينزل عليه الوحي في اليومِ الشديدِ البَرْد فيفصُمُ عنه وإن جبينه ليتفصّدُ عرقاً[٤] .

ـ ويغط في شبه غيبوبـةٍ[٥] دون أن يفقد الاحسـاس ولا الاستمساك ، فقـد أوحى اللّه إليه مرة وهو جالس يتعشى وعرق اللحم في يده ، فسرِّيَ عنه لم يسقط العرق من يده[٦] ، وهذا يدل على أنه لم يكن يفقد الاحساس ولا الاستمساك .

ـ ويثقل جسمه ، فقد حدثنا زيد بن ثابت رضي اللّه عنه أنـه قد أوحي إلى رسول اللّه ، وفخذ رسول اللّه على فخذِ زيـد ، فثقلت فخِذُ رسـولِ اللّه حتى كادت تُرَضّ فخِذُ زيد[٧] . ولما أوحى اللّه إليه سـورة المائـدة كان

---

(١) البخاري في بدء الوحي ، ومسلم في الصلاة باب الاستماع للقراءة .

(٢) مسند أحمد ٢/٢٢٢ .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الحج باب غسل الخلوق ، ومسلم في الحـج بـاب مـا يبـاح للمحـرم ، والنسائي في الحـج باب الجبـة في الاحرام .

(٤) البخـاري في بدء الـوحي ، ومسلم في الإيمـان باب بدء الوحي .

(٥) النسائي في الحج باب الجبة في الاحرام .

(٦) البخاري في تفسير سورة الأحزاب ، وأحمد في المسند ٦/٥٦ .

(٧) البخاري في الصلاة باب ما يذكر في الفخذ .

رسول اللَّه على ناقتِه العضباءَ ، وكانت أسماء بنت زيد آخذةً بزمام الناقة ، فثقُلُ رسول اللَّه حتى قالت أسماء : كادت من ثقلها تدق عضد الناقة (١) .

ـ وكان يسمع عند وجهه دويٌّ كدويِّ النحل ، قال عمر بن الخطاب : كان رسول اللَّه إذا نزل عليه الوحي يُسمَع عند وجهه كَدَوِيِّ النحل (٢) .

د ـ **الموحى به** : نستطيع أن نحصر ما ينزل به الوحيُ على محمد صلى اللَّه عليه وسلّم بشيئين الأول : القرآن : وهو كلامُ اللَّه المعجِز المنزَّل على محمدٍ بلفظه .

الثاني : بعض السنة ، وهذا البعض يشتمل على ما صرح الرسولُ بنسبته إلى اللَّه تعالى وهو « **الأحاديثُ القدسية** » وما لم يصرح الرسول بنسبته إلى اللَّه من الإخبارِ **بالمغيَّباتِ** كأخبار الأمم الضاربة في القِدَم ، ووصفِ الجنة والنار ، وأمارات الساعة ونحو ذلك ، ومما **لا يدرك بالاجتهاد** كالعبادات من الصلاة والزكاة والصوم ونحو ذلك .

٤ ـ مؤيدات البعثة النبوية :

اقتضت حكمة اللَّه تعالى أن لا يُرسِلَ رسولاً إلَّا ويؤيده بالمعجزات لتكون شاهداً له على صدقه فيما يدَّعيه من النبوة ، وعندما أرسلَ محمداً صلى اللَّه عليه وسلّم أيده بالمعجزات كما أيد غيره من الأنبياء بها .

وإن المتأملَ في المعجزات التي أيدَ اللَّهُ تعالى بها رسولَه محمداً صلى اللَّه عليه وسلّم يجدها على نوعين : معجزة معنوية وهي القرآن ، ومعجزات مادية .

(١) أحمد في المسند ٦/٤٥٥ .
(٢) الترمذي في التفسير باب تفسير سورة المؤمنين .

أ ـ معجزة القرآن :

١) لقد أنزل اللَّه تعالى القرآنَ الكريم على محمد صلى اللَّه عليه وسلّم فقال بعض العرب إن محمداً يتقوَّلُ هذا القرآن على اللَّه ، وما هـو من عند اللَّه ، فكان جواب القرآن لهم : إنه لو كان هذا القرآن من صنع البشر ، لاستطاع البشرُ أن يصنعوا مثله ، ثم تحداهم بأن يأتوا بمثله فقال تعالى في سورة الطور ٣٣ ـ ٣٤ : ﴿أمْ يَقولُونَ تَقَوَّلَه بـل لا يُؤمِنون * فليـأتُوا بِحَديثٍ مثله إنْ كانوا صَادِقِين﴾ ثم أكد سبحانه أنهم لن يستطيعـوا أن يـأتوا بمثله ولـو اجتمع بعضهم إلى بعضٍ وسـانَـدَ بعضُهم بعضـاً في ذلك ، بل لو اجتمع الإنسُ وَالجنُّ ليـأتوا بمثله فلن يكـون نصيبهم إلاَّ الفشل فقال تعالى في سورة الإسراء/٨٨ : ﴿ قُلْ لَئِن اجتمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أن يَأْتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأتـونَ بمثلِهِ وَلَو كـان بَعضُهم لِبَعْضٍ ظهيراً ﴾ .

وأُبلِسَ الكافرون أمـام هذا التحـدي السافـر ، وأعلنوا عجـزهم وإفلاسهم ، فهوَّن القرآن عَليهم الأمرَ وأغراهم بالمحاولة فقال في سورة هود/ ١٣ : ﴿ أم يقولون افتراه ، قلْ فأتوا بعشرِ سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَيـاتٍ ﴾ فعجزوا ، وأسقِط بأيديهم ، فهوَّن عليهم الأمر ، أكثر من ذي قبل فقال لهم في سورة يونـس/ ٣٨ : ﴿ أَمْ يَقولونَ افتراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِه ﴾ وقال في سورة البقرة/ ٢٣ : ﴿ وإن كنتم في رَيْبٍ ممـا نَزَّلْنـا على عَبْدِنـا فأتـوا بِسُورَةٍ مِنْ مَثْلِه ﴾ فعجزوا ولم يفعلوا .

ولم يتحدّى القرآن بأقلّ من سورة ، وهذا ما دفعَ بعض العلمـاء إلى القول بأن الإعجـاز لا يقع بـأقلَّ من سـورة ، ويظهـر أن هذا ليس صحيحاً على إطلاقه ، فقد يتحقق الإعجاز بالآية ـ ولكن ليس بكل آية ـ وقديتحقق بما هو أقل من آية .

٢) وجوه إعجاز القرآن : إن المتأملَ في القرآن الكريم يستطيعُ أن يلاحظ

الإعجازَ فيه من وجوهٍ متعددة ، منها : الإعجازُ اللغوي ، والإعجازُ العلمي ، والاعجازُ بالإخبار بالمغيبات ، والإعجازُ التشريعي ، والإعجازُ في جرس القرآن ، والإعجاز في اتساق نظرياته وغير ذلك ، ونحن سنعرض فيما يلي بعض وجوه هذا الإعجاز .

٣) **الإعجاز اللغوي** : لقد نزل القرآنُ الكريم باللغة العربية ، واللغةُ العربية هي ورقة في شجرة عائلةِ اللغاتِ الساميّة ـ نسبة لسام بن نوح ـ كالبابلية والآشورية والكنعانية ـ وأهم لهجات الكنعانية : العبرية والفينيقية ـ والآرامية ـ وأهم لهجاتها : السريانية ـ والحبشية .

● وإن من يدرس هذه اللغات دراسة مقارنة يجد كثيراً من نقاط الالتقاء بينها وبين اللغة العربية ، وقد اختلف الباحثون في مَرَدِّ هذا الالتقاء .

فذهَبَ بعضُهم مثل كارل بروكلمان إلى أن سببه هو أن العربَ جاءوا إلى أرضِ الحضارة في آخر موجةٍ من موجاتِ هجرة الشعوب السامية ، وورثت لغتُهم كلَّ اللغاتِ الساميّة الأخرى تقريباً ، فزادت بها غنى ، وبلغت درجة من التطور أعلى منها في اللغات السامية الأخرى ، وبلغت مفرداتها حداً يفوق الحصر .

وذهب بعضهم مثل الأستاذ قاسم أحمد إلى أن العربية هي أمُّ اللغات السامية وأن سائرَ اللغاتِ السامية الأخرى قد تفرعت منها ولم تبلغ بحالٍ رُقيَّها وغناها .

ويتفق الباحثون على أن اللغات السامية أقدرُ اللغات القديمةِ على التعبير عن المعاني المجرَّدة ، كما يَتَّفقونَ على أن اللغةَ العربية هي أقدرُ اللغات السامية في التعبير عن هذه المعاني ، وبالتالي : فهي أقدرُ اللغاتِ بإطلاقٍ على التعبير عن المعاني المجرَّدَة ، ولذلك اختارها اللّه تعالى لتكون لغة القرآن .

● ونظراً لتغطيةِ اللغة العربية مساحةً شاسعةً من الأرض فقد افترقت إلى لهجات[١] فكان من هذه اللهجات ما هو غيرُ فصيحٍ ، وهي التي يتم فيها قَلْبُ الحروفِ بعضهـا إلى بعضٍ كقلبِ قبائـلِ تميم وأسَدَ وقيس الكافَ إلى جيمٍ قريبةٍ من الشين ، فيقولـون في « لَبَّيْكَ » « لَبَّيْـج » ، وقلب هُذَيْل الحاءَ إلى عين ، حيث يقولون في « حتّى » « عتّى » ونحو ذلك .

وكان من هذه اللهجات ما هو فَصيح ، وهي اللهجـات التي لا قَلْبَ فيها لشيءٍ من الحروف .

وكانت قريشٌ تسكن مكة، وكانت قبـائلُ العـرب تردُ إليهـا في المواسم ، فكانت قريش تسمع ما تتكلم به هذه القبائلُ من اللهجات ، فتنتقي أفصحَه لساناً وألطفه وأخفَّه نطقاً فتدخله لهجَتَها ، حتى صارت لهجةُ قريشٍ أفصحَ لهجات العرب وأخفَّها على اللسان ؛ ولذلك نزل القرآن أول ما نزل بلهجة قريش .

● وقد كان انتقاءُ أدق الكلمات وضعاً للتعبير عن معنى معين أولَ اللبنات في بناء الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم .

ولما كانت بعض القبائلِ تُطْلِقُ كلماتٍ على معانٍ ودلالات تنفردُ بإطلاقها عليها عن باقي القبائلِ العربيةِ وهي أدلّ على هذا المعنى من الكلماتِ التي تُطلقها عليه بـاقي القبائـل ، فقد كـان القرآن ينتقي أدق الكلمـات دلالـة على المعنى ، لا يضـره من أيـة قبيلة أخـذ هـذه الكلمات .

فتميم تطلق كلمة « آسِن » على الماء المتغير من طول المُكْثِ ،

---

(١) نعني باللهجة : طريقة النطق بالكلمة ، كنبر الهمزة أو تسهيلها أو ردها إلى أصلها ونحو ذلك .

وباقي القبائِلِ تطلق عليه كلمة « مُنْتِن » والمدقق يدرك أن كلمة « آسِن » أبلغُ في الدلالة من « منتن » لأن النتن قد يكون من طولِ المكث ، وقد يكون من وقوع شيء فيه ، وقد يكون من مجاورة شيءٍ لـه فاستعمـل القرآن كلمة « آسن » .

وجُرْهُم تطلق كلمة « **أساطير** » على الحكايات غير المعقـولة ـ الخرافات ـ وباقي القبائل تطلق عليها كلمة « كلام » بإضافة وصفٍ آخر إليه ، ولا شك أن كلمة « أساطير » أبلغ بالدلالة فاستعمل القرآن كلمة « أساطير » ؛ ومثل هذا كثير(١) .

والثـابت من كلام العـربِ أن كلمة « زَوْج » تعني الـواحد ومثله معـه ، ويقال لـلإثنين معاً : « الـزوجان » يقـال لحليلةِ الرَّجُـل « زوج فلان ، وزوجة فلان » ويقال لها أيضاً : « امرأة فلان » ولكن يلاحظ أن القرآن الكريم يطلق كلمة زوج عنـدما يكـون هناك تـوافق بين الرجـل وحليلتـه ، تأمـل قولـه تعـالى في سـورة البقـرة/ ١٠٢ في السَّحـرة : ﴿ فَيَتَعَلَّمون منهما ما يُفَرِّقـون به بين المـرءِ وزَوْجِه ﴾ وقـال في سورة الأحزاب/ ٥٩ : ﴿ يا أيها النبيُّ قلْ لِأزواجِك وبناتِـك ونساءِ المؤمنين يُـدْنين عَلَيْهن من جَلَابِيبِهِن ﴾ وقـال في سورة البقـرة/ ٢٣٢ : ﴿ فَلا تَعْضُلوهُنَّ أن ينكِحْن أزْوَاجَهن إذا تَرَاضَوْا بينهم بـالمعروف ﴾ فحيثمـا استعملت كلمة « زوج » دلت على الموافقة والمشاكلة في الدين والطبع ونحو ذلك، لأن أصل معنى الزوج في اللغة «المكمل للفرد» ولا يكون مكملاً إلَّا إذا كان موافقاً ، ويُـطلق ـ أي القرآن ـ لفظ « المـرأة » على الحليلة إن لم يَكن هنـاك توافق بين الـزوجين ، وأخَصُّ هـذا التـوافق وأعلاه : التوافق في الدين ، ولما كانت امرأة فرعون مؤمنة وهو كافر قال

---

(١) انظر كتابنا «لغة القرآن لغة العرب المختارة» .

تعالى في سورة التحريم/١١ : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً للذين آمَنُوا امرأةَ فِرعَوْن﴾ ، ولما كانت امرأةُ نوح وامرأةُ لوط كافرتين قال اللّه تعالى في سورة التحريم/ ١٠ : ﴿ ضَرَبَ اللّه مثلاً للذين كفروا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوط ﴾ ولم يقل زوجةَ فرعون ولا زوجة نوح ولا زوجة لوط[١] .

ودقة الدلالة على المعنى لا يأتي من وضع الكلمة فحسب ، بل يأتي من أشياءٍ عديدة :

● منها: **بنية الكلمة**: خذ مثلاً كلمة «يُضَرّ» إنها تعني: ينزل به الضرر، سواء كان الضرر خفيفاً أم جسيماً ؛ أما كلمة « يضارّ » فهي تعني : إنزالَ الضرر الجسيم ، وقد استُفيدَ هذا المعنى من زيادَة الأَلِفِ في بنيةِ الكلمةِ ، وزيادةُ المَبْنَى في الكلمةِ يدل على زيادةٍ في المعنى ، ولذلك فإن القرآن الكريم قال في سورة البقرة/ ٢٨٢ : ﴿ ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شَهيد ﴾ يعني : لا يكلَّفَ الكاتبُ بتحمل الضرر البليغ الذي يصيبه بسبب كتابته ، ولكنه يكلف بالكتابَة إن كان الضررُ خفيفاً ، ولو قال اللّه تعالى « ولا يُضَرَّ » لجاز له الامتناع عن الكتابة لأدنى ضَرَرٍ ينالُه ولو كان برية قلم . ومثل هذا قوله تعالى في سورة البقرة/ ٢٨٢ : ﴿ واسْتَشْهِدوا شَهِيدَيْن من رِجالِكم ﴾ ، إذ الشاهدُ هو الذي يشاهد حدوثَ الشيءِ وإنْ لَمْ يعرفْ تفاصيلَ هذا الحدوث ولا أسبابَه ، وأماَ الشهيد فهو الذي يشاهدُ حدوث الشيءِ ويعرفُ حقيقته وأسبابه ، فمن شاهد زيداً يعطي عَمراً صُرَّة من المال ، ولكنه لم يعرف حقيقة هذا العطاء ، هل يَدفعُها له وفاءً لدينه ، أو أمانةً ، أو قَرْضاً . . . ولم يعرف عدد هذا المال . . . فهو شاهد ، ولكن إن عرف ذلك كلّه فهو «شهيد» وشهادة الشاهِدِ مردودَة ، ولا تقبلُ إلَّا شهادةُ الشهيد ، ولذلك استعمل القرآن في الآية

---

(١) انظر أصل الفكرة في التفسير القيم ١٣١ وما بعدها .

السابقة كلمة « شهيد » ، وهي صيغة المبالغة من اسم الفاعل ـ للدلالة على هذا المعنى المراد .

● ومنها : **جَرْسُ الكلمة** : لأن جرس الكلمة يكون له إيحاءٌ بمعنى معين تُدرِكه وتشعر بالفرق بينه وبين غيره ، ولكنك لا تستطيع التعبيرَ عنه ، خذ مثلاً على ذلك « صوت النار » فالعرب كانوا يُطلِقونَ عليه كلمة « جَلَبَة » وقريش كانت تطلق عليه كلمة « حَسيس » ولكن العربي وغير العربي يشعر أن الموسيقىٰ المنبثقة من تكرار حرفِ السين ـ وهو من حروف الصفير ـ تشبه إلى حد كبير صفير النار ، ولذلك استعمل القرآن الكريم كلمة « حسيس » في الدلالة على صوت النار فقال تعالى في سورة الأنبياء/ ١٠٢ : ﴿ لا يَسْمَعون حَسِيسَها ﴾ .

وهكذا كان القرآن ينتقي من كلمات العربية ما هو أبلغُ في الدلالة على المعنى بقطع النظر عن القبيلة التي تستخدم هذه الكلمة ، ومن هنا اتسمت كلمات القرآن بالبلاغة والدقة المتناهية في الدلالة على المعنى المراد ، وهذا هو الحجر الأساسي في الإعجاز اللغوي في القرآن .

● ومن هذه الكلمة البليغة الدالة على المعنى أدق وأبلغ دلالة صُنعت **الجملة القرآنية** وهي جملة مُوحِيَة معبِّرة بتركيبها . إقرأ بإمعان قول اللّه تعالى في سورة التوبة/ ٤١ : ﴿ انفِروا خِفَافاً وثِقَالاً وجَاهِدوا بأمْوالِكُم وأنْفُسِكم في سَبِيل اللّهِ ﴾ وكذا جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الجهادِ بالنفس وبالمال ، حيث تجد أن اللّه تعالى يقدم في هذه الآيات الجهادَ بالمالِ على الجهادِ بالنفس ، مع أن الجهادَ بالنفس أفضلُ من الجهاد بالمال بالاتفاق ، وإنما أراد اللّه تعالى بتركيب الجملة على هذا النحو من تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس التنبيه إلى أنه لولا الجهاد بالمال ما قام الجهادُ بالنفس ، صحيح أن الجملة القرآنيّة لم تصرح بهذا المعنى ، ولكن تركيبها يوحي هذا المعنى .

وفرض اللَّه تعالى الحجَّ على عباده ، وكان تركيب الجملة في التعبير عن هذا الافتراض تركيباً معجزاً وعلى غاية من الدِّقَّة والروعة ، يوحي بمعانٍ لا يمكن أن يوحي بها أي تعبير آخر تأمل قوله تعالى في سورة آل عمران/ ٩٧ : ﴿ وللَّهِ على الناسِ حِجُّ البَيْتِ من اسْتَطاع إليه سَبيلاً ﴾ لقد قدم اسمَ اللَّهِ، وادخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص فقال ﴿ وللَّه ﴾ ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف « على » فقال ﴿ على الناس ﴾ ثم أبدل منه أهل الاستطاعة فقال : ﴿ مَن استطاع ﴾ .

وفي هذا التعبير نوعان من التأكيد ، أحدهما : أن الابدال فيه تثنيةٌ للمراد وتكرير له ، والثاني : انه أوجب هذا الإيجاب في صورتين إحداهما مجْمَلَة، والأخرى مُفَصَّلة، ثم نكَّر « السبيلَ » في سياقِ الشرطِ فقال : ﴿ مَنِ استطاعَ إليه سَبيلاً ﴾ وذلك إيذان بأنه يجب الحج على أي سبيلٍ تَيَسَّرَ ، فحصل الوجوب بحصول ما يسمى « سبيلاً »[١] .

- ومن هذه الجمل البليغة الجميلة صنعت **الصورة القرآنية** ، وهي صورة جميلة أخّاذة مبهرة بجمالها الفني ، يقف المرءُ أمامها شاخصاً مبهوراً بجمال التنسيق بين عناصرها الفنية .

- تأمَّل هذه الصورة الرائعةَ الصياغةِ الفنية: صورة «رَجل يأكُلُ لحمَ أخيهِ ميتاً » كم هي قبيحةٌ هذه الصورة في عينيك ، وكم ينبذها قلبك ، ويبعدها عن تصوره عقلُك ، ويقشعرُّ منها إحساسُك ، إنها صورة الرجل الذي يغتاب إنساناً ، إنه بقدر ما يقع بشراهَةٍ متلذِّذاً بأكلِ لحم أخيه ، بقدر ما تغثو به نفوسُ المشاهدين وتقشعرُّ منه جلودُهم وهم يعلمون أنه يأكل لحم أخيه . إنها صورة فنية لا تحمل الألوانَ وتناسُقَ

(١) انظر : ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن ١٦٢ .

الخطوط فحسب ، ولكنها تحمل المشاعرَ والأحاسيسَ الإنسانيَّة في أحْقَرِ صُوَرِها ، فيمن يأكل لحم أخيه ميتاً ، وفي أسمى وأرقى صُوَرها في السامع والمشاهد ، وشحن الخطوط والألوان في الصورة بهذه المشاعر المتقابلة بين الأعلى والأدنى يعطيها قيمة جمالية وفنية لا تضاهى ، إقرأ هذه الصورة في قوله تعالى في سورة الحجرات/ ١٢ : ﴿ ولا يَغْتَبْ بَعْضُكم بَعْضاً ، أيحبُّ أحدُكم أن يأكُلَ لحمَ أخيهِ مَيْتاً فكرِهتُموه ﴾ يقول أهل البلاغة : هذا من أحسن القياس التمثيلي ، فإنه شبَّه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمِهِ ، ولما كان المغتاب يمزِّقُ عِرْضَ أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمَه في حالِ غيْبَة روحه .

ولما كان المغتابُ عاجزاً عن دفعه عن نفسه لكونه غائباً عند ذمِّه ، كان بمنزلة الميت الذي يُقَطع لحمه ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه .

ولما كان مقتضىٰ الأخوّة التراحمُ والتواصلُ والتناصرُ ، فعلّق عليها المغتاب ضِدَّ مقتضاها من الذم والعيب والطعن ، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه ، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذّبّ عنه .

ولما كان المغتاب متمتعاً بعرض أخيه متفكِّهاً بغيبته وذمِّه متحلِّياً بذلك ، شُبِّه بآكل لحم أخيه ميتاً ، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله ، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه .

يقول ابن القيم[١] : فتأمّل هذا التشبيه والتمثيل ، وحسن موقعه ، ومطابقة المعقولِ فيه المحسوسَ ، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكلِ لحمِ الأخ ميتاً ، ووصفهم بذلك في آخر الآية ، والإنكار عليهم

(١) انظر : اعلام الموقعين ١/ ١٧٠ .

في أولها أن يُحبّ أحدُهم ذلك ، كما أن هذا مكروه في طباعهم ، فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره ؟ فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه ، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم ، وهم أشد شيء نفرة عنه ، فلهذا يوجب في العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشدَّ شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه .

- وتأمل هذه الصورة الأخّاذَة الأخرى ، صورة رجل قد أخذ منه العطش مأخذاً ، وفَتَّ في عضُده الظّمأ ، قد وقف بتذَلُّلٍ وخضوع أمامَ نبعٍ من ينابيع الماء العذب الصافي ، وبسطَ يدَيْه بالدعاء متوسلاً ، طالباً منه أن يصعد الماءُ إلى فمه لِيَبُلَّ صَداه ، ويُذهبَ عنه الظمأ .

هذه الصورة يقف أمامها الإنسانُ مبهوراً بجمال ظلالها ، وجمال المعاني التي تحملها ، حتى أن المتأمل أدنى تأمل في خطوطها وألوانها ، لا يلبث من أن تجتذبه هذه الخطوط والألوان وتغرقه في بحرِ معانيها الزاخرة ، فيتفاعلُ معها ، ويستسلم لتيارها الجارف ، تعلو به أمواجه وتهبط ، وهو سعيد بتصوراته دون أن يخطر له على بالٍ أنه وسط بحرٍ لُجِّيٍ ، الهلاكُ فيه محتومٌ إن لم يتداركه اللّه تعالى بمنقذ .

إنها صورة تثير الاستهزاء ، بل والاستهزاءَ الكبير بعقل ذلك الصادي المشرف على الهلاك لأمرين اثنين :

أولهما : لتعطيله قانونَ العقلِ في توجيه الخطابِ لما لا يعقِلُ الخطاب ، وذلك حين يدعو الماءَ ، والماءُ لا يسمع دعاءً ولا نداءً .

ثانيهما : طلبه عكس طبائعِ الأشياء ، وعكسَ قانون الطبيعة المطرد ، وذلك حين يطلبُ من الماء الصعود بغير آلة ، وطبيعة الماء النزول ، بذلك جرى قانون الطبيعة فيه .

وتثير ـ هذه الصورة ـ في النفس الإشفاق . . . الإشفاق على هذا الإنسان الذي سيقضي نحبه من العطش لحماقته أو لجهله بطريق الحصول على الماء لإرواء الظمأ ، وتبلغ الصورةُ القِمَّةَ في الجمال ، وتبلغ الحماقةُ أوجَ التَّرَدِّي ، بوجود الدّالّ على أفضل طريقةٍ للحصول على الماء وإرواء الظمأ ، ووجودِ الإعراضِ من الصادي المشرف على الهلاك .

وتبلغ الصورة قِمَّة الروعةِ في التأثيرِ بامتزاج الإشفاقِ بالاستهزاء ، حتى ليصيح المرءُ باكياً ضاحكاً في آن واحد ، ويتمثل ذلك بالإشفاق على العقلِ المريضِ وهو يخاطب ما لا يعقلُ الخطاب ، ويطلب من الأشياء عكس طبائعها . إنها حقاً مضحكة مبكية .

هذه الصورة التي عرضناها هي صورة الذي يطلب من غيرِ اللّه تعالى ما لا يُطلب إلاَّ من اللّه ، ويدعو أشجاراً أو أحجاراً أو أي مظهرٍ من مظاهر الطبيعة ، وذلك قوله تعالى في سورة الرعد/ ١٤ : ﴿ والذينَ يَدعُون من دُونِه لا يَسْتَجيبون لهمْ بشيءٍ إلاَّ كَبَاسِطِ كفَّيْه إلى الماءِ ليَبْلُغَ فاهُ وما هو ببالِغِه ، وما دُعاءُ الكافِرين إلاَّ في ضَلالٍ ﴾ .

إن حال من يدعو غير اللّه ، كحال من يدعو الماءَ ، كلاهما يُخاطبُ ما لا يعقل الخطاب ، وطلب الرزق أو النصرِ أو نحوهما من الأصنام كالطلب من الماء أن يصعَدَ إلى أعلى ، كلاهما طلب عكسَ طبائع الأشياء ، فطبيعة الأصنام أن تُنْصَر وأن تُحمىٰ ، وأن تُعطىٰ ، أما أن تَنصُرَ أو تَحمِيَ أو تُعْطِيَ ، فذلك ليس من طبعها في شيء .

وإذا كان حال من يدعو الماءَ جديراً بالاستهزاء والإشفاق ، فإن حال من يدعو غيرَ اللّهِ أحقّ بالاستهزاء والإشفاق ، لأن حال الأول

مبتغاه شربةَ ماء لا تلبث أن تعودَ بـولاً ، ومبتغي الآخر عقيدة تموت بها نفوس أو تحيـى بها نفوس، وتُهدم بها حضاراتٌ أو تقومُ بها حضارات، وتَذل بها أمم أو تُعزّ بها أمم .

يا لروعة الصورة القرآنية .

● وتنضم الصـور بعضها إلى بعض لتؤلف المشهـد القرآني ، والمشهـد القـرآني فيه الصُّـوَر ، وفيه الحـركة ، وفيـه الفكرة ـ فهـو ليس بمشهدٍ عَبَثي ـ وهـو في كل ذلـك قد بلغ القمـة، وحسبـي أن أحيل القـارىء الكريم إلى ما كتبه الشهيد سيـد قطب في كتـابه « مشـاهد القيـامة في القرآن » فهو أحسن من عرضَ المشهد القرآني ، وإلى ما كتبه الزميـل حامد قنيبي في كتابه الرائع « المشاهد في القرآن » فهو أحسن من حلّل المشهد القرآني .

● ومن مجموع المشاهد ومن أشياء أخرى تتألف السورة القرآنية التي وقع التحدي بها بقوله جلّ شأنه في سورة البقرة/٢٣ : ﴿ وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ ممّا نَزَّلنا على عَبْدِنا فأتوا بسورَة من مثلِه وادْعُوا شُهَدَاءَكم من دُونِ اللَّهِ إن كُنْتُم صَادِقين ﴾ .

ولك أن تتصور ما عليه السورة القرآنية من الجلال والجمال .

فإعجاز القرآن الكريم ـ في رأيـي ـ لا يكمن في الكلمةِ القرآنيةِ المنقطعَةِ عن غيرها ، ولكنه يكمن في الكلمةِ من القرآن ، وفي الجملةِ من القرآن وفي الصورةِ من القرآن ، ولذلك وقع التحدي من اللّه تعالى بالسورة من القرآن ، ولم يقع بالآية وحدها ، لأن الآية قد تكون كلمة واحدة كآية ﴿ مُدْهَامَّتَان ﴾ أو جملة واحدة ، كآية ﴿ اللَّهُ الصَّمد ﴾ وهذه بمفردها يستطيع كل واحد معارضتها والإتيان بمثلها .

٤) **الإعجـاز العلمي** : ونعني بالإعجـاز العلمي : مجيء القـرآن بحقـائق

علمية لم يكن الناسُ يعرفون عنها شيئاً ، ولم يفكر بها أحدٌ ، ولم تخطر على بال أحد وقت نزوله ، وما أن تطورت العلوم بعدَ أكثر من ألف عام من نزول القرآن حتى ظهرت هذه الحقائق موافقةً لما جاءَ به القرآن الكريم ، وهذا يدل على صدقِ محمد فيما يدعيه : من أن هذا القرآن من عند اللّه ، وأنه رسول اللّه .

ونحن لن نفيض في الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن ، لأن الكتب والأبحاث في ذلك صارت مستفيضة ، ونكتفي بمثال واحد على هذا للبيان والإيضاح :

القانونُ الطبيعي في السوائِلِ أنها إذا تَجاوَرَتْ تَمازَجَتْ ، فإذا أتينا بإناء وقسمناه شاقولياً بحاجز متحرك يمكن رفعه ، وصببنا في أحد القسمين سائلاً لا لون له ـ وليكن هذا السائل ماء ـ وفي القسم الثاني سائلاً ملوناً ثم رفعنا الحاجزَ بينهما لوجدنا أن اللون يشيعُ في السائلِ غيرِ الملوَّن أيضاً ، هذا هو القانون الطبيعي .

ولم تجر العادة بأن يتجاور ماءان دون أن يختلطا . ولكن جاءت الآية الكريمة في سورة الرحمن ١٩ ـ ٢٠ : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ * بينهما بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيان﴾ فكان منطوقُها مخالفاً للقانون الطبيعي ، إذ كيفَ يتجاورُ ماءان ويلتقيان ولا يمتزجان ؟ ومضت الأيام وتقدمت العلوم ، واتسعت الاكتشافات وظهر أن هناك بحرانِ هما البحر الأحمر وبحر العرب يلتقيان عند نقطة معينة في مَضيق بابِ المندب ولا يمتزجان ، وكأنَّ بينهما حاجزاً مقاماً يحجز بينهما ، فلا تبغي مياهُ البحر الأحمر على مياه بحر العربِ ، ولا تبغي مياهُ بحرِ العربِ على مياه البحر الأحمر .

- ونكتفي بذكر هذين النوعين من أنواع الإعجاز هنا تاركين ذكر بقية الأنواع إلى الكتب المتخصصة بذلك .

وإذا ثبت إعجاز القرآن ، ثبت أنه ليس من صنع البشر ، وإذا لم يكن من صنع البشر فهو إذن من عند اللّٰه ، وإذا كان من عند اللّٰه فمحمد إذن رسول اللّٰه حقاً وصدقاً .

ب ـ **معجزة الإسراء والمعراج** : ونحب أن نتكلم عنها بشيء من التفصيل في النقاط التالية :

١) **أسباب حدوث هذه المعجزة** : كان وجودُ أبي طالب بجانبِ رسولِ اللّٰه سياجاً واقياً لرسول اللّٰه يمنع عنه أذى قريش ، لأن قريشاً ما كانت تريدُ أن تخسرَ أبا طالب ، ولما توفي أبو طالب انهار هذا الحاجزُ ، ونالَ رسولُ اللّٰه من الضرِّ الجسدي الشيء الكثير .

وكانت خديجةُ زوجة رسول اللّٰه البلسمَ الشافيَ لما يصيبُ رسولَ اللّٰه من الجراح النفسية التي يُلحقها به المشركون ، ولما توفيت خديجةُ فَقَدَ رسولُ اللّٰه هذا البلسم .

وخرج رسول اللّٰه إلى الطائف ـ بعدما اشتد عليه أذى قريش ، وأمعنوا في التضييق عليه ـ يطلب من زعمائها نصرةَ الحقِّ الذي يدعو إليه وحمايَتَه حتى يبلِّغ دينَ اللّٰه ، فما كان جوابهم إلَّا أن رَدّوه أقبحَ ردّ ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمد ، فتجهَّمت له قريشٌ وضمرت له الشر ، فلم يستطع رسول اللّٰه دخول مكة إلَّا بجوار رجل كافر .

لقد تجهَّمت الأحداثُ وأحدقت برسول اللّٰه ، فزادت حزْنَه وهمَّه حتى كاد أن ييأسَ من النَّصْرِ ، وحتى سُمِيَ ذلك العامُ بالنسبة لرسول اللّٰه بـ « عام الحزن » .

٢) **هدف هذه المعجزة** : يتمثل هدف هذه المعجزة بأمرين :

أولهما : التأكيد لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم أن اللَّه ناصره ، وأن شأنه سيعلو ، وأن شريعته ستمتد حتى تُظِلَّ بيتَ المقدس ، وأنه سبحانه سيسخّر له من جُنْدِ السماءِ ـ إن امتنع عليه جُنْدُ الأرض ـ ما يكفل له هذا النصر .

ثانيهما : التأكيد للناس أن محمداً رسول اللَّه حقاً وصدقاً ، كما سنرى فيما بعد .

ونستطيع أن نجزم بأن حادثة الإسراء والمعراج هي حادثة مبرمَجَة ، أعني أنها داخلة ضمن برنامج خاص أحكمه اللَّه تعالى ، وجعل له دلالاته ، وَيُكْشَفُ هذا البرنامج وهذه الدلالات لمنْ درسَ بإمعانٍ سيرَةَ الرسول عليه الصلاة والسلام .

فكيف حدثت معجزة الإسراء والمعراج ، وما هي دلالاتها وأبعادها :

٣) **معجزة الإسراء** : في ليلة من الليالي المشرقة بالأنوار الإلٓهية ، وبينما كان رسول اللَّه متوسداً فراشَه بين النائمِ واليَقْظان أتى جبريلُ عليه السلام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم بالبراق ، وهي الدابة التي كانت تُحمَلُ عليها الأنبياءِ قبله ، تضع حافِرها في منتهى طرفها ، فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه ، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم الخليل ، وموسى ، وعيسى ، في نفر من الأنبياء قد جُمِعوا له . فأمَّهُم رسولُ اللَّه فصلى بهم . ثم أتيَ بإناءين إناء فيه لبَن ، وإناء فيه خَمْر ، فأخذ رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم إناءَ اللبن فشرب منه وترك إناءَ الخمر ، فقال له جبريل عليه السلام : هُديتَ للفطرة وهُدِيَتْ أُمتك يا محمد .

يروي لنا الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري قصةَ معجزةِ

المعراج كما سمعها من رسول اللّه فيقول :

سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول : لما فرغتُ مما كان في بيت المقدس أُتيَ بالمعراج ولم أر شيئاً قطُّ أحسنَ منه ، وهو الذي يمدُّ إليه ميتكم عينيه إذا حُضِر ، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى بابٍ من أبوابِ السماءِ يقال له باب الحَفَظة ، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يَدي كلِّ ملك منهم اثنا عشر ألف ملك ـ يقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حين حدث بهذا الحديث : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

فلما دخل بي قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا محمد . قال : أَوَقَدْ بُعِثَ ؟ قال : نعم . قال : فدعا لي بخيرٍ وقاله .

لما دخلتُ السماءَ الدنيا رأيتُ بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم ، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويُسرُّ به ، ويقول : روحٌ طيِّبة خرجت من جَسَدٍ طيِّب . ويقول لبعضها إذا عرضت عليه : أفّ . ويعبس بوجهه ويقول : روحٌ خبيثةٌ خرجت من جسدٍ خبيثٍ . قلت : مَنْ هذا يا جبريل ؟قال : هذا أبوكَ آدم تُعرَض عليه أرواحُ ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وقال : روحٌ طَيِّبةٌ خرجت من جَسَدٍ طيب ! وإذا مرت به روحُ الكافر منهم أفَّف[1] منها وكرهها وساءه ذلك ، وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث !

ثم رأيت رجالاً لهم مَشافِر[2] كمشافِرِ الإبل ، في أيديهم قِطَعٌ من نار كالأفهار[3] ، يقذفونها فى أفواهِهم فتخرج من أدْبارهم . فقلت :

---

(١) أي قال : أف ، تضجراً .

(٢) المشفر : شفة البعير .

(٣) الأفهار : جمع فهر ، حجر مقدار ملء الكف .

من هؤلاء يا جبريلُ ؟ قال : هؤلاء أَكَلَةُ أموالِ اليتامى ظلماً .

ثم رأيت رجالاً لهم بطونٌ لم أرَ مثلها قط ، بسبيل آل فرعون[١] يمرون عليهم كالإبل المَهْيومَة[٢] حين يُعرضون على النار ، يطؤونهم لا يقدرون على أن يتحوَّلوا من مكانهم ذلك . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أَكَلَةُ الربا .

ثم رأيتُ رجالاً بين أيديهم لحمٌ سمين طيب ، إلى جنبه لحمٌ غثٌّ منتن[٣] ، يأكلون من الغثِّ المنتِنِ ويتركون السمِينَ الطيِّب . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أَحَلَّ اللَّهُ لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم اللَّه عليهم منهن .

ثم رأيت نساءً معلقاتٍ بثُدِيِّهِن ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قالو : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم .

ثم أصعدني إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة : عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا .

ثم أصعدني إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجلٌ صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب .

ثم أصعدني إلى السماءِ الخامسةِ ، فإذا فيها كَهْلٌ أبيضُ الرأس واللحية ، عظيم العثنون[٤] ، لم أر كهلاً أجمل منه ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا المحبب قومه هارون بن عمران .

---

(١) آل فرعون ، لهم في الآخرة أشد العذاب .
(٢) المهيومة : العطاش .
(٣) الغث : الضعيف المهزول .
(٤) العثنون : اللحية .

ثم أصعدني إلى السماءِ السادسةِ ، فإذا فيها رجلٌ آدمُ طويلٌ أقْنىٰ ، كأنه من رجال شنوءة ، فقلت له : من هذا يا جبريل ؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران .

ثم أصعدني إلى السماء السابعة ، فإذا فيها كهلٌ جالسٌ على كرسي إلى باب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة ، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

أقول : ثم دخل رسول اللّه سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ ، وإذا ورقها كآذانِ الفِيَلَة ، وإذا ثمرها كالقِلال ، وفُرِضَ فيها على رسول اللّه وعلى أمته الصلاة ، خمسين صلاة في اليوم والليلةِ بعد أن كان ركعتين في الصباح وركعتين في المساء ، كما كان يفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام .

يقول عليه الصلاة والسلام : ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جاريةً لعْساء[1] فسألتها : لمن أنتِ ؟ وقد أعجبتني ورأيتُها ، فقالت : لزيد بن حارثة .

فبشر بها رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم زيدَ بن حارثة .

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : فأقبلتُ راجعاً ، فلما مررت بموسى بن عمران ، ونعم الصاحبُ كان لكم ، سألني : كم فُرض عليك من الصلاة ؟ فقلت : خمسينَ صلاةً كل يوم ، فقال : إن الصلاةَ ثقيلةٌ ، وإن أمّتك ضعيفةٌ ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفِّف عنك وعن أمتك ، فرجعتُ فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي ،

(١) اللعساء : التي يضرب لون شفتها إلى السواد قليلاً .

فَوَضَع عني عشراً ، ثم انصرفتُ فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت ، فسألتُ ربيَ فوضع عني عشراً ، ثم انصرفت ، فمررتُ على موسى فقال مثل ذلك ، فرجعت فسألته ، فوضع عني عشراً ، ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك ، كلما رجعتُ إليه قال : فارجع فاسأل ، حتى انتهيتُ إلى أن وضع ذلك عني إلَّا خمسَ صلوات في كل يوم وليلة ، ثم رجعت إلى موسى ، فقال لي مثلَ ذلك ، فقلت : قد راجعتُ ربي وسألته حتى استحيَيْتُ منه ، فما أنا بفاعل .

« فمن أدَّاهن منكم إيماناً واحتساباً لهن ، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة » .

أقول : وقد فرض اللَّه الصلاة في السماء ليدل على أهميتها التي لا تدانيها أهمية ، شرعت في السماء لتكون مِعراجاً يرقى بالناس كلما تدنت بهم شهوات النفوس ، وليسمو بنفوسهم كل يوم خمس مرات .

٤) **الأبعاد الحقيقية للإسراء والمعراج** : وهنا ثلاث نقاط يجدر بنا الوقوف عليها لأنها لها مدلولاتها السياسية والاجتماعية والروحية البعيدة المدى ، النقطة الأولى : الإسراء إلى بيت المقدس بالذات والصلاة فيه . والنقطة الثانية : صلاة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم بالأنبياء إماماً ، واقتداء الأنبياء به . والنقطة الثالثة : اختياره صلى اللَّه عليه وسلّم كأس اللبنِ دون كأس الخمر ، وقول جبريل له : هديت للفطرة وهديت أمتك .

الأولى : الأبعاد السياسية :

● إن قيادة العالم حتى حدوث معجزة الإسراء والمعراج كانت بيد بني إسرائيل ، لأن البقيةَ الباقيةَ من الأديان السماوية ـ وهي اليهودية والنصرانية ـ هي ديانات إسرائيلية، ولكن الناسَ الذين حَملوا هذه

الديانات لم يعودوا أهلاً للقيادة ، لعبثهم بالمبادىءِ ، وبيْعِهم إياها بأبخسِ الأثمان ، حيث حرفوا الأديان ، وشوَّهوا معالِمَها ، فلا المبادىء بقيت صالحةً لقيادة العالم ، ولا حاملو المبادىء بأهلٍ لهذه القيادة ، لذلك كان لا بد من انتزاع عصا القيادة من أيديهم وتسليمها لقوم آخرين يختارهم اللَّه تعالى لحمل الأمانة .

وكانت هذه النقطة ـ أعني : نقطة الاتفاق على المبادىء الحاكمة ، ونوعية الرجال الحاكمين ـ لا بدَّ من الاتفاق عليها ، وإرساءِ قواعدِها قبل البدء بتأسيس الدولة الإسلامية التي وضع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم حجر الأساس فيها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة .

ونحن نعلم أن إحكامَ بناء الدولة لا يمكن أن يتم إلَّا بتوفر أمرين اثنين :

الأمر الأول : المبادىء والنظم الحاكمة المتمشية مع الفطرة البشرية ، لأن المحكوم بها لا يشعر بأنه مقهور بها، بل موجَّه لما فيه خيره وسعادته .

والأمر الثاني : الأيدي النظيفة الأمينة المخلصة التي تتولى تطبيق هذه النظم .

ومن هنا كان اختيارُ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم لقدَحِ اللبنِ الذي يمثِّل الفطرة ، وقول جبريل عليه السلام له هُديتَ للفطرة وهديَتْ أمتك ، إن ذلك يعني : أن النظم التي ستنزل عليك لتقيم دولَةَ الإسلام على أساسها ، وتحكم بها بين الناس أنت وأمتك من بعدك هي الفطرة التي لا يَجِدُ الناسُ حرجاً بالأخذ بها ، والفطرة قد ينحرف بها صاحبها، ولكنها تبقى دائماً لا تتبدل، وهذه النظم التي ستنزل عليك يا

محمد باقية بقاءَ الفطرةِ ، والفطرةُ باقية ما بقي الإنسان ، فهي باقية ما بقي الإنسان .

● وتقدم رسول اللّه وصلاته بالأنبياء إماماً، وإقرار الأنبياء له على ذلك واقتداؤهم به ، هو تحول سياسي جذري ، نُزعت به القيادة من أيدي بني إسرائيل ، وأسلمت إلى الأمة المحمدية وأُبطِلَ به العملُ بقيمٍ محرَّفة مهترئة ، لتحلّ محلَّها قيمٌ أخرى جديدة عادلة فطرية ، تلك هي « القيم الإسلامية » .

وهذا التحول هو تحول مشروع باركه ممثلو الأمم وعقلاؤهم المعصومون ـ وهم الأنبياء ـ ولهذا فإن كل اعتراض عليه يعتبر اعتراضاً غير مشروع ، وكل مقاومةٍ له تعتبر مقاومةً مرذولة ، تريد أن تنصُرَ الباطلَ وتطفِيء الحق ، وهي خروج على القانون ، ومقاومةٌ هذا شأنُها لا بد وأن تنال ما تستحق من القمع .

كانت هذه هي الأرضيّة الفلسفية السياسية التي أعطت الدولة الإسلامية التي أقامها رسول اللّه في المدينة المنورة الحقَّ في قمعٍ وتصفية جميع حركات المقاومة التي ظهرت في وجه الدولةِ الإسلاميةِ وفي وجه انتشار مبادئِها التي قامت من أجلها ، وأخص منها بالذكر المقاومة اليهودية في المدينة المنورة وما حولها ، فقد وضعَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم برنامجاً دقيقاً لتصفيتها ، كشفنا عنه في كتابنا « قراءة جديدة للسيرة النبوية » وبدأ بتنفيذ هذا المخطط من العام الثالث للهجرة .

● وإن الإسراءَ برسول اللّه إلى بيت المقدس خاصة وصلاته فيه إماماً بالأنبياء ، وعروجَه منه إلى السماوات يعني أن بيتَ المقدس جزءٌ من أراضي الدولة الإسلامية المرتقبة ، لأن صاحبَ البيت هو صاحبُ الحقّ

بالإمامة في الصلاة ، فتقدُّمُ رسولِ اللّه إماماً بالصلاة في بيتِ المقدس دليلٌ على أنه هو صاحب البيت دون غيره ، وان اقتداء الأنبياءِ به في الصلاة يدل على إقرارهم بأن بيتَ المقدس بقعةٌ من جملة البقاع الإسلامية التي ترفرف عليها أعلام الشريعة الإسلامية .

الثانية : الأبعاد الاجتماعية :

إنِ صلاةَ رسولِ اللّه بالأنبياءِ على اختلافِ قومياتِهم وألوانِهم تعني أن الدولة الإسلامية تُظِلُّ بمبادئِها جميعَ المؤمنين ، فلا تفرِّق بين أسود وأبيض ، ولا بين عربيٍّ وأعجمي . . . تذوب القومياتُ كلُّها في بوتقة الإيمان ثم تسكب في قوالب الامتثال لشريعة اللّه عز وجل .

وإن فرصة التفوُّق والتسامي متاحةٌ في هذه الدولة للجميع على قدر متساوٍ ، وإن أبوابَ الدولة مفتحةٌ للارتقاء بمن يظهرون التفوّق ، كإتاحة الفرصة أمام جميعِ المصلّين على قدرِ متساوٍ للتسامي ، وإن أبوابَ السماء مفتحة لاستقبال أعمال المتسامين .

وبذلك تكون معجزة الإسراء قد وضعت أساساً جديداً لبناء المجتمع الجديد المزمع إنشاؤه في ظلِّ مبادىء الإسلام ودولته .

الثالثة : الأبعاد الروحية :

لا بد لنا من أن نذكرَ أن معجزةَ الإسراءِ والمعراج قد حدثت على أعقابِ سلسلةٍ من المآسي حلَّت برسولِ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، منها موتُ عمه أبي طالب الذي كان يذب عنه أذى قريش ، وموتُ زوجه خديجة التي كانت تزيد فيه روح التصميم قوةً ومضاء ، واشتدادُ أذى قريشٍ ومن معها عليه ، حتى سمي ذلك العام بـ « عام الحزن » فأراد اللّه تعالى أن يُسَلِّيَ رسولَه فكانت هذه الرحلة المباركة التي صلى فيها رسولُ اللّه بالأنبياء إماماً في بيت المقدس ، وكأن اللّهَ تعالى يقول لنبيه وحبيبه : يا محمد إن المستقبلَ لك ولأمتك بعدك ، حتى أن حدود دولتك

لتتجاوز بيتَ المقدس ، وحتى أن ميراثَ الأديان السابقة ليكون في كنفها . وكأن رسُلَ اللَّه يقولون له وهم يصلّون خلفه : إمضِ إلى ربك ونحن معك ، وكأن ملائكة اللَّه في السماء تقول له وهو يعرج فيها : إن ضاقت بك الأرضُ فالسماءُ قد فتحت صدرها إليك ، ولئن آذاكَ جَهَلَةُ وطغاةُ أهل الأرض فأهلُ السماء يقفون في استقبالك .

كل هذا جعل روحاً جديدة تسري في رسول اللَّه وفي المؤمنين ، فما أن عاد رسولُ اللَّه من رحلته المباركة تلك حتى جعلَ يعرض الإسلام على القبائلِ الوافدة إلى الحج بكل همة ونشاط .

٥) **الامتحان** : وما أن عاد رسولُ اللَّه من رحلتِهِ المباركة إلى بيته في مكة حتى أوى إلى فراشه ثم لم يلبث أن غدا على قريش فأخبرهم الخبر فقالِ أكثر الناس : هذا واللَّه الكذبُ البيِّن ! واللَّه إن القافلة لتسيرُ شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة !

وارتد كثيرُ من ضَعَفَة الإيمان ممن كان قد أسلم ، وآمنَ بذلك وصدَّق كثير .

وكان ممن آمنَ وصدق أبو بكرٍ الصدّيق رضي اللَّه عنه ، فقد ذهب الناس إليه فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجعَ إلى مكة ! فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ؟ فقالوا : بلىٰ . ها هو ذاك في المسجد يحدِّثُ به الناسَ . فقال أبو بكر : واللَّه لئن كان قاله لقد صَدَقَ ، فما يُعْجِبُكم من ذلك ! فواللَّه إنه ليخبرني أن الخبرَ ليأتيه من اللَّهِ من السماءِ إلى الأرضِ في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ! فهذا أبعد مما تَعْجَبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم فقال : يا

نبيَّ اللّه ، أحدَّثْتَ هؤلاء القوم أنـك جئت بيتَ المقدس هـذه الليلة ؟ قـال : نعم . قال: يـا نبي اللّه فصِفْـه لي ، فـإني قـد جئتُـه . فقـال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : فرُفِعَ لي حتى نظرتُ إليه ، فجعـل رسـولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يصفـه لأبي بكـر ويقـول أبـو بكـر : صدقت ، أشهد أنك رسولُ اللّه . حتى إذا انتهى قال رسول اللّه صلى اللّه عليـه وسلّم لأبي بكر : وأنت يـا أبا بكـر الصـدِّيق فيـومئـذ سمـاه « الصدّيق » .

٦) **ضرورة الإسراء والمعراج** : وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة أيضاً ، لأنه لا يجوز لنا أن نجاوِزَ هذا الحدثَ الهام دون أن نتأمَلَه ونستجليَ أبعادَه .

إن حادثة الإسراء والمعراج التي امتحنَ اللّه سبحـانه بهـا الناس فآمن بها من آمن وكذَّب من كذَّب كانت قبل الهجرة بسنة ، يعني أنهـا كانت قبل الشروع في إقامة الدولة الإسلامية بسنة ، وهنا تبدو لنا أهميةُ هذا التوقيت .

إنها أحدثت في مكة هزةً عنيفةً ، ونشاطاً غير عادي ، فالنقـاشُ فيها يدور بين كافة الفئات ، ويستتبع هذا النقاشُ نقاشاً حولَ المبادىء التي نزلت على محمد صلى اللّه عليه وسلّم ونتيجة لهذا النقاش وذاك يدخل في الإسـلام أُناسٌ ويخـرج منه أنـاس ـ كما ذكـرنا ـ وكـان هذا ضرورياً قبل إعلان قيـامِ الدولـةِ الإسلاميـة في المدينـة المنورة ، بـل نقول : إن كشفَ العناصرِ كان لا بُـدَّ منه ليعلم محمـدٌ صلى اللّه عليه وسلّم عندما يُعلن إقامةَ الدولةِ الإسلامية مَنْ مِنَ العناصرِ يمكن الاعتماد عليه في بناء هذه الدولةِ ، ومَنْ منهم يجبُ استبعاده ، من منهم يصلح أن توكل إليه في بناء دولة الإسلام مهمة من الدرجة الأولى ، ومن منهم يصلح أن توكل إليه مهمة من الدرجة الثانية .

ولما أذن اللّه لرسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة وأمره بإقامة دولة

الإسلام فيها كان سهلاً على رسول اللَّه وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ولذلك آتت الدولةُ أُكُلَهَا في أقصر زمن عرفه التاريخ لدولة .

جـ - **الإخبار بالمغيبات** : ومن المعجزات التي أجراها اللَّه تعالى على يدي نبيه محمدٍ تأييداً لنبوته وبياناً له : إخبارُهُ صلوات اللَّه وسلامه عليه بالمغيبات ، ومن ذلك :

١) **إخباره بزوالِ ملك كسرى وقيصر** : روى جابر بن سَمُرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم : « إذا هَلَك كسرىٰ فلا كسرى بعده ، وإذا هَلَكَ قيصرُ فلا قَيْصَرَ بعده ، والذي نفسي بيده لَتُنْفَقَن كنوزُهما في سبيل اللَّه »[1] وهكذا كان .

٢) **إخباره باستتباب الأمنِ ومحوِ الفقر** : روى عَدِيّ بن حاتم قال : بينا أنا عند رسول اللَّه إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخرُ فشكا إليه قطع السبيل ، فقال: «يا عديُّ ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد أُنبِئتُ عنها ، قال : إن طالت بكَ حياةٌ لترينَ الظعينةَ ترحلُ من الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبة لا تخافُ أحداً إلَّا اللَّه تعالى ، - قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعّارِ طيءٍ الذين سعَّروا البلاد ؟ - ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياةٌ لترَيَنّ الرجلَ يُخرِج - أي : زكاةَ مَالِه - مِلْءِ كَفِّه من ذهبٍ أو فضة يطلب من يقبلُه منه فلا يجد أحداً يقبلُه منه »[2] وقد استتب الأمن فعلاً ، ومُحِيَ الفقر من اليمن في زمن عمر بن الخطاب كما بيَّنّا ذلك في كتابنا : موسوعة فقه عمر بن الخطاب ،

---

(١) البخاري في الأنبياء باب علامات النبوة ، ومسلم في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى . . . .

(٢) البخاري في الأنبياء باب علامات النبوة .

مادة : زكاة/ ٧ . ثم محيَ من شمالِ أفريقية في عهد عمر بن عبد العزيز حتى أصبحتَ لا تجدُ فيهما من يأخذ الزكاة .

٣) **إخباره بفتح مصر** : روى أبو ذرّ الغفاري قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : « إنكم ستفْتَحونَ مصر ، وهي أرضٌ يسمى فيها القيراطُ ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمةً ورَحِماً »[1] وكان ما قال.

٤) **إخباره بإهلاكِ المسلمين بأيدٍ مسلمة** : روى ثَوْبَان رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم قال : « إن اللّه زَوىٰ - أي : جَمَعَ - ليَ الأرضَ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها ، وإن أمتي سيبلُغ ملكُها ما زُويَ لي منها ، وأعطيتُ الكنـزين الأحمرَ والأبيضَ ، وسألتُ ربي لأمتي أن لا يُهلِكها بسنةٍ عامَّة ، وأن لا يُسَلِّط عليها عدواً من سِوىٰ أنفسِهِم فيستبيح بيضتَهم ، وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدّ ، وإني أعطيتُك لأمَّتِكَ أن لا أهلِكَهم بسنةٍ عامَّة ، ولا أُسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيحُ بيضتَهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارِها، حتى يكونَ بعضُهم يُهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً »[2] ، وهذا ما نراه في عصرنا هذا ، فإن الذين يُقتَلون من المسلمين بأيدي المسلمين أكثر من الذين يقتلون منهم بأيدي غيرِ المسلمين بآلاف المرات .

د - **زيادة الطعام والشراب** : ومن المعجزات التي أجراها اللّه على يدي نبيه تأييداً لنبوتِهِ وتصديقاً لها : زيادة الطعام والشراب ، وقد كثرت روايات زيادة الطعام والشراب بين يديه حتى بَلَغت في جملتها حَدَّ التواتر المعنوي نذكر من ذلك :

١) **ماءُ صاحبة المزادتين** : كان الناس في سفرٍ مع رسول اللّه فأعوَزَهم

(١) مسلم في فضائل الصحابة باب وصية النبي بأهل مصر .

(٢) مسلم في الفتن باب هلاك هذه الأمة ، والترمذي في الفتن باب سؤال النبي ثلاثاً لأمته .

الماءُ ، فاشتكوا إليه العطش، فدعى اثنين من أصحابه وقال لهما : ابغَيا الماءَ ، فانطلقا ، فلقيا امرأةً بين مزادتين من ماء على بعير لها ، فأخذاها مع مائها لرسول اللّه ، فدعا الرسولُ بإناء فأفرغ فيه من أفـواه المزادتين وأوكـأ أفواهَهمـا ، وأطلَقَ العَـزَالي - وهي الأفـواه السفلى للمـزادتين - ونودي في الناس : اسقوا واستَقوا ، فسقىٰ من شاء واستقى من شاء ، وكان آخر ذلك : أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناءً من مـاء ، فقال : اذهب فافرِغْه عليك ، وهي قـائمةٌ تنـظرُ ما يُفعـل بمائهـا ، وقد اكتفى الناسُ من الماء وانه ليخيل للناظرين أن المزادتين أشَدُّ مِلْأَةً منها قبل أن يأخذوا منها ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلّم : اجمعوا لها ، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جَمَعوا لها طعامـاً ، فجعلوه في ثوبٍ ، وحملوها على بعيرها ، ووضعوا الثوبَ بين يديها ، وقال لها : تعلمين ما رَزِئنا من مائك شيئاً ، ولكن اللّهَ هو الذي أسقانا[١] .

٢) **ماء المَيْضَأة** : كانت ميضأةٌ مع أبي قتادة ، فتوضأ منها ، وبقيَ من الماء فيها شيءٌ ، فقال رسول اللّه لأبي قتادة : احفظ علينا مَيْضَأَتك فسيكون لها نَبأٌ ، ولما أعوزَ الناسُ الماءَ قـالوا : يـا رسول اللّه هلكنـا عطشـاً ، قال : لا هُلْك عليكم ، أطلقوا لي غُمَري ، ودعا بـالمَيْضَأَةَ ، فجعـلَ رسولُ اللّه يُصبُ ، وأبو قتادة يَسقيهم حتى لم يبق غيرُ رسولِ اللّه وأبي قتادة ، ثم صبَّ رسولُ اللّه فقال : اشرب ، فقال أبو قتادة : لا أشربُ حتى تشربَ يا رسول اللّه ، قال : « إن ساقي القومِ آخرُهم » فشرب أبو قتادة وشرب رسولُ اللّه [٢] .

٣) **ماء الركوةِ يوم الحديبية** : روى جابرُ بن عبد اللّه قال : عطش الناسُ يومَ

---

(١) انظر الخبر في البخاري في التيمم باب الصعيد الطيب ، ومسلم في المساجد باب قضاء الصلاة الفائتة ، وقد أوردته هنا مختصراً منهما .

(٢) مسلم في المساجد باب قضاء الصلاة الفائتة، وقد أوردته هنا مختصراً .

الحديبية ، ورسول اللّه بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، ثم أقبل الناس نحوه ، فقال رسول اللّه : ما لكم ؟ قالوا : يا رسول اللّه ، ليس عندنا ماءٌ نتوضأُ به ولا نشرب ، إلاَّ ما في ركوتك ، فوضع النبيُّ يَدَه في الركوة ، فجعل الماءُ يفورُ من بين أصابعه كأمثالِ العيون ، قال : فشربْنا وتوضأنا ، قال : فقلت لجابر : كم كنتم يومَئِذٍ ؟ قال : لو كنا مئةَ ألفٍ لكفانا ، كنا خمس عشرة مئة[1] .

وورد عنه في تكثيرِ الماء غير هذا ، ونكتفي بما ذكرناه . أما تكثير الطعام فنذكر منه :

٤) **الطعام في إحدى الغزوات** : روى سلمةُ بنُ الأكْوَع قال : خرجنا مع رسولِ اللّه في غزوةٍ ، فأصابنا جَهْد حتى هممنا أن ننحر بعضَ ظَهْرِنا ـ أي إبلنا ـ فأمر نبيُّ اللّه فجمعنا تزاودنا ، فبسطنا له نِطَعاً ، فاجتمع زادُ القومِ على النِّطَع ، قال : فتطاولتُ لأحْزِرَه كم هو؟ قال : حزرته ، فإذا هو كربْضَة العَنْزِ ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ، ثم حشونا جُرُبَنا ، فقال نبي اللّه : فهل من وَضوءٍ؟ قال : فجاء رجلٌ بأداوَة فيها نُطفة ـ أي قليل من الماء ـ فأفرغَها في قَدَحٍ ، فتوضأنا كلُّنا نُدَغفِقُه دَغْفَقَةً ـ أي نصبه صباً غَدَقاً ـ أربع عشرة مئة ، قال : ثم جاء بَعْدُ ثمانيةٌ فقالوا : هل من طَهور ؟ فقال رسول اللّه : فرغ الوضوء[2] .

فانظر كيف كفى الطعامُ القليلُ والماءُ القليل ألْفاً وأربعمئة شخص طعاماً وتزوداً .

٥) **طعام أبي طلحة** : قال أنسُ بنُ مالِك : بعثني أبو طلحة إلى رسولِ اللّه

---

(١) البخاري في الأنبياء باب علامات النبوة ، ومسلم في الفضائل باب معجزات النبي .

(٢) البخاري في الشركة باب الشركة في الطعام ، ومسلم في اللقطة باب خلط الأزواد إذا قلّت .

لأدعوه ، وقد جعل طعاماً ـ وفي رواية : مدّاً من شعير ـ فأقبلتُ ورسول اللّه مع الناس ، فنظر إليّ ، فاستحييت ، فقلت : أجب أبا طلحة ، فقال للناس : قوموا ، فقال أبو طلحة : يا رسول اللّه إنما صنعت لك شيئاً ـ أي لا يكفي جميعَ من معك ـ فمسّها رسول اللّه ودعا فيها بالبركة ثم قال : أدْخِلْ نفراً من أصحابي عشرة ، وقال : كلوا ، وأخرج لهم شيئاً من بين أصابعه ، فأكلوا حتى شَبِعوا ، فخرجوا ، فقال : أدْخِلْ عشرة، فأكلوا حتى خرجوا ، فما زال يُدخِلُ عَشرةً ويُخرِجُ عشرةً حتى لم يبق منهم أحد إلَّا دخل فأكل حتى شبع ، ثم هيأها فإذا هي مثلُها حينَ أَكَلُوا منها[1] .

٦) تمر أبي هريرة : قال أبو هريرة : أتيت رسولَ اللّه يوماً بتمرات ، فقلت : يا رسول اللّه ادعُ فيهن بالبركة ، فضمَّهن ، ثم دعا لي فيهن بالبركة ، ثم قال : خذهُن فاجعَلْهن في مِزوَدِك هذا ، فكلما أردت أن تأخذ منه شيئاً أدخِلْ يَدَك فيه ، خذ ولا تَنْثُرْه نثراً قال : ففعلتُ ، فلقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من وَسْقٍ في سبيل اللّه ، فكنا نأكلُ منه ونُطْعِم ، وكان لا يفارِقُ حَقْوي ، حتى كان يوم قتل عثمان انقطع من حَقْوي ، فسقط ، فحزنت عليه حزناً شديداً[2] .

هذا قليل من كثير مما صح من إكرامه اللّه تعالى لرسوله بتكثير الماء والطعام تأييداً لنبوته عليه الصلاة والسلام .

هـ ـ **تكليم وانقياد الحيوان له** : ونذكر من ذلك :

١) قال عبد اللّه بن جعفر : دخل رسولُ اللّه يوماً حائطاً من حيطانِ الأنصار ، وإذا جملٌ ، فلما رأى رسولَ اللّه حنَّ وذرفَت عيناه ، فمسحَ

---

(١) البخاري في الأنبياء باب علامات النبوة ، ومسلم في الأشربة باب جواز استتباعه غيره . . .

(٢) الترمذي في المناقب باب مناقب أبي هريرة .

رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم سـراتَه وذفـراه ـ خلف أذنه ـ فسكن ، فقال : من صاحبُ الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصـار فقال : هـو لي يا رسول اللَّه ، قال : ألا تتّقي اللَّهَ في هـذه البهيمة التي مَلَّكـك اللَّهُ عز وجل ، إنه شكى لي أنك تُجيعُهُ وتُدْئِبُه(١) ـ أي : تتعبه ـ .

٢) وقال جابر بن عبد اللَّه : أقبلنا مع النبي صلى اللَّه عليه وسلّم في سفر ، حتى إذا دفعنـا إلى حائط من حيطان الأنصار وإذا فيـه جَمَلٌ لا يـدخلُ الحائطَ أحدٌ إلَّا شـدَّ عليه ، فـذكروا ذلـك للنبي صلى اللَّه عليه وسلّم فجاء حتى أتى الحائطَ ، فَـرَغَا البعيـرُ وجاء واضعـاً شِفْره إلى الأرضِ حتى بَرَكَ بين يديه ، فقال رسول اللَّه : هاتوا خِطاماً ، فخطَمَه ، ودفعه إلى صاحبه ، ثم التفت إلى النـاس فقال : إنـه ليس شيء بين السماء والأرض إلَّا يعلَمُ أني رسولُ اللَّه إلَّا عاصي الجنِّ والإِنْس(٢) .

و ـ **تكليم وانقياد الجماد له** : ونذكر من ذلك :

١) لقد تقدم معنا حديث جابر بن سمرة قال : قال رسول اللَّه : إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّم عليّ قبل أن أبعث ، إني لاعرفه الآن(٣) .

٢) وقال جابر بن عبد اللَّه : ذهب رسول اللَّه يقضي حاجته ، فاتبعته بأداوَةٍ من ماءٍ ، فنظر رسول اللَّه فلم ير شيئاً يستَتِرُ به ، وإذا شجرتان بشاطىء الوادي ، فانطلق رسولُ اللَّه إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصـانِها فقال: انقادي عليّ بإذن اللَّه ، فانقادَتْ معه كالبعيرِ المخْشُـوشِ الذي يصانع قـائدَه ، حتى أتى الشجـرةَ الأخرى فـأخذ بغصنٍ من أغصـانها فقال : انقادي عليّ بإذن اللَّه ، فانقـادت معه كـذلك ، حتى إذا كـان بالمَنْصَف مما بينهما لأَمَ بينهما ـ يعني جمعهما ـ فقال : التَئِما عليَّ بإذن

(١) أبو داود في الجهاد ، وأحمد ١/ ٢٠٤ .

(٢) أحمد في المسند ٣/٣١٠ والدارمي في المقدمة/٤ .

(٣) مسلم في فضائل النبي والترمذي في المناقب .

اللّه ، فالْتأَمَتا ، قال جابر : فخرجت أحضر ـ أي : أعدو ـ مخافة أن يُحِسَّ رسولُ اللّه بقربي فيبتعد ، فجلستُ أُحدّث نفسي ، فخانت مني لفتةٌ فإذا أنا برسولِ اللّه مقبلاً ، وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساقٍ[1] .

٣) وكان رسول اللّه بمنى ، فسأله أهلَ مكة آيةً تؤيد دعواه النبوة ، فأراهم القمرَ ، انشقاق القمر فلقتين ، فكانت فلقةٌ وراءَ الجَبَل ، وفلقَةٌ دونَه حتى رأوا حراءِ بَينهما ، وقال : اشهدوا[2] . وذلك قوله تعالى في أول سورة الانشقاق : ﴿ اقتربَتِ السّاعَةُ وانشقَّ القَمر ﴾ .

ز ـ **حفظ اللّه له** : إن الحوادث التي برز فيها حفظُ اللّه تعالى لرسوله ممن أرادَ به شراً كثيرة نذكر منها ما يلي :

١) قال أبو جهل لجماعة من المشركين : هل يعفِّر محمدٌ وجهه ـ أي يسجد ـ بين أظهركم ؟ قيل : نعم ، قال : واللات والعزى لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأن على رقبته ، قال : فأتى رسولَ اللّه وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، فما فجأهم منه إلاَّ وهو ينكص على عَقِبَيْه ويتقي بيديه ، فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نارٍ وهَوْلاً وأجْنِحةً ، فقال رسول اللّه : « لو دَنا منّي لاختطفَتْه الملائكةُ عُضْواً عُضْواً »[3] وأنزل اللّه تعالى من سورة اقرأ ٦ ـ ١٩ : ﴿كلاّ إنّ الإنسانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رآه اسْتغنى * إنَّ إلى ربِّك الرُّجْعَىٰ * أرأيتَ الذي ينهى * عبداً إذا صلى * أرأيت إن كَانَ على الهدىٰ * أو أمَرَ بالتقوى * أرأيتَ إن كـذَّب وتولى * ألم يَعْلَمْ بأن اللّهَ يرى * كلا لئنْ لم يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بالناصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كاذِبَةٍ خَاطِئَة * فَلْيَدعُ نَادِيَه * سَنَدْعُ الزَّبانية * كَلاّ لا

(١) مسلم انظر مختصر مسلم للمنذري برقم ١٥٣٧ .

(٢) انظر الأحاديث في ذلك في تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦١ ومنها أحاديث متفق عليها .

(٣) مسلم في صفات المنافقين .

تُطِعْه واسْجُدْ واقْتَرِب ﴾ .

٢) وقد تقدمت قصة غَوْرَث الذي وقفَ فوقَ رأسِ رسول اللّه والسيفُ في يده ـ ورسول اللّه مضطجع ـ وقال : من يمنعك مني يا محمد ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : اللّه ، فسقط السيف من يد غورث . . .

٣) وقال شيبة بن عثمان : لما غزا النبيُّ حُنيناً ذكرت أبي وعمي اللذين قَتَلَهما عليٌّ وحمزةُ ، فقلت : اليوم أُدرِكُ ثأْري من محمد ، فجئت من خلفه ، فدنوت منه حتى لم يبق إلّا أن أسوّره بالسيف سورة رُفع إليَّ شواظٌ من نار كأنه البرق ، فنكصت القهقرى ، فالتفتُّ إلى النبي فقال : تعالَ يا شيبة ، فوضع يده على صدري واستخرجَ الشيطانَ من قلبي ، فرفعتُ إليه بصري وهو أحبُّ إليّ من سمعي وبصري (١) .

٤) وقام رجل من بني مخزوم إلى رسول اللّه وهو ساجد ، وفي يد الرجُل فِهْرٌ ـ حجر ملء الكف ـ يريد أن يضرب به الرسول ، فيبست يدُه ، فرجع إلى أصحابه ، فقالوا : جَبِنْتَ عن الرجل ؟ قال : لا ، ولكن هذه يدي لا أستطيعُ أن أحرِّكها ، فتعجبوا من ذلك ، فنظروا فوجدوا أصابعه قد يبست على الفِهْر ، فعالجوا أصابعَه حتىَ خلَّصوها ، وقالوا : هذا شيء يُراد (٢) .

٥) ولما خرج سراقة بن مالك يبحث عن رسول اللّه ليأتي به قريشاً ، ووجد رسول اللّه وهو في طريق هجرته إلى المدينة حاول اقتحامه ، فكبا به فرسُه وسقط على الأرض ، ثم عاد إلى اقتحامه ثانية وثالثة وفي كل مرة يكبو به الفرس ، وهو الفرسُ المجرَّبُ، وفارسه الفارس الهمام ، فعلم

---

(١) الوفاء ٣٢٨ .

(٢) الوفاء ٣٣٨ .

سُراقة أن اللّه مانع رسولَه ، فترك رسول اللّه بعد أن تلقى منه وعداً أرضاه ، وعاد أدراجه إلى مكة[١] .

٦) ولما اختبأ رسول اللّه ومعه أبو بكر في غار ثور في طريق هجرتهما إلى المدينة المنورة ووقفت إحدى دوريات قريش على فم الغار تبحث عنهما ، صرف اللّه أنظارَ هذه الدورية عن رسول اللّه ، وحماه من شرِّها الذي تريده به ، وفي ذلك أنزل اللّه تعالى من سورة التوبة/ ٤٠ : ﴿ إلَّا تَنْصُرُوه فقد نَصَرَه اللّهُ إذ أَخْرَجَه الذين كَفَروا ثانيَ اثنين إذْ هُما في الغارِ، إذ يَقولُ لِصاحبه لا تحزَنْ إنَّ اللّه مَعَنا، فأَنْزَلَ اللّهُ سكينته عليه وأيَّدَه بجُنودٍ لم تَرَوْها . . . ﴾[٢].

٧) ولما دست اليهودية السُّمَّ لرسول اللّه في ذراع الشاةِ، تريد قتلَه ، فأعلم اللّه رسولَه بما في ذراع الشاة من السم ، فتركه رسول اللّه ولم يأكله[٣] .

٨) ولما تآمر عليه بنو النضير وقرروا إلقاء حجر عليه ليقتلوه ـ عندما خرج إليهم نفر من أصحابه يطالبهم بالمشاركة في ديةِ قتيلين ، تنفيذاً للاتفاق بينه وبينهم ـ وصعد عمرو بن جحاش بن كعب السطْحَ لينفِّذَ تلك المؤامرة الدنيئة ، فأتى الخبرُ من السماء رسولَ اللّه بما أراد القومُ به من السوءِ ، فقام عليه الصلاة والسلام ورجع إلى المدينة المنورة[٤] .

ح ـ **استجابة دعائِه** : إن ما أثر من استجابة دعائه عليه الصلاة والسلام يبلغ في جملته مبلغ التواتر ، نذكر من ذلك :

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٣٢ ودلائل أبي نُعَيم برقم ٢٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٨ ، ودلائل أبي نعيم برقم ٢٣١ .

(٣) دلائل أبي نعيم برقم ١٤٧ و ١٤٨ .

(٤) تهذيب سيرة ابن هشام ١٧٢ ، ودلائل أبي نعيم برقم ٤٢٥ وما بعده .

١) **دعاؤهُ لأنس بن مالك** : فقد قالت أم سُليم : يا رسولَ اللَّه ، خادمُك أنس ادع اللَّه له ، فقال : اللهم أكثر مالَه وولدَه وبارك له فيما أعطيتَه ، فاستجاب اللَّهُ دعاءَه، فكان أنس أكثرَ الأنصارِ مالاً ، ورزَقَهُ الولدَ الكثير حتى إنه دَفَن بيده من ولده الذين هم من صلبه مائةَ ولد[1] .

٢) **ودعا اللَّه تعالى يوم بدر** ، عندما رأى قلة أصحابه وكثرةَ عدوِّه ، فقال اللهم أَنجِزْ لي ما وعدتني ، اللَّهم آتني ما وعدتَني ، اللهم إن تُهلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبَدْ في الأرض ، فاستجاب اللَّه دعاءه ، ونصره وجندَه ، وأنزل في سورة الأنفال/ ٩ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ ربَّكم فاستجابَ لكم أني مُمِدُّكم بألْفٍ مِنَ الملائكةِ مُرْدِفِين ﴾[2] .

٣) **وكان يخطب الجمعة** ، فقام أعرابيٌّ فقال : يا رسولَ اللَّه هلَك المالُ ، وجاعَ العيالُ ، فادع اللَّه لنا ، فرفع يديه ، وما في السماء قَزَعة ، يقول أنس : فوالذي نفسي بيده ما وضعهما حتى ثار السحابُ أمثالَ الجبال ، ثم لم ينزل عن منْبَره حتى رأيتُ السحاب يتحادَرُ على لحيته ، فمُطِرنا يومَنا ذلك ، ومن الغد ، ومن بعدِ الغد ، والذي يليه ، حتى الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابي فقال : يا رسول اللَّه: تهدَّم البناءُ ، وغرِقَ المالُ ، فادعُ اللَّه لنا ، فرفع يدَيه فقال : اللهم حوالَيْنا ولا علينا ، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلَّا انفرجت ، وصارت المدينة مثل الجَوْبَة، وسال وادي قناة شهراً ، ولم يأت أحدٌ من ناحيةٍ إلَّا حدَّث بالجود[3] .

٤) **ودعا لعبد اللَّه بن عباس فقال** : اللهم فقهه في الدين وعلمه

---

(١) البخاري في الدعوات باب دعوة النبي لخادمه ، ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أنس.

(٢) مسلم في الجهاد باب الإمداد بالملائكة .

(٣) البخاري في الاستسقاء .

التأويل[١] ، فاستجاب اللّه دعاءه ، فكان حبرَ الأمة ، وترجمانَ القرآن .

٥) **ودعا لجماعة من الصحابة** بالبركة منهم ، المقداد ، فكانت عنده غرائر من المال ، وعروة بن أبي الجعد ، فكان يذهب إلى السوق فلا يرجع حتى يربحَ أربعين ألفاً ، وعبد الرحمن بن عوف فكان يقول عبد الرحمن : فلو رفعت حجراً لرجوتُ أن أصيبَ تحته ذهباً ، ولما مات عبد الرحمن بن عوف قطعَ الذهبُ في تركته بالفؤوس ، وكانت حصة كل زوجة من زوجاته الأربع : مائة ألف[٢] .

٦) ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً ساجداً وهو يقولُ لشعره هكذا ، يكفه عن التراب ، فقال : اللهم قبِّح شعره ، قال : فسقط[٣] شعره .

٥ ـ ما خَصَّ اللّه به محمداً صلى اللّه عليه وسلم[٤] :

هناك أمور خص اللّه تعالى بها رسوله في الآخرة، حفظاً لذكره وإعلاءً لشأنه ، وأمور خصه اللّه تعالى بها في الدنيا ، وسنتحدث عن ذلك فيما يلي :

أ ـ **ما خصه اللّه به في الآخرة** : لقد خصَّ اللّه رسولَهُ في الآخرة بخصائص منها :

١) **كونه أول من يُبعث** : عندما يحين أوانُ بعثِ الناسِ من قبورِهِم يومَ القيامة يكون محمد صلوات اللّه وسلامه عليه أولَ من يُبعث ، فقد روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « أنا

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢٦٤ وانظر البخاري ومسلم في فضائل ابن عباس .

(٢) الشفاء ١/٢٧٢ و٢٧٤ وانظر في ذلك الفصل الرابع والعشرون من دلائل النبوة لأبي نعيم .

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم برقم ٣٧٥ بتحقيقنا .

(٤) انظر : كتاب : عظيم قدرة صلى اللّه عليه وسلم ورفعة مكانته عند ربه ، وبحثنا « الاختصاص » الذي كتبناه للموسوعة الفقهية في الكويت .

سيدُ ولَدِ آدَمَ يومَ القيامة ، وأولُ من ينشقُّ عنه القَبْر »[١] .

٢) **إعطاؤه الشفاعة العامة** : لقد أعطى اللّٰه تعالى رسولَه محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم شفاعتين يوم القيامة **الأولى: هي شفاعة عامة** لجميع الخلائق ، وذلك حين يقفُ الناسُ في ساحة المحشرِ ، ويشتد عليهم الأمرُ ، ويطولُ بهم الانتظار ، ويقصد الخلائقُ الأنبياءَ ليشفعوا لهم عندَ اللّٰه ، ليتفضل سبحانه بفصلِ الحساب ، فيعْتَذِرُ الجميعُ ، فيقصدون محمداً ، فيسجدُ للّٰه ويستأذنهُ بالشفاعة فيأذَنُ له ، فيشفع لهم عند اللّٰه ، ويتفضل اللّٰهُ سبحانه بفصلِ الحساب بين الناس[٢] .

الثانية : الشفاعة الخاصة : وهي على أنواع :

- شفاعته بإدخال قومٍ من المسلمين الجَنةَ بغير حساب : حيث يخر رسول اللّٰه ساجداً ويقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب[٣] .

- شفاعته لأهل الكبائر : قال أبو هريرة ، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلةٌ إن شاء اللّٰه من مات من أمتي لا يشرك باللّٰه شيئاً »[٤] .

وقال صلوات اللّٰه وسلامه عليه : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[٥] .

---

(١) مسلم في الفضائل ، باب فضل نبينا . . .

(٢) انظر : البخاري في الأنبياء باب : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً ﴾ . . . ومسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة .

(٣) المراجع السابقة .

(٤) البخاري في الدعوات باب لكل نبي دعوة ، ومسلم في الإيمان باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته .

(٥) الترمذي في صفة القيامة باب ما جاء في الشفاعة ، وأبو داود في السنة باب الشفاعة .

● شفاعته لإخراج عموم أمته من النار : حيث يخر رسول اللّه ساجداً للّه فيقال له : (يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك ، وسَلْ تُعط ، واشفع تُشَفّع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : انطلِق فأَخرِجْ منها من كان في قلبه مثقالُ شعيرة من إيمان ، قال : فأَنطَلِق فأفعلُ ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسَك ، وقلْ يُسمع لك ، وسَلْ تُعطَ ، واشفع تشفّع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيُقال : انطلقْ فأخرِجْ منها من كان في قلبه مثقالُ ذرّة ، أو خردَلةٍ من إيمان ، فأَنطلِق فأَفعلُ ، ثم أعودُ فأحمده بتلكَ المحامِد ، ثم أخرُّ له ساجداً ، فيقال : يا محمد أرفع رأسَك ، وقل يُسْمع لك ، وسل تعطَ ، واشفعْ تشفَّع ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرجْ من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبّةٍ من خردل من إيمان ، فأخْرِجه من النار ، فأَنطَلقُ فأَفْعَلُ »(١).

٣) **إعطاؤه لواءَ الحمد وحشر الأنبياء تحته** : إن اللّه تعالى يسلّم محمداً يوم القيامة أشرفَ لواءٍ وأرفَعُه ، هو « لواءُ الحمد » ويَحشُر الأنبياءَ كافَّةً تحت هذا اللواء ، فعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « أنا سيّدُ ولَدِ آدمَ يومَ القيامة ، وبيدي لواءُ الحمدِ ، ولا فخر ، وما من نبيٍّ يومئذ ، آدمُ فمَن سواه إلَّا تحتَ لوائي »(٢) .

٤) **تكلّمه باسم الخلائِقِ كلِّهم** : ومما خُصَّ به النبي محمدٌ دون سائر الأنبياء أنه يكون هو إمامَهم والمتكلمَ باسمهم ، فعَن أُبَيّ بن كعب رضي اللّه عنه أن رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «إذا كان يومُ

(١) البخاري في التوحيد باب كلام الرب يوم القيامة .
(٢) الترمذي في المناقب باب فضل النبي ، وابن ماجه في الزهد باب الشفاعة ، ومسند أحمد ٢/٣ .

القيامةِ كنتُ إمامَ النبيين وخطيبَهم وصاحِبَ شفاعتهم ، ولا فَخْر »[١] وذلك هو المقام المحمودُ الذي خَصّ اللّهُ به رسولَه ، فقد روى كعب بن مالك رضي اللّه عنه أن رسول اللّه قال : « يُبعثُ الناسُ يومَ القيامة ، فأكون أنا وأمّتي على تَلٍّ ، فيكسوني ربي تبارك وتعالى حُلّةً خضراءَ ، ثم يؤذَن لي فأقولُ ما شاءَ اللّه أن أقولَ ، فذلك المقامُ المحمود »[٢] .

٥) **أول من يجتاز الصراط ومعه أمته** : ومما خَصَّ اللّه تعالى به محمداً دون سائر الأنبياء أنه عندما يُضربُ الصراطُ بين ظهري جهنم يكون محمدٌ أولَ من يجتازُ الصراط وخلفه أمته[٣] .

٦) **أولُ من يقرعُ بابَ الجنة وأولُ من يدخلها** : إذا تم اجتيازُ الصراطِ يكون محمدٌ أولَ الناسِ وصولاً إلى الجنة وأولَ من يَقرَع بابَها ، فقد روى أنس قال : قال رسول اللّه : « أنا أولُ من يقرَعُ باب الجنة »[٤] فيفتح له ، فيدخل ، فيكون أولَ داخلٍ ، روى أنس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « آتي باب الجنة يومَ القيامة فاستفتحُ ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمدٌ ، فيقول : بك أُمِرتُ ، لا أفتح لأحدٍ قبلك »[٥] .

٧) **اختصاصه بأعلى درجة في الجنة** : لقد خَصَّ اللّه محمداً بأعلىٰ درجةٍ في الجنة وهي « الوسيلة » قال صلى اللّه عليه وسلم : « من سَألَ لي الوَسيلةَ حَلَّتْ له شَفَاعتي »[٦] .

---

(١) الترمذي في المناقب باب فضل النبي ، ومسند أحمد ١٣٧/٥ المستدرك ٧١/١ .
(٢) المستدرك ٣٦٣/٢ ومسند أحمد ٤٥٦/٣ .
(٣) مسلم في الايمان باب معرفة طريق الرؤية .
(٤و٥) مسلم في الايمان باب أنا أول الناس يشفع .
(٦) مسلم في الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن .

٨) **اختصاصه بالكوثر** : مما خَصّ اللّه به محمداً في الآخرة نهرُ الكوْثَرِ الذي ورد ذكره في سورة الكوثر/ ١ : ﴿ إنّا أعطَيْنَاكَ الكَوْثَر ﴾ ، قال أنس : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « بينا أنا أسيرُ في الجنة ، إذا أنا بنهرٍ حافتاه قبابُ اللؤلؤ المجوّف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكَ ربُّك ، فإذا طِيبُهُ ـ أو طينه ـ مسك أذفر »(١) .

ب ـ **ما خصه اللّه به في الدنيا** : من استقراء ما خص اللّه تعالى به محمداً صلى اللّه عليه وسلم نجد أننا يمكننا أن نصنفها كالتالي :

ما أوجبه اللّه تعالى على رسوله ولم يوجبه على غيره .
ما حرمَه اللّه تعالى على رسوله ولم يحرمه على غيره .
ما أباحَه اللّه لرسوله ولم يبحه لغيره .
ما خَصَّ اللّهُ به رسولَه لمزيدِ فضلٍ فيه ، تكريماً له صلوات اللّه وسلامه عليه .

وسنتحدث عن ذلك كله فيما يلي :

١) **ما أوجبه على رسوله دون غيره** : لما كان محمدٌ نبياً فإنه يحتاجُ إلى زادٍ روحي أكبر من الزاد الذي يحتاجه بقيةُ البشر ، ولذلك فإن اللّه تعالى أوجبَ عليه من العبادات ما لم يوجبْه على أمته ، وهو كنبي أيضاً عليه من المسؤولية في تغييرِ الأوضاعِ الفاسدَةِ ما ليس على غيره . وهو في كل ذلك يزداد قُرْباً من اللّه ، لأن التقرب إلى اللّه تعالى بالفرضِ أكبرُ من التقرب إلى اللّه بالنفْلِ وأجذل ثواباً لما جاء في الحديث القدسي : (وما تقرَّبَ إليّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ من أداءِ ما افترضْتُ عليه)(٢) .

ونستطيع أن نحصر ما افترضه اللّه تعالى على رسوله دون أمته بما يلي :

---

(١) البخاري في الرقاق باب الحوض .
(٢) البخاري في الرقاق باب التواضع .

● **قيام الليل** : كان ابن عباس رضي اللَّه عنه والشافعي في أحد قوليه وبعض المالكية وابن جرير الطبري يرون أن اللَّه تعالى فرض قيام الليل على جميعِ الأمةِ الإسلامية ، وبقيتْ هذه الفرضيةُ سَنَةً ، ثم نسخت بالنسبة للأمةِ ، وبقيتْ بالنسبةِ لرسولِ اللَّه ، فأصبحَ قيامُ الليل سنة للمسلمين وفرضاً على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لقوله تعالى في سورة الإسراء/ ٧٩ : ﴿ ومِنَ الليلِ فتهجَّدْ به نافِلَةً لك عسى أن يَبْعَثَكَ رَبُّك مَقاماً مَحْموداً ﴾ أي : إن اللَّه فرض عليك قيام الليل زيادة عما أفترضه على أمتك تأهيلاً لك للمقامِ المحمودِ الذي أعدَّه اللَّهُ لك في الآخرة .

ولذلك كان رسول اللَّه يقول : « ثلاثٌ هنّ عليَّ فرائض ، ولكم سُنن ، الوترُ والسواكُ وقيامُ الليل »[١] .

● **صلاة الوتر** : ذهب بعض الشافعية والمالكية إلى أن صلاة الوتر كانت واجبةً على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، مع أنها غير واجبة على أمته ، واستدلوا على ذلك بالحديث المتقدم في الفقرة السابقة[٢] .

● **الاستياك** : كان الاستياك لكل صلاةٍ واجباً على رسول اللَّه وسنةً لأمته ، للحديث المتقدم ، ولحديث عبد اللَّه بن حنظلة أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أُمِرَ بالوضوءِ لكلِّ صلاةٍ طاهراً وغير طاهر ، فلما شَقَّ عليه ذلك أُمِرَ بالسواك لكل صلاة[٣] .

---

(١) البيهقي في السنن، والطبراني في الأوسط ، انظر : التلخيص الحبير ٣/ ١٢٠ .

(٢) نهاية المحتاج ٦/ ١٧٥ وروضة الطالبين ٧/ ٣ وأسنى المطالب ٩٩٣ وشرح الزرقاني للموطأ ٢/ ١٥٦ والمجموع ٤/ ٢٠ وعمدة القارىء ٧/ ١٥ .

(٣) انظر تلخيص الحبير ٣/ ١٢٠ ونهاية المحتاج ٦/ ١٧٥ وشرح الزرقاني ٢/ ١٥٦ وخصائص السيوطي ٣/ ٢٥٣ .

● **الأضحية** : كانت الأضحية واجبة على رسول اللَّه دون أمته لقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « ثلاث هن عليَّ فرائض ولكم تطوع ، النحْرُ والوتر وركعتا الضحى »(١) .

● **صلاة الضحى**: ذهب الشافعية وبعض المالكية إلى أن صلاة الضحى كانت واجبة على رسول اللَّه ، دون أمته للحديث المتقدم .

● **تغيير المنكر**: ومما وجب على رسول اللَّه تغييرُ المنكرِ ، ولا يسقط ذلك عنه بالخوف على نفسه ، بخلاف أمته التي يسقط عنها تغييرُ المنكر بخوفِ الشخص على نفسه ، وإنما لم يسقط عن رسول اللَّه بذلك لأن اللَّه تعالى حفظه فقال تعالى في سورة المائدة/ ٦٧ : ﴿ واللَّهُ يَعصِمُكَ من النّاسِ ﴾(٢) .

٢) **ما حرمه اللَّه على رسوله دون غيره** : حرَّم اللَّهُ على رسوله محمد صلى اللَّه عليه وسلم بعض ما أحَلَّه لأمته ، تنزيهاً له عن سفاسِف الأمور ، وإعلاءً لمقامه لأن أجر ترك المحرّم أكبرُ من أجر ترك المكروه ، وبذلك يزداد الرسولُ علواً عند اللَّه يوم القيامة . ومن ذلك :

● **تحريم الصدقات**: حرم اللَّه تعالى على رسوله أخذَ شيءٍ من الصدقات ، سواء كانت مفروضةً كالزكاة والكفارة ، أم مندوبةً كصدقة التطوع ، وذلك صيانة لمنصبه الشريف ، لأن أخذ الصدقة ينبىء عن ذلِّ الآخِذِ ، وعزّ المأخوذ منه ، ومقام النبوة يجلّ عن ذلك . رَوى عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث أن رسول اللَّه قال : « إن هذه الصَّدقات إنما هي أوساخُ الناس وإنها لا تحِلُّ لمحمدٍ ولا لآلِ مُحَمد »(٣) .

---

(١) انظر تلخيص الحبير ٣/ ١١٨ ومسند أحمد ١/ ٢٣١ ومواهب الجليل ٣/ ٣٩٣ .

(٢) الخصائص ٢٥٨٣ ومطالب أولي النهى ٥/ ٣٠ والزرقاني ٢/ ١٥٨ وسنن البيهقي ٧/ ٤١ .

(٣) مسلم والنسائي في الزكاة باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة ، وأبو داود في الإمارة باب بيان =

● **الإهداء لينال أكثرَ مما أعطى:** ويحرُم على رسول اللّه أن يُهدي أحداً شيئاً على أمل أن يُهديَ له ما هو أحسن منه ، لأنه صلوات اللّه وسلامه عليه مأمورٌ بأشرَفِ الآداب وأجلِّ الأخلاق وقد وجه اللّه تعالى الخطاب إليه بقوله في سورة المدثر/ ٦ : ﴿ ولا تمنُنْ تَسْتَكثِرْ ﴾ .

● **أكل ما لَه ريحٌ خبيثة:** ويحرم على رسول اللّه أكلُ ما له ريحٌ خبيثة كالثوم والبصل ـ على ما يراه المالكية ـ فقد روى جابر بن عبد اللّه أن رسولَ اللّه أتي بطعامٍ فيه خضروات من بُقول ، فوجد له ريحاً ، فسأل ؟ فأُخبِر بما فيها من البقول ، فقال : قرّبوها إلى بعضِ أصحابي ، فلما رآه كره أكلها قال : « كُلْ ، فإني أُناجي من لا تُناجي »[٢] ؛ ولما نزل رسول اللّه على أبي أيوب الأنصاري تكلَّفوا له طعاماً فيه بعض هذه البقول ـ أي الثوم ـ فكره أكلَه ، فقال لأصحابه : « كلوه ، فإني لستُ كأحدِكم ، إني أخافُ أن أوذِيَ صاحبي »[٣] ـ يعني : جبريل عليه السلام ـ .

● **خائنة الأعين:** ونعني بخائنة الأعين : الإيماء بما يُظهِرُ خلافَه ، وكان هذا محرماً على رسولِ اللّه دون أمَّته ، لتنزّه مقام النبوة عنه ، لأنه من خَسيس الأعمال ، فقد روى سعد بن أبي وقاص أن رسولَ اللّه أمّن الناسَ يومَ الفتح إلّا أربعة نفر منهم : عبيد بن أبي سَرْح ، فاختبأ عند عثمان، فلما دعا رسولُ اللّه إلى البيعة جاءَ به عثمان ، فقال: يا رسولَ اللّه بايعْ عبْدَ اللّه، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً، كلُّ ذلك يأبىٰ ، فبايعه بعد ثلاثٍ ، ثم أقبلَ على أصحابه فقال : أما فيكم رجلٌ

= مواضع قسم الخمس ، ومطالب أولي النهىٰ ٣٢/٥ ومواهب الجليل ٣٩٧/٣ .

(١) تفسير الطبري ٦٦/١٩ وسنن البيهقي ٥١/٧ .

(٢) انظر جامع الأصول برقم ٥٥٢١ .

(٣) الترمذي في الأطعمة باب الرخصة في الثوم مطبوخاً ، وانظر : الخصائص ٢٦٨/٣ ومواهب الجليل ٣٩٧/٣ والزرقاني ١٥٨/٢ .

رشيدٌ يقومُ إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته ليقتلَه ؟ قالوا : ما يدرينا ما في نفسك ؟ هَلّا أومأتَ بعينك ؟ قال : إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأعين(١) .

● **نكاح الكتابية** : وحُرم على رسول اللّه نكاح الكافرة، الكتابية وغيرها ، وأحِلَّ نكاح الكتابية لأمته ، لأن رسولَ اللّه أشرفُ من أن يضَعَ ماءَه في رحمِ كافرة ، ولأن الكافرة تكره صحبةَ رسول اللّه ، وليس من الكرامة أن يجمع فراشٌ واحدٌ الرجلَ ومن تكرهه ، وقد روى الحاكم أن رسول اللّه قال : « سألت ربي أن لا أزَوِّجَ إلّا من كانت معي في الجنة فأعطاني »(٢) .

● **نكاح من وجبت عليها الهجرة ولم تُهاجر** : وحرم على رسول اللّه نكاحُ من وجبت عليها الهجرة ولم تهاجر ، قال ابن عباس : نُهيَ رَسولُ اللّه عن أصنافِ النساء إلّا ما كان من المؤمنات المهاجرات(٣) ، وقالت أم هانىء : خطبني رسولُ اللّه فاعتذرْتُ إليه ، فعذرني ، فأنزل اللّه تعالى في سورة الأحزاب/ ٥٠ : ﴿ إنا أحْلَلْنا لَكَ أزْوَاجَكَ اللّاتي آتَيْتَ أجورَهُن وما ملكتْ يمينُك مما أفاءَ اللّهُ عليك وبناتِ عمِّك وبناتِ عماتِك وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك اللّاتي هَاجرْنَ معك ﴾ فلم أكن أحِلّ له لأني لما هاجرتُ كنتُ من الطّلقاء(٤) .

٣) ما أبيحَ لرسولِ اللّه دون أمته : أبيحَ لرسول اللّه بعضُ ما حُرِّم على أمته

---

(١) أبو داود في الجهاد باب قتل الأسير ، والنسائي في تحريم الدم باب الحكم في المرتد ، وسنن البيهقي ٧/ ٤٠ وتلخيص الحبير ٣/ ١٣٠ والخصائص ٣/ ٢٧٩ واسنى المطالب ٣/ ١٠٠ والزرقاني ٢/ ١٥٩ ومطالب أولي النهى ٥/ ٣١ .

(٢) الخرشي ٣/ ١٦١ والخصائص ٣/ ٢٧٦ وأسنى المطالب ٣/ ١٠٠ .

(٣) الترمذي في تفسير سورة الأحزاب .

(٤) الترمذي في تفسير سورة الأحزاب ، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢١ وأحكام الجصاص ٣/ ٤٥٠ والخصائص ٣/ ٢٧٧ .

تسهيلاً عليه ليتمكن من أداءِ الرسالة وتبليغِها على الوجه الأكمل ، أو لخصوصية فيه عليه الصلاة والسلام ، ونذكر من ذلك :

● **إباحةُ الصلاةِ بعد النومِ دونَ تجديد الوضوء** : فقد روى ابن عباس أن رسول اللَّه توضأ ثم صلى ما شاء اللَّه ، ثم اضطجَعَ فنامَ حتى نَفَخَ ، ثم أتاه المنادي فآذَنَه بالصلاة ، فقام إلى الصلاة ، فصلى الصبحَ ولم يتوضأ، قال الثوري: وهذا للنبي خاصة، لأنه بلغنا أن النبي تنام عيناه ولا ينام قلبه[1] وكون أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه حقيقة أفصح عنها النبي بقوله : « إنَّ عينَيَّ تنامان ولا ينامُ قلبي »[2] ، ولذلك كان يوحىٰ إليه في منامه ، ولو نام قلبُه لما تقبّل الوحي .

● **صيام الوِصال** : وأبيح لرسول اللَّه دون أمته مواصلة صيام الأيام العديدة دون أن يفطر بينها ، فقد روى أبو هريرة قال : نهى رسول اللَّه عن الوِصالِ في الصومِ ، فقال له رجل من المسلمين : إنك تُواصِلُ يا رسول اللَّه؟ قال: وأيكم مثلي؟ إني أَبيتُ يطعمني ربي ويَسقيني[3] .

● **القتال في حرم مكة** : لقد أحلّ اللَّه لرسوله صلى اللَّه عليه وسلم دون أمته قتالَ المشركين في مكة لضرورة تطهير الحرمِ من الشركِ والأصنام ، فقد روى أبو شريح العدوي قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إن مكة حرَّمها اللَّهُ ولم يُحَرِّمها الناسُ ، فلا يحلُّ

---

(١) البخاري في العلم باب السمر في العلم ، ومسلم في صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل .

(٢) البخاري في التهجد باب كيف صلاة النبي، ومسلم في صلاة المسافرين باب صلاة الليل ، وانظر : الخصائص ٣/ ٢٩٣ وروضة الطالبين ٧/ ٨ وأسنى المطالب ٣/ ١٠٢ وسنن البيهقي ٧/ ٦٢ وتلخيص الحبير ١٣٥/٣ .

(٣) البخاري ومسلم في الصيام باب صيام الوصال ، وسنن البيهقي ٧/ ٦١ والخصائص ٣/ ٢٨٤ ومطالب أولي النهىٰ ٥/ ٣٥ وكشف القناع ٢٧/٥ .

لامرىءٍ يؤمِنُ باللّه واليوم الآخِر أن يسفِكَ فيها دَماً ، ولا يَعْضِدَ فيها شجرة، فإنْ أحدٌ ترخَّصَ، لقتال رسول اللّه فيها، فقولوا له: إن اللّه أذِنَ لرسوله ولم يأذَنْ لكم ، وإنما أذِن لي ساعةً من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، لِيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ »[١] .

● **أخذ الهديّة** : وأبيح لرسول اللّه ـ وهو حاكم ـ أن يأخذَ الهديَّة إن أهداها له أحدُ أفراد أمته ، مع أنه لا يجوز لأحدٍ من الحُكّام أو الأمراءِ أو ولاةِ الأمور أخذَ الهدية من أحد من رعيته[٢] .

● **سهمه من الغنائم** : وأبيح لرسول اللّه أخذ خمس الخمس مما غنمه المجاهدون، سواء حضر الوقعة أم لم يحضرها، لقوله تعالى في سورة الأنفال/ ٤١ : ﴿واعْلَمُوا أنّما غَنِمْتُم من شيءٍ فأن للّه خُمُسَهُ وللرَّسول﴾ .

كما أبيح له أن يصطفيَ لنفسه من الغنائم ما شاءَ من سيفٍ ودرعٍ وغير ذلك ، وقد اصطفى صلى اللّه عليه وسلم من غنائم بني قريظةَ ريحانة بنت عمرو بن جُنافة ، فكانت عند رسول اللّه حتى توفي عنها وهي في ملكه[٣] ؛ واصطفى صفِيَّة بنت حُيَيّ بن أَخْطَب من غنائم خيبر ثم تزوجها عليه الصلاة والسلام[٤] .

● **الجمع بين أكثرَ من أربعِ زوجاتٍ** : وأبيحَ لرسول اللّه دون أمَّته أن يجمعَ في عصمته أكثرَ من أربع زوجات ، وقد توفيَ رسولُ اللّه وعنده تسعُ زوجات هن : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأمُّ سلمة بنت أبي

(١) البخاري في الحج باب لا يعضد شجر الحرم ، ومسلم في الحج باب تحريم مكة ، ومطالب أولي النهى ٥/ ٣٥ والخصائص ٣/ ٢٩٠ .

(٢) روضة الطالبين ٧/ ١٦ .

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام ١٩٣ .

(٤) تهذيب سيرة ابن هشام ٣٠٦ .

أمية بن المغيرة ، وسودةُ بنت زمعة بن قيس ، وزينبُ بنت جحش بن رئاب ، وميمونةُ بنت الحارث بن حزن ، وجويريةُ بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفِيَّةُ بنت حُيَيّ بن أَخْطَب من بني النضير .

٤) **ما خص به الرسول لمزيدِ فضلٍ** : هناك أمور خص اللّه تعالى بها نبيه دون سائر أمته لمزيدِ فضلٍ له عليه الصلاة والسلام ، نذكر من ذلك :

- **اختصاصه من شاءَ بما شاءَ من الأحكام**: كان رسول اللّه مشرِّعاً لا ينطق عن الهوى ، ولذلك كان له أن يختصَّ من شاءَ بما شاءَ من الأحكام ، كجعله شهادة خُزَيْمَة تعدل شهادة رَجُلين ، وترخيصه لأمِّ عَطِيَّة ولخولةَ بنتِ حكيم في النياحة على جماعة مخصوصين ، وترخيصِه لأسماء بنت عُمَيْس بترك الإحداد لما قُتِلَ زوجُها جعفر بن أبي طالب ، وإجازتِهِ الأضحية بعَناق لأبي بردة ولعُقْبة بن عامر ، وحطِّه الكفارة عمن جامع امرأته في نهار رمضان ، وتزويجِه أمَّ سليم أبا طلحة على إسلامِهِ ، وتزويجه رجلاً على ما معه من القرآن ، وإعادة امرأة أبي ركانة إليه بعد أن طلقها ثلاثاً من غير مُحَلِّل .

- **خاتم النبيين** : لقد خصَّ اللَّهُ تعالى محمداً صلى اللّه عليه وسلّم بكونه خاتمَ النبيين ، وأنه لا نبيَّ بعده ، وقد نطقَ القرآنُ بذلك في سورة الأحزاب/ ٤٠ : ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحَدٍ من رجالِكم ولكنْ رسولَ اللَّهِ وخاتَمَ النَّبِيِّين ﴾ .

- **عمومُ رسالته** : كما خصه سبحانه بعمومِ رسالتِهِ للإنس والجن بعد أن كان الأنبياء من قبله يُبعَثون إلى أقوامهم ، أما عمومُ رسالته لسائر الإنس فقد ثبت في كثير من آيات القرآن منها ما جاء في سورة سبأ/ ٢٨ : ﴿ وما أرْسَلناك إلَّا كافَّةً للناس بَشيراً ونَذِيراً ﴾ ؛ وأما إرساله إلى الجنِّ أيضاً فقد صرّح به القرآن الكريم في سورة الجن ١ ـ ٢ : ﴿قل أُوحِيَ

إليَّ أنه استَمَعَ نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنّا سَمِعْنا قُرآناً عجباً * يهدي إلى الرُّشْدِ فآمَنّا بِه ولم نُشْرِك بِربِّنا أحَداً . . . ﴾ وصرح به في سورة الأحقاف/ ٢٩ : ﴿ وإذ صَرَفْنا إليك نَفَراً من الجِنِّ يَسْتَمِعونَ القُرآن ، فلما حَضَرُوه قالوا أنصِتُوا ، فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قَوْمِهم مُنْذِرين ﴾ .

● **أخذ العهد على الأنبياء ليؤمنن به** : وخصه اللّٰه تعالى بأن أخذَ العهدَ على الأنبياء ليؤمِنُنَّ به ويعرفُنَّ فضله ، كما أفصح اللّٰه عن ذلك في سورة آل عمران/ ٨١ : ﴿ وإذْ أخَذَ اللّٰهُ ميثاقَ النبيين لما آتَيْتُكُم من كتابٍ وحكمةٍ ، ثم جاءَكم رَسُولٌ مُصَدِّق لِما معكم لتؤمِنُنَّ به ولتنصرُنَّه ، قال : أأقرَرْتم وأخَذْتم على ذلكُمْ إصْري ؟ قالوا : أقْرَرْنا ، قال : فاشهَدُوا وأنا مَعَكم مِنَ الشّاهِدين ﴾ .

ولذلك هرع الأنبياءُ للاقتداءِ به عليه الصلاةِ والسلام حين قدَّمَه جبريلُ إماماً لهم في الصلاة ليلة عُرِجَ به إلى السماء.

● **مغفرةُ ذنبه** : وخصه اللّٰه تعالى من بين العالمين جميعاً فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو حي ، فقال تعالى في سورة الفتح ١ ـ ٢ : ﴿إنا فَتَحْنا لك فَتْحاً مُبيناً * ليغفِرَ لك اللّٰهُ ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّر﴾. وفي حديث الشفاعة يقول الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم: «فيأتوني فيقولون : يا محمد أنتَ رسولُ اللّٰه وخاتم الأنبياء ، وقد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك . . . »[١].

● **عدم التقدم بين يديه** : وخصَّ اللّٰه تعالى نبيه بأنه لا يجوز لأحد أن يطرح آراءَهُ الشخصيـة بين يديـه دون إذن منه لقولـه تعـالى في سـورة

(١) البخاري في الأنبياء باب قول اللّٰه تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ومسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة .

الحجرات/ ١ : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تُقدِّمُوا بين يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

● **الكذب عليه** : الكذب مذمَّة بالجملة ، والكذبُ على رسول اللّه ليس كذباً فحسب ، بل هو تحريف لدين اللّه تعالى وإدخالٌ فيه ما ليس منه ، لأن كلام رسول اللّه دين ، ولذلك قال رسول اللّه في الحديث المتواتر : « من كذبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار » .

● **عدم مناداته باسمه** : ومما خص اللّه به رسولَه دون سائر أمته منع مناداته باسمه (يا محمد) بل بوصفه (يا رسول اللّه) فقال تعالى في سورة النور/ ٦٣ : ﴿ لا تجعَلُوا دُعاءَ الرسولِ بينَكُم كدُعاءِ بعضِكم بعضاً ﴾ .

● **قسم اللّه بحياته** : وخصه تعالى بالقسم بحياته تعظيماً لقدرِهِ ، فقال تعالى في سورة الحجر/ ٧٢ : ﴿ لَعَمرُكَ إنهم لَفي سَكرَتِهِم يَعْمَهون ﴾ ولم يقسم سبحانه بحياة أي نبي آخر من الأنبياء .

● **إباحة زيارة قبره للنساء** : ويكره للنساءِ زيارةَ القبور ، وخصَّ قبرُ رسول اللّه فإنه تستحبُّ زيارته للنساء والرجال ، لعموم قوله صلى اللّه عليه وسلّم : « مَنْ حَجَّ وزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي »[1] .

● **منع إرثه** : ومما خص اللّه تعالى به محمداً صلى اللّه عليه وسلّم دون أمته أن ما تركه من مالٍ أو متاعٍ بعد موته لا يورَث عنه، بل يؤول إلى بيت مال المسلمين ، يتصدق به على فقرائِهم ، قال صلى اللّه عليه وسلّم : « لا تَقْتَسِم ورثتي ديناراً ولا درهماً ، ما تركتُ بعد نفقةِ نِسائي

---

(١) كشف القناع ٣٦/٥ وعزى الحديث إلى الدارقطني .

ومؤونَةِ عَامِلي ـ هو العامل في الوقف ـ فهو صَدَقَة »[١] .

● **أزواجه أمهات المؤمنين** : ومما خص اللّه تعالى به محمداً اعتبار زوجاتِه أمهات للمؤمنين ، لا يجوز نكاحُ واحدة منهن بعد وفاته عليه الصلاة والسلام قال تعالى في سورة الأحزاب/ ٦ : ﴿ النبيُّ أَوْلَىٰ بالمؤمنين مِنْ أنفُسِهم وأزْواجُه أُمَّهاتُهم ﴾ وقال في سورة الأحزاب/ ٥٣ : ﴿ وما كانَ لكم أنْ تُؤذُوا رَسُولَ اللّهِ ولا أن تَنكِحوا أزْواجَه من بَعْده أبداً ، إن ذلِكُم كان عِنْدَ اللّهِ عَظيماً ﴾ .

● **إسلام قرينِه**: وقد خصّ اللّه تعالى محمداً بإسلام قرينه من الجنّ ، فقد روى عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « ما منكم مِنْ أَحدٍ إلَّا وقد وكِّلَ به قرينُه من الجِنِّ » ، قالوا : وإياكَ يا رسول اللّه ؟ قال : « وإيايَ ، إلَّا أن اللّهَ أعانني عليه فأسْلَم ، فلا يأمرني إلَّا بخير »[٢] .

● **نصرُه بالرعب** : ومما خص به أيضاً أن اللّه تعالى ألقى في قلبِ عدوِّه الخوفَ منه من قبل أن يلقاه مسيرةَ شهر ، قال صلى اللّه عليه وسلم : « أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهن أحدٌ قبلي ، نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر . . . »[٣] الحديث.

● **الروضة المشرفة** : وخصه اللّه تعالى بجعل الأرض المحصورة ما بين بيته عليه السلام ـ حيث قبره الشريف الآن ـ ومنبره الذي كان يخطب عليه في المسجد النبوي روضة من رياض الجنة ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : « ما بين بَيْتي ومنبري روْضةٌ من رياض الجنة»[٤] .

---

(١) البخاري في الفرائض باب قول النبي : لا نورث ، ومسلم في الجهاد باب قول النبي : لا نورث .
(٢) مسلم في صفات المنافقين باب تحريش الشيطان.
(٣) البخاري في الجهاد باب نصرت بالرعب .
(٤) البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة ، ومسلم في الحج باب ما بين القبر والمنبر .

شَخصيّة الرّسول الاجتماعية

يقولون إن الإنسانَ اجتماعيٌّ بطبعه ، هذا إذا كان الإنسان شخصاً عادياً ، فما بالك إذا كان هذا الإنسان نبياً رَسولاً ، ما ابتعثَه اللّه تعالى إلّا ليمارِسَ عمليةَ الإصلاح الاجتماعيّ على أوسع نِطاقٍ ؟ ومن هنا كان من الضروري بمكانٍ أن أتناول شخصية الرسول الاجتماعية بالدراسة والتحليل .

١ ـ مظهره الاجتماعي :

نريد هنا بالمظهرِ الاجتماعي : المظهر الخارجي الذي يظهر فيه الرسول صلى اللّه عليه وسلّم للناس ، كلباسه ، وزينته ونحو ذلك .

ومن حق المجتمعِ على أفرادِه أن لا يخدِشوا ذوْقَه العام بمظهرهم العام ، وإن مراعاتهم هذا الذوقَ العام للمجتمع دليل على احترامهم له .

وقد كان رسولُ اللّه من أكثر الناسِ احتراماً للذوقِ العام ، فلا يظهر بمظهر ينكره عليه المجتمعُ ، وكان من أحسنِ الناسِ مظهراً .

صحيح أنه لم يكن مسرِفاً في لباسه ـ أعْني لم يكن يلبس الثيابَ الباهظة الثمن ـ ولكنه كان عليه الصلاة والسلام يلبس من اللباس ما يُضْفِي عليه وقاراً على وقار ، ولا ينكره المجتمع .

أ ـ **شعره** : الشعر له السهمُ الوافرُ في رسمِ الهيئةِ العامّة للإنسان ، ولذلك

كان عليه الصلاة والسلام دائمَ العناية بشعره ، سواء كان شعر لحيته أم شعر شاربه أم رأسه .

أما شعر لحيته : فكان بطبيعته لا ينبتُ منه شيء على الوجنتين ، ولا أسفل من الحلق ، ولذلك لم تكن لحيته بحاجة إلى تحسين ، وهذا من كمال خلقه عليه الصلاة والسلام ، أما طولها فكان لا يتجاوز القبضة ، فإذا تجاوزها أخذ ما زاد منها ، أما عرضها فإنه كان يتناسب مع طولها فإذا اختل هذا التناسب وشرد الشعر عن السوية أخذ منه عليه الصلاة والسلام فقد روى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن رسول اللّه كان يأخذ من لحيته ، من عرضها وطولها » .

والثابتُ أن لحيةَ رسول اللّه لم تجاوز القبضة بحال .

وعندنا لهذا تفسيران : أولهما : انه كان يأخذ من طولها ما زاد عن القبضة لما جاء في حديث الترمذي وثانيهما : أن نمو شعر لحيته قد وقف عند القبضة ولم يجاوزها .

ومن هنا ذهب جمهور من الفقهاء ، على أن السنة في اللحية القبضة .

وأما شعر شاربه : فقد كان رسول اللّه يقص شاربه لئلا يدخل شعرُه إلى فمه فيتأذّى الآكلُ معه من منظره .

وأما شعر رأسه : فإن أكثر ما يبلغ طوله إلى منكبيه[1] وكان يقصِّره أحياناً حتى يكون أقصر من منكبيه .

وكان يعتني بتنظيفه وترجيله ، وكان في أول أمره يسدل شعرَ

(١) البخاري في الأنبياء باب صفة النبي ، ومسلم في الفضائل باب صفة شعر النبي .

ناصيته ، ولكنه ما لبث أن عَدَل عن ذلك لمّا رأى أهلَ الكتاب يسدِلون نواصيهم ، فجعل يفرِق شعرَه ، وقد وصفت لنا السيدة عائشة كيفية هذا الفَرْقِ فقالت : كنت إذا أردت أن أفرق شعر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم صدعت الفرق من يافوخه ، وأرسلتُ ناصِيَتَه بين عينيه[(١)] .

ب ـ **لباسه** : وكما أن الشعر يساهم في رسم الهيئة العامة للإنسان ، فكذلك اللباسُ يساهم في رسم هذه الهيئة ، حتى يبدوَ الإنسانُ من خلالِهما مقبولاً ، ترتاحُ العينُ لرؤيته ، أو مرفوضاً تشمئز العينُ من منظره .

ومن هنا كان لباسُ رسولِ اللَّه تتوفر فيه ثلاث صفات هي :

الأولى : إرضاء الربِّ تعالى : فهو لا يكشفُ عن العورة، ولا يجسِّمها ، وهو خال من الإسراف الذي ذمَّه اللَّه تعالى ، ولا هو من الذهب أو الحرير اللذين حرمتهما الشريعة .

الثانية : عدم الإخلال بالمروءة : والإخلال بالمروءة قد يكون لمشابهةِ اللباسِ لباسَ النساءِ أو الكفارِ في اللون أو الخياطة ، كاللون الأحمر الذي اختصوا به ، ولذلك كان رسول اللَّه لا يلبس هذا اللون ، وينهي عن لبسه للرجال ، ويأذن بلبسه للنساء ، ففي صحيح البخاري أن النبي صلى اللَّه عليه وسلّم نهى عن المياثِرِ الحُمْر[(٢)] ، وفي سنن أبي داود عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبيَ رأى عليه ريطَة مضرَّجة بالعُصفر ـ والعُصفر يصبغ أحمر ـ فقال : ما هذه الريطة التي عليك ؟ فعرفتُ ما كره ، فأتيتُ أهلي وهم يسجرون تنوراً لهم ، فقذفتها فيه ، ثم أتيتُه من الغد ، فقال : يا عبد اللَّه ما فعلتِ الرِّيطَة ؟ فأخبرته، فقال : هلا كسوتها بعضَ أهلِك ؟ فإنه لا بأسَ بها للنساء[(٣)] .

---

(١) أبو داود برقم ٤١٨٩ في الترجل باب ما جاء في الفرق .

(٢) البخاري في اللباس باب الميثرة الحمراء.

(٣) أبو داود في اللباس باب الحمرة ، ومسند أحمد ١٩٦/٢ .

وفي صحيح مسلم عن عبد اللّه بن عمرو قال : رأى النبي عليَّ ثوبين مُعَصْفَرَيْن فقال : إن هذه من لباس الكفار فلا تلبسها[١] .

أما ما روي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم لبس حلَّةً حمراء : فقد قال ابن القيم : غلط من ظن أنها كانت حمراء بحتاً لا يخالطِها غيره ، وإنما الحلةُ الحمراءُ : بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود ، كسائرِ البرود اليمنية ، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر[٢] .

الثالثة : أن لا يستقبحَها المجتمعُ : فقد كان يلبسُ في رأسه قلنسوةً بغير عمامة في أحيانٍ قليلة ، وعمامةً بغير قلنسوة أحياناً ، وعمامةً على قلنسوة أحياناً ، وكانت عمامته بغير ذؤابةٍ أحياناً ، وذات ذؤابةٍ في أكثر أحيانه ؛ فإذا كانت ذات ذؤابة أرخى ذؤابتها بين كتفيه .

ولبس على بدنه قميصاً وكان كمه إلى الرسغين ، ولِبسَ الجُبَّة ، ولبس القَبَاءَ ، ولبس الحُلَّةَ ـ وهي إزار ورداء ـ .

والملاحظ أن هذه الألبسةَ كلَّها كانت مما اعتادَ الناسُ لبْسَه في المجتمع الذي عاش فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، ولذلك لم يبدُ فيه شاذاً بين الناس .

كما أن من الملاحظ أيضاً أن رسول اللّه لم يتخذ لنفسه زِياً خاصاً الْتَزَمَه ، ليحقق المساواة التي ابتعثه اللّه تعالى بها ، ولذلك كان يدخل الداخل ـ والرسول بين أصحابه ، فلا يعرفه ، فيقول : أيكم محمد ؟

جـ ـ مشيته : كانت مشية رسول اللّه مشيةً فيها الجد وفيها القوة والرجولة، فقد

---

(١) مسلم في اللباس النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر .

(٢) زاد المعاد ١/١٣٧ .

كان رسولُ اللَّه يمشي مشياً سريعاً ساكناً ، وكان أبعد ما يكـون عن مشية المتماوِت قال أبو هريرة : ما رأيتُ أحداً أسرعَ في مشيته من رسولِ اللَّه ، فكأنما الأرضُ تطوى له ، وإنا لنجهَد أنفسنا وإنه لغيرُ مُكترثٍ[١] .

وكان إذا مشى مالَ بِقامَته قليلاً إلى الأمام ـ وهو التكفُّؤ ـ قال علي : كان رسول اللَّه إذا مشى تكفَّأ تكفُّؤاً[٢] ، وإذا نقل خطواته تقلَّع تقلُّعاً ـ أي ارتفع من الأرض بجملته ، وهي مشية أولي العزم والهمَّةِ والشجاعة .

وكان لا يلتفتُ برأسِه إلى شيءٍ وهو يمشي ، ولكنه إن التفت التفت كلُّه .

وكان إذا مشى مع أصحـابه لم يتقـدمْهم ليكونـوا خلفَه كمـا يفعلُ الجَبابرة ، بل يسوقُهم أمامَه ويمشي هو خلفهم ، ففي سنن ابن ماجـه : كان النبيُّ إذا مشى ، مشى أصحابُه أمامَه وتركوا ظهْرَه للملائِكة[٣] .

د ـ **تخليـه** : كان عليه الصلاة والسلام إذا أراد دخولَ الخَلاء قال : « اللهم إني أعوذُ بك من الخُبْثِ والخَبائِث »[٤] .

وإذا كان في البرِّية ومعه أحدٌ من أصحابه فأرادَ الخَـلاء أبْعَدَ عنهم حتى لا يُسمع منه صوتٌ ولا يُشمَّ منه ريح ، فإن وجدَ ساتراً استتر به ، وإن لم يجد أمعَن في البُعد حتى يكاد لا يُرى ، لأن رؤية المتخلّي على الخلاء تشمئزُّ منها النفس .

وكـان لا يكشفُ عن عورتَـه حتى يدنـو من الأرض ، ولا يبولُ إلاَّ قاعداً لأنه استرُ له .

---

(١) الترمذي في المناقب .
(٢) الترمذي في المناقب .
(٣) ابن ماجه في المقدمة برقم ٢٥٦ ، وانظر مسند الامام أحمد ٣/٣٣٢ .
(٤) البخاري في الوضوء ومسلم في الحيض ، كلاهما في باب ما يقول إذا دخل الخلاء .

وكان يستنجي بالماء ، إلَّا أن لا يتيسّر له الماء ، وكان كثيراً ما يجمع بين الأحجار والماء ، فينظف المخرج بالأحجار ثم يغسله بالماء .

وكان إذا انتهى من قضاءِ حاجَتِه وقام قال بعد أن يستر عورته « غفرانَك ، الحمد للَّه الذي أذْهَبَ عني الأذى وعَافَاني »[١] .

هـ ـ **كلامه** : كان رسول اللَّه من أحْلَىٰ الناسِ منطقاً ، وأعذبهم كلاماً ، لم يكن يتفوَّه بالفاحِش من الكلام ، وكان إذا تكلّمَ تكلَم بكلامٍ مفصَّل مُبَيَّن ، ليس بهذٍّ مسرِع لا يُحفظ ، ولا منقَطِع تتخلَّلُه السكتات بين أفراد الكلام ، قالت عائشة : ما كان رسول اللَّه يسرُد كَسَرْدِكم هذا ، ولكنه كان يتكلَّم بكلام يُبينُه ، فصلٍ ، يَحفظه من جَلَس إليه[٢] .

و ـ **أكله** : إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ما عاب طعاماً قط ، ولكنه كان إذا قُدِّم إليه الطعامُ فاشتهاه أكلَه ، وإن عافَه تركه .

وكان كل أكلِ رسولِ اللَّه على سُفْرَةٍ يمدُّها على الأرض ، وهو دليل تواضعه ، وكان إذا أكل أكلَ بأصابعه الثلاثة ، ولا يأكُل بأصابعه الخمسة ، ولا يدفع بكفه شأن الشرِهين .

وكان لا يأكل متكئاً شأن الجبابرة .

وكان يسمي اللَّهَ تعالى إذا شرع في الطعام ، ويأكُلُ مما يليه من الطعام ، ولا يأخذ الطعامَ من أمام غيره ، ويقوم عن الطعام وهو غيرُ ممتلِىءٍ ، فإذا شبع لعَقَ أصابعَه ـ وهذه كانت وسيلة التنظيف عندهم ـ وحمد اللَّه تعالى .

* * *

(١) ابن ماجه في الطهارة باب ما يقول إذا خرج من الخلاء ، وانظر : الأذكار للنووي ص ٢٢ .

(٢) الترمذي في المناقب .

إن هذه الأمور وإن بدَتْ لنا شخصيةً جداً لا تتعدى صاحبها ، إلَّا أنها تجعل ممن يتحلى بها شخصاً مقبولاً لا يرفضُه المجتمعُ على أقلِّ التقديرات ، إن لم نقل : تجعل منه إنساناً هو محطّ الأنظارِ ، تقتحمُه كلُّ عَيْن ، ويفسح المجال له كل قلبٍ ليجدَ له مكاناً فيه .

٢ ـ محمد الزوج :

أ ـ **تعدد زوجاته** : المقطوع به أن رسولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم قد توفي وفي عصمته تسعُ نساء ، وكان هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، فقد أحِلّ له ـ دون سائر رجال أمته ـ أن يتزوج بأكثر من أربع .

والأسباب التي دعت رسول اللَّه إلى تعدد الزوجات على نوعين : أسباب عامة ، وأسباب خاصة :

١) **أما الأسباب العامة** فهي : أن المجتمعَ الذي عاش فيه الرسولُ كان لا ينكر التعدد، بل كان يفضّله، وقلَّ أن نجدَ رجُلاً في ذاك المجتمع قد اقتصر على امرأة واحدة .

ولا يجوز لنا أن ننسى ما غرسه اللَّهُ في قلبِ رسوله من حُبِّ النساء ، وقد عبَّر عليه الصلاة والسلام عن هذا الحب بقوله : « حُبِّبَ إليَ النساءُ والطيبُ وجُعلتْ قرةُ عيني في الصلاة »[1] وليس عيباً بالرجلِ أن يُحبَّ النساء ، بل يعتبر هذا من كمالِ الرجولة ، وليس عيباً بالمرأة أن تحبَّ الرِّجالَ ، بل يعتبر هذا من كمال الأنوثة ، لأن اللَّه تعالى هو واضعُ هذا الحب ، وما وضعه اللَّهُ في القلوب إلَّا لحكمة يريد أن يحقِّقها من ورائه .

---

(١) النسائي في عشرة النساء باب حب النساء .

نعم ، ليس عيباً أن يحبَّ الرجلُ النساء ، ولكن العيب أن تُشغِلَ المرأةُ الرجلَ عن أداء واجباتِهِ تجاهَ ربِّه ، أو تجاه أمَّته ، أو تجاه فرد وجب له حقٌّ عليه . . . ولكن العيبَ أن يصيرَ الرجلُ عبداً للمرأة ، يرى حقها فوق كلِّ حق ، وطاعتها فوق كل طاعة .

ورغم حب رسول اللّه للمرأة ، فإن هذا الحب لم يُقصِّر به في أداءِ واجباته نحو ربه ، فقد كان يقومُ من الليل حتى تتفطَّرَ قَدَماه ؛ ولا نحو أمته ، فقد أعطاها من فكره ووقتِه ما رقىٰ بها فوق الأمم ، وجعلها خيرَ أمَّةٍ أخرجت للناس .

إن اللّه تعالى غرس في قلب رسول اللّه حب النساء ليدفعه هذا الحب إلى الاستكثار من الزوجات ليحقق من خلال ذلك منفعتين تعودان على الإسلام بالخير الكثير .

أما المنفعة الأولى : فهي تبليغ دعوةِ اللّهِ في الأوساطِ النسائية : إذ المسلَّم به ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ أن عملَ المرأة بينَ النساء مقبولٌ أكثر من عمل الرجُلِ بين النساء ، حتى ولو كان هذا العمل التعليم، ومن هنا كان رسولُ اللّه بحاجة إلى النساء اللاتي ينشرن الدعوة ويعلِّمن الأحكامَ بين صفوفِ النساء ، خاصة وأن من الأحكام ما يمسُّ أخصَّ خصائصِ المرأة ، ويخجل الرجلُ من ذكرها على أسماعهن ؛ وليس هناك أيسر ولا أقل كلفة من تعليم الرجل هذه الأمور لزوجته ، لأنها أقربُ الناسِ إليه ، ولا يستحي من ذكر بعض ما يخجل من ذكره أمام غيرها .

وقد كان ما رَكَّبَه اللّه في نفسِ محمد من حبِّ النساء دافعاً له لتعدد الزوجات اللاتي يقمن بمُهمةِ نشرِ الدعوة بين صفوفِ النساء ، وتعليمهن أحكام الشريعة ، فقد روت عائشة قالت: إن امرأة من

الأنصـار ـ هي : أسمـاء بنت شَكَـل ـ سألت النبيَّ عن غُسلهـا من المحيض ؟ فأمرهـا كيف تغتسل ، ثم قـال : خُذي فِـرصَةً من مسـك فتطهري بها ، قالت : كيف أتطهرُ بها ؟ قال : تطهري بهـا ، قالت : كيف أتطهرُ بها ؟ قال : سبحان اللَّه ! تطهـري بها ، ـ تقـول عائشـة ـ فاجتذبتُها إليَّ ، فقلتُ : تتبعي بها أثَرَ الدم[١] .

أرأيت كيف كـان نساءُ النبي يعلّمن النسـاءَ مـا احتجن إليـه من الأحكام .

وأما المنفعة الثانية : فهي : إنشـاء صِلاتِ مصـاهرةٍ بين بـطون قريشٍ وقبائلِ العرب لتقريب الشقَّة بينه وبينهم، وليمدَّ جسراً يُعبَر عليه إلى تلاشي الخصومة .

٢) **وأما الأسباب الخاصة** : فقد كان باستطاعة رسول اللَّه أن يختارَ زوجاته من أجملِ بناتِ العرب وأبكارِهن ليروي حبَّـه للنساء ، ويحقق بـذلك المتعة الجَسَدية العاليـة ، ولكنه لم يفعـل ، لأنه آثـر إرواءَ هذا الحب بمتعةٍ جسدية أدنى ، تحقيقاً لقيمٍ إنسانيةٍ أعلى ، ويتـأكد لنـا هذا من استقراء الأسبابِ الخاصةِ بكل زوجة من زوجاته ، التي دعته إلى الزواج منها ، وهذه الأسباب ليس منها ـ قطعاً ـ المتعة الجسدية العالية .

فهذه **خديجة بنت خويلد** ، ـ أولى زوجاته ـ كـانت قد تـزوجت قبلَ رسولِ اللَّه زوجين أولهما : عتيق بن عابد المخزومي ، وثانيهما : أبو هالة بن مالك التميمي ، وكانت يوم تزوجها رسولُ اللَّه قـد سلخت من عمرها أربعين ربيعـاً ، بينما لم يتجـاوز عُمُرُ رسـول اللَّه الخامسـة والعشرين سنة .

---

(١) البخـاري في الحيض بـاب غسـل المحيض ، ومسلم في الحيض بـاب استحبـاب استعمـال المغتسِلة فِرصة من مسك .

وهـذا يدلنـا على أن الدافـع لزواجـه عليه الصلاة والسلام من خديجة لم يكن المتعةُ الجسدية ، ولكنْ غيرُها ، فقد يكون شرفُها في قومها، وقد يكون ما عرف عنها من رجاحةٍ في العقل ، وقـد يكون مـا تتمتع به من اليسار ، وقد يكون أمراً غير هذا كله .

وهـذه عائشـة وهي الزوجـة البكر الـوحيدة التي كـانت في حياة رسول اللّه ، وزواجه بها لم يكن في فكر رسولِ اللّه لولا أن تأتيه خولةُ بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون ، بعد وفاة خديجة فقـالت له : ألا تتـزوجْ يا رسـول اللّه ؟ قال : من ؟ قـالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ، قال : فمَنْ البكرُ ؟ قالت : بنتُ أحبِّ خلقِ اللّهِ إليكَ ، عائشة ، قال: ومن الثيب ؟ قالت : سَوْدة ابنة زمعة . قال : فاذهبي فاذكـريهما عليَّ[1] . . . ثم جعل رسولُ اللّه يراها في المنام، فقد حدثت عائشةُ قالت : قال رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : «أُرِيتُكِ في المنام ثلاثَ ليالٍ ، جاءني بكِ المَلَكُ في سَرَقَةٍ ـ خرقة ـ من حريـر فيقول : هـذه امرأتُك ، فأكشفُ عن وجهِك ، فـإذا أنتِ هي ، فأقـول : إن يكُ من عندِ اللّهِ يُمضِه »[2] .

وتمت خطبته لها وعقده عليها وهي قد أتمّت الستَّ سنين وطعنَت في السابعة ، وزفت إليه وهي بنت تسع سنين ، ولعبُها معها .

وإذا علمنا أن رؤيا الأنبياء حق ، علمنا أن زواج رسول اللّه عائشة رضي اللّه عنها كان بأمرٍ من اللّه .

وهذه **سودة بنت زمعـة** ـ وهي أول امرأة بنى بهـا بعد خـديجة ـ كانت قبله عند السكران بن عمرو، فمات زوجها بعد عودتـه من هجرةٍ

(١) مسند أحمد ٦/ ٢١٠ ومجمع الزوائد ٩/ ٢٢٥ .

(٢) البخاري ومسلم في فضائل الصحابة باب فضل عائشة .

الحبشة ، فلم يبقَ لها مُعيل ، فهي إما أن تعودَ إلى أهلها فتؤذى أو تفتن في دينها ، أو تَعيشَ عالةً على المجتمع لا معيل لها ، أو تـزوَّج لغير كفْءٍ ، فضمها رسولُ اللّه إليه ، وحفظَ لها دينَها وكرامتها .

وهـذه **زينب بنت جحش الأسديـة** ـ ابنة عمـة الرسـول ـ زوّجها رسولُ اللّه مولاه زيدَ بن حارثة ـ وكان زيدٌ ابنَ رسول اللّه بـالتبني ، ثم أبطل اللّه التبني وما يترتبُ عليه من أحكام ـ فلم يطـب لها العيشُ معه ، فطلقها ، فأمر اللّهُ تعالى رسولَه صلى اللّه عليه وسلّم بالزواج من زينب ـ زوجة مُتَبَنّاه ـ تأكيداً لإلغاء أحكام التبني ، وتخفيفاً عن الناسِ من وطأةِ تـطبيق الأحكـامِ الجـديـدة في ذلـك ، قـال تعـالى في سـورة الأحزاب / ٣٧ : ﴿ فلما قضى زيدٌ منها وَطَراً زَوَّجناكَها لكيْ لا يكونَ على المؤمنينَ حَرَجٌ في أزْواجِ أدْعِيائِهم إذا قَضَوْا منهُنَّ وَطَراً وكان أَمْرُ اللّهِ مَفْعولاً ﴾ .

وهذه **أمُّ سَلَمة المخزومية** ، وكانت قبلَه عندَ أبي سَلَمة بن عبد الأسد ، وكانت مُسِنَّة ، توفي زوجُها من جُرْح جُرِحَه مع رسولِ اللّه في غزوةِ أُحُد ، فحزنت عليه حزناً شديداً ، وكان لها أولادٌ صغار ، فخطبها أبو بكر ، وربما خطبها غيره ، فلم تجب أحداً منهم ، يمنعُها من ذلك خوفُها على أولادِها ، واستسلامُها لأحزانها ، فَرَأَفَ رسولُ اللّه بحالهـا فتزوجها وكفِلَ أولادَها (١) .

وهـذه **حفصةُ بنت عمـر بن الخطاب** ، مـاتَ زوجُها خُنَيْس بن حُذافَة السهمي ، فعرضها أبوها على عثمان بن عفان لتكون له زوجة ، فاعتذر عثمانُ عنها ، ثم عرضها على أبي بكر ، فلم يردّ عليه أبو بكـر جواباً ، فذهب يشكو أمرَه لرسول اللّه ، فتزوجها رسولُ اللّه بعـد ذلك

---

(١) انظر سنن النسائي في النكـاح باب إنكـاح الابن أمَّه .

ليفرج عن عمر أمرَ زواجها ، وليمحو من نفسه هاجسَ أن ابنتَه لا راغبَ فيها[١] .

وهذه **أم حبيبة** ـ رَمْلَة ـ بنت أبي سفيان ، كانت عند عبيد اللّه بن جحش الأسدي ، أسلمت هي وزوجُها ، وفارقَتْ أهْلَها ، وهاجرت إلى المدينة المنورة ، ولما صارت الهجرة إلى الحبشة ، هاجرت مع زوجِها إليها ، ولكن زوجَهَا لم يلبث أن تنصَّر في الحبشة وفارقها وهي في دِيارِ الغربة ، فبقيت فيها وحيدة ، وعلم رسولُ اللّه بأمرِها فأرسَل إلى النجاشي ليرسلَها إليه ، فتزوجَهَا رسولُ اللّه انقاذاً لها من وحدَتِها ، ولتكون جسراً بينه وبين والدها أبي سفيان ، زعيمِ مكة .

وهذه **زينب بنت خزيمة** ، وكانت قد تزوجت زوجين قبلَ رسولَ اللّه ، أولهما : جهم بن عمرو بن الحارث ـ ابن عمها ـ والثاني عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وكانت تسمى « أم المساكين » لرحمتها إياهم ، ورقَّتِها عليهم ، فتزوجَهَا رسولُ اللّه تقديراً منه لهذه الصِّفَة ، وإعانة لها على الخير .

وهذه **ميمونةُ بنتُ الحارث** ، وكانت قبله عند أبي رُهْم بن عبد العزى ، أتت رسولَ اللّه ووهبت نفسها إليه ، حرصاً منها على نيلِ شرفِ الاقترانِ برسولِ اللّه ، فقدَّر رسول اللّه مشاعرَها وتزوَجها .

وهذه **جُوَيْرية بنت الحارث** ـ سيد قومه ـ كانت من سبايا بني المصطلق ، تزوجها رسولُ اللّه ليعتقها لئلا يكون لأحدٍ ولاءٌ عليها ـ وكان الرسولُ شديدَ الرأفةِ بِمنْ ذُلَّ بعد عزٍّ ـ وليحضَّ المسلمين على عتقِ أسراهم تأليفاً لقلوب بني المصطلق ، فأطلق المسلمون ما بأيديهم

(١) انظر البخاري في النكاح باب عرض الانسان ابنته . . . وشرح ابن حجر له .

من أسرىٰ بني المصطلق وقالوا : أصهارُ رَسولِ اللّٰه ، فأسلم القومُ .

وهذه **صفيَّة بنتُ حُيَي بن أخطب** ـ سيدُ بني النضير ـ سُبيَتْ مع من سبي في غـزوة خيبـر ، وصـارت إلى دِحْيَـةَ الكلبي ، فقيـل لرسول اللّٰه : إنها سيدةُ قومِها ، وهي ذاتُ جمال ، ولا ينبغي أن تكون لأحدٍ غيرك ، وكان رسولُ اللّٰه عظيمَ الرأفة بمن ذُلَّ بعد عـزٍّ ، فعوَّض دحيةَ غيرَها ، وأعتقها رسولُ اللّٰه وتزوَّجَها .

لم يكن الزواجُ بامرأة جديدة شديدَ الوطأة على الزوجة القديمـة في ذلك العصر بخاصة إذا كان للزواج الثاني ما يبرره ، وبخاصة إذا كان هذا المبرر عاملاً إنسانياً نبيلاً ، لا العزوف عن الزوجة القـديمة ، ومن هذا النوع كـان زواجُ رسولِ اللّٰه صلى اللّٰه عليـه وسلّم كما رأينـا فيما تقدم ، ولذلك احتفظ رسولُ اللّٰه بحب زوجاته كلِّهن ، وكان الأثيرُ عند كل واحدة منهن .

ب ـ **محمد بين نسائه** : لقد كانت شخصية مُحمدٍ الأسْرية شخصيةً فذَّةً متميزة ملتزمة ، ونستطيع أن نتبين ذلك مما يلي :

١) كـان لـرســول اللّٰه تسـعُ زوجـات، وكـان لكـل واحـدة منـهن حجرتُها الخاصة بها ، فكان رسولُ اللّٰه إذا صلى العصر زار كلَّ واحدةٍ منهن في حجرتها، واطلع على حالها ، وقضى لها حوائِجها إن كانت بحاجة لشيء ، فإذا كان الليلُ آوى إلى من كانَتْ نوبتُها في المبيت .

وكان يجمعُ زوجاتِهِ كلَّهن في بيتِ صاحبةِ النوبة ، فيجلس بينهن فيأنَسْنَ به ويأنس بهن ، حتى إذا كان المبيتُ عـادت كلُّ واحـدة منهن إلى حجرتها وبات هو عند من كانت نوبتها[١] .

(١) انظر سنن أبي داود في النكاح ، باب القسم بين النساء .

٢) وكان عليه الصلاة والسلام يقسم بين نسائه في أمرين : المبيت والنفقة ، فمن كانت نوبتُها جلسَتْ بجانبه ، وأمتَعَتْه واستمتعت بنحو أخذِ يدِه بين يديها أو وضع رأسِه في حجرها ، روى مسلم عن أنس قال : كان للنبي تسعُ نسوة ، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى المرأةِ الأولى إلا في تسعٍ ، فكنَّ يجتمعْن كلَّ ليلةٍ في بيت التي يأتيها ، فكان في بيت عائشة ، فجاءت زينب ، فمدَّ يده إليها ، فقالت عائشة : هذه زينب ، فكفَّ النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلّم يده[1] .

وحدث بين رسولِ اللَّه وبين صفِيَّةَ شيءٌ فوجد رسولُ اللَّه عليها ، فقالت صفيةُ لعائشة : هل لكِ أن تُرضي رسولَ اللَّه عني وأهبَ لكِ يومي ؟ قالت : نعم ، فقعدت عائشةُ إلى جنبِ النبي في يوم صَفيّة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إليكِ عني يا عائشة ، فإنه ليس يومُك » فقالت : ذلك فضلُ اللَّه يؤتيه من يَشاء ، وأخبرته الخبر فرضي عنها[2] .

وكان المبيتُ حق كلِّ واحدة منهن ، ولذلك كان رسولُ اللَّه يراعي الدقة في المساواة فيه، وطالما هو حق ، فمن حقِّ كل واحدةٍ منهن إسقاط حقها فيه، وعندئذ إن شاء رسولُ اللَّه قسم لها في المبيت ، وإن شاء لم يقسم . ومن هنا رأينا أم المؤمنين سودةَ بنت زمعة لما كبرت ولم تعدْ لها حاجة بالرجال تنازلت عن ليلتِها في المبيتِ لعائشة ، فجعل رسولُ اللَّه القَسْم بين ثمانية من نسائه ، وهن الباقيات عدا سَوْدَة ، وكان يخصُّ عائشةَ بليلتين ، ليلتها وليلة سَوْدَة بنت زمعة[3] .

---

(١) البخاري في الرضاع باب القسمة بين الزوجات .

(٢) ابن ماجه في النكاح باب المرأة تهب يومها لزوجها .

(٣) انظر الحديث في البخاري في النكاح ، وفي مسلم في الرضاع .

وطالما هو حق لهن فليس له أن يُسقط حقَّ واحدةٍ منهن فيه دون أن تأْذَنَ هي بذلك ، ولذلك رأيناه عليه الصلاة والسلام عندما ثقل به مرضُه **يستأذنُ نساءَه ليمرَّض في بيت عائشة** ، قالت عائشة : إن رسول اللَّه بعثَ إلى النساء ـ تعني في مرضه ـ فاجتمَعْن ، فقال : إني لا أستطيعُ أن أدورَ بينكن ، فإن رأيتُنَّ أن تأذنَّ لي فأكون في بيت عائشة فَعَلتُنَّ ، فأَذِنَّ له[(١)] .

ولما كانت **العروس** بحاجة إلى وقتٍ لتألَفَ زوجَها وتسعَدَ به ، ولما كانت البكرُ تحتاج إلى وقت أطول من وقتِ الثيِّبِ لتحصل هذه الألفة فإن رسولَ اللَّه كان إذا تزوَّج خصَّ البكرَ بسبعِ ليالٍ ، والثيبَ بثلاث ، ثم يعودُ بعدها إلى القَسْم ، وقد أقام رسول اللَّه عند صَفِيَّة ثلاثاً عندما تزوجها[(٢)] ، ولما تزوجَ أمَّ سلمة أقامَ عندها ثلاثاً ، ولما أراد أن يخرُج أخذت بثوبه ، فقال لها: «إن شئتِ زِدْتُك وحاسبتُك به ، للبكر سبع وللثيب ثلاث»[(٣)] .

ولما كانت الزوجة تحب أن تكون مع زوجها في كل أحيانه ، في سرّائه وفي ضرائه ، فإن كان في سرور شاركته مسراته ، وإن كان ضرّ اطمأنت عليه أولاً بأول ، فإن رسول اللَّه كان إذا أراد سفراً أقرعَ بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه[(٤)] .

٣) **أما الجماع** : فقد كان رسول اللَّه لا يساوي بين نسائه فيه ، بل كان يراعي فيه حالةَ كلٍّ واحدة منهن ورغبتَها فيه ، لاختلافِ طبائعِ النساء في ذلك ، وهذا كان يستدعي من رسول اللَّه في بعض الأحيان أن

---

(١) أبو داود في النكاح باب القسمة بين النساء .
(٢) أبو داود في النكاح باب المقام عند الكبر .
(٣) مسلم في الرضاع باب قدر ما تستحقه البكر والثيب .
(٤) البخاري في الهبة باب هبة المرأة زوجها .

يطوف عليهن كلّهن ويجامعهن في ليلة واحدة[١] ، وقد أعطاه اللّه تعالى من القوة الجنسية ما يمكّنه من هذا[٢] .

٤) وكان عليه الصلاة والسلام يراعي **الفروقَ الفردية** بين زوجاتِهِ ، فمن كانت منهن ذات حِدَّة في طبعها - كسودَة بنت زمعة[٣] - صَبَر على حِدَّتها ، ولم يتخذ هذه الحِدَّة سلاحاً ضدها ؛ ومن كانت منهن طفلةً لم يكتمل عقلُها - كعائشة حين تزوجها - راعى فيها متطلبات الطفولة ، فقد زُفَّت إليه رضي اللّه عنها ولعبُها معها[٤] ، وكان عليه الصلاة والسلام يسمح لها باللعب بألعابها ، بل كان يسرِّب لها بناتِ الأنصار ليلعَبْن معها ، وقد دخل عليها مرة وهي تلعبُ بفرسٍ وله جَنَاحان ، فقال لها : ما هذا ! أفرسٌ وله جناحان ؟ قالت : أما سمعتَ أن نبيَّ اللّه داود كان له فرسٌ وله جناحان .

وكان رسول اللّه إذا رآها هويت شيئاً لا مَحْذور فيه تابعها عليه ، فقد مكنها من رؤية الحبشة وهم يلعبون في مسجده عليه الصلاة والسلام، وهي متكئة على منكبه تنظر إليهم، وقال لها يوم بدر: تعالي أسابقك ، فشدت درعها على بطنها ، ثم خطّا خطاً فعاجا عليه ، فاستبقا ، فسَبقها رسول اللّه ، فقال : هذه مكان يوم ذي المجاز ، وذلك أن أبا بكر بعث معها بشيء - وهي جارية - فقال لها رسول اللّه : أعطنيه ، فأبت ، فسعت، وسعى على أثرها فلم يدركها[٥]، وتدافعت معه عليه الصلاة والسلام عند خروجِهما من المنزل[٦] .

---

(١) البخاري في النكاح باب كثرة النساء ، والنسائي في الطهارة باب إتيان النساء قبل إحداث غسل .

(٢) البخاري في الغسل باب إذا جامع ثم عاد ، والنسائي في أول كتاب النكاح .

(٣) انظر البخاري في النكاح باب هبة المرأة لغير زوجها .

(٤) مسلم في النكاح باب تزويج الأب البكر الصغيرة .

(٥) أزواج النبي ص ٣٠ لابن زبالة .

(٦) زاد المعاد ١٥٢/١ .

٥) وكان عليه الصلاة والسلام لا يرى **غضاضة في مساعدة زوجاته في بعض الأعمال البيتية** قال الأسود : قلت لعائشة : ما كان رسول اللّه يصنع في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى[١] وسئلت رضي اللّه عنها : ما كان رسول اللّه يعمل في بيته ؟ قالت : كان بشراً من البشر ، يفلّي ثوبَه ، ويحلبُ شاتَه ، ويخدم نفسه[٢] .

٦) وكان عليه الصلاة والسلام إذا عاد من سفره **يُعلِمُ أهلَه بوصوله** ، فقد كان مرة في غزوة، فلما قفلَ منها راجعاً وَوَصَلَ الجَرْفَ قال : لا تطرقوا النساء تغتروهن ، وبعث راكباً إلى المدينة يخبرهم أن الناس يدخلون بالغداة [٣] وإنما فعل ذلك رسول اللّه لتستعدَّ النساءُ لاستقبال أزواجِهِن فتمتشط التَّفِلَة الشعْثة وتستحِدّ المغيبة [٤] .

جـ ـ **المشكلات التي واجهها كزوج** : لقد عاش رسول اللّه حياة عاديّة مع زوجاته ، فيها الحلو وفيها المرُّ ، وكان لا بد من أن تثور بعضُ المشاكل ، ولكن رسول اللّه كان في كل مرة يطوِّق هذه المشاكلَ ويقضي عليها بما عُرف عنه من الحكمة .

ويمكننا تصنيف المشاكل التي واجهها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم كزوج إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : مشكلات اقتصَادية : إذ المعروف أن رسول اللّه كان يعيشُ عيشةَ الفقراء ، ومع انه كان باستطاعته أن يأخذ من مال الفيء ما شاء ، يُوسِّعُ به على عياله ، إلاَّ أنه كان يفضل أن يعيش عيشة الكَفاف وينفقَ هذا المالَ بما يعودُ على الأمة بالنَّصر، حتى تضافرت الأخبار عن

---

(١) مسند أحمد ٦/١٢٦ .
(٢) شمائل ابن كثير ١/٧٨ .
(٣) عبد الرزاق برقم ١٤٠١٦ .
(٤) جامع الأصول برقم ٣٠٢١ .

عائشة وأبي هريرة وغيرهما أنه ما شبع محمدٌ ولا آل مُحمدٍ من طعام ثلاثةَ أيام تباعاً حتى قُبِضَ[١] .

ومهما قلنا في نساءِ النبي ، فإننا لا نستطيعُ أن نتجاوز بهن صفاتِ البشر ، ولا تطلُّعاتِ البشر ، ولا شهوات البشر ، وقد اجتمعن يوماً وسألْنَ رسول اللَّه النفقةَ ، وجلس رسولُ اللَّه مكروباً ، فدخل عليه أبو بكر وعمر ، ورسولُ اللَّه ساكت ، فقال عمر : لأكلمَنَّ النبيَّ لعله يضحَكُ ، فقال عمر : يا رسول اللَّه لو رأيت ابنة زيد ـ هي زوجة عمر ـ سألتني النفقةَ آنِفاً ، فوجأتُ عُنُقَها ، فضحك النبيُّ حتى بدت نواجذه ، وقال : هنَّ حولي يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى ابنتِهِ عائشة ليضربَها ، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبيَّ ما ليسَ عنده !! فنهاهما رسولُ اللَّه عن ضربهما . . .

ما كان لرسول اللَّه أن ينكر حقَّهُن في النفقة ، ولكنه أيضاً ما كان له أن يقدِّم حقَّ نسائِه في النفقة على حق الإسلامِ والأمَّة في النصر . . . ثم إن معنى أن تكون الواحدةُ منهن زوجةً لرسول اللَّه وأماً للمؤمنين، مساعدة رسول اللَّه على تحملِ مسؤولياتِهِ وتقدير تضحياتِهِ كقائدٍ لمسيرة النصر ، لا معيقاً له في تحركه نحو النصر .

ولما كان اللقاءُ مستحيلاً بين المطلبين : مطلب النفقة للاستمتاع بزخارفِ الحياة الدنيا ، ومطلب التضحية وتحمّل المسؤولية في قيادةِ مواكبِ الدعوة نحو النصر ، كان على رسول اللَّه أن يتخذَ القرارَ الحاسِمَ الواضح ، وتخيير نسائِه باختيار أحدِ المطلَبين ، ونزل قوله تعالى في سورة الأحزاب ٢٨ ـ ٢٩ : ﴿يا أيُّها النبيُّ قُلْ لأزْواجِكَ إنْ كنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنيا وزينَتَها فتَعَالَيْنَ أمتِّعْكُن وأسرِّحْكُن سَراحاً جَميلاً ﴿ وإن كنتُن تُرِدْنَ

(١) البخاري في الرقاق ، ومسلم والترمذي في الزهد .

اللَّهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن اللَّهَ أَعَدَّ للمُحْسِنـاتِ منكُنَّ أجراً عـظيماً ﴾ فقال رسول اللَّه لعائشة : يا عائشة إني عارضٌ عليكِ أمراً فلا تفتاتي فيـه بشيءٍ حتى تعرضيه على أبـويكِ . . . وقـرأ عليها مـا نزل عليـه في الآية السابقة ، فقالت : إني أريدُ اللَّهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرة ، ولا أؤامر بذلك أبويّ .

ثم أعلم رسولُ اللَّه بقيةَ نسائه بقرارِ عائشة ، فقلن جميعاً : ونحن نقول كما قالت[١] .

وهكذا حل رسولُ اللَّه هذه المشكلة بالموقف الحـازِم غير المتـردد في ترجيح مصلحة الدعوة والجماعة .

الصنف الثاني: مشكلات سببها الغيرةُ بين النساء، ونحن نذكر من ذلك ثلاثة أنماط من حوادث ، حملت ثلاثـةَ أنماط من الحلول ، تُـظهر حكمة رسول اللَّه وعبقريته في حل المشكلات :

النمط الأول : كـان لرسـول اللَّه أمة هي « مـاريـة » وهي أم ولـده إبراهيم ، وقد حدث مرة أن أصابها في بيتِ زوجته حفْصَة ، فثارت ثائرةُ حفصـة وقالت : يـا نبيَّ اللَّه لقد جئتَ إليّ شيئـاً مـا جئت إلى أحـدٍ من أزواجِك ، في يومي وفي دَوْرِي وعلى فِراشي ! فقال لها رسولُ اللَّه: ألا ترضين أن أحرِّمَها فلا أقربها ؟ قـالت : بلى ، فحرَّمَهـا ، وقال لهـا : لا تذكري ذلك لأحد ، فذكرتْه لعائشة ، فأظهره اللَّه عليه ونزل قوله تعالى في أول سورة التحريم : ﴿ يا أيها النبيُّ لِمَ تحرِّم ما أَحَلَّ اللَّهُ لك تَبْتَغي مَرْضاةَ أَزْواجِك واللَّهُ غفورٌ رحيم * قد فَرَضَ اللَّهُ لكم تحلَّة أيمانِكم واللَّهُ مَوْلَاكُم وَهُوَ العليم الحكيم ﴾[٢] .

---

(١) انظر تفسير القرطبي وابن كثير للآيتين ٢٨ و ٢٩ من سورة الأحزاب .

(٢) انظر تفسير ابن كثير لهذه الآية .

● كـان رسـول اللَّه يحبُّ الحلوى ، وكـان إذا صلى العَصْـر طـافَ على نسائه ، وكان عندما يدخل على زوجته زينب بنت جحش تسقيه عَسَلاً ، فدخل عليها مرَّة، ومكثَ عندها أكثرَ مما كان يمكث، فتواطأت عائشةُ وحفصةُ على أن تقولَ كلُّ واحدةٍ منهما لرسول اللَّه عندما يدخل عليها: إني أجدُ منك ريحَ مَغَافير، فلما دَخل على إحداهمـا قالت لـه ذلك ، فقال : لا ، بل شربتُ عسلاً ولن أعودَ له ، فلا تخبري بذلك أحداً ، فنزلَ قولَه تعالى في أول سورة التحريم : ﴿ يـا أيها النبي لِمَ تحـرِّمُ ما أحلَّ اللَّه لك . . . ﴾ الآيات .

ولا مانع أن يكون سبب نزول هذه الآيات أكثر من حادثة واحدة .

في الحـادثة الأولى نـرى الزوجـة حفصة ثـائِـرة ، بـل هي في ذروة ثـورتها ، ويبعـد كل البعـد ـ وهي كذلـك ـ أن تقبلَ من زوجهـا أي تبريـر لعمله ، بخاصة تلك الأمور التي يدركها النساءُ بحـاسة مختلفـةً عن حاسـة الرجال ، وان عرض الحقِّ في ظلِّ تلك الثورة ، يجعلُ الحقَّ مرفوضاً ، وإن الإصرار عليه ـ في مثل هذا الجـو ـ قد يؤدي إلى الخـراب ، ولذلـك كان أفضلُ حلٍّ للمشكلة هو المداراة ، حتى إذا ما هدأت الثورةُ ، وعادَ العقـلُ إلى التحكم ، أمكن قبـولُ الحق ، وهذا مـا فعله رسـولُ اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه ، لقد سايرَ حفصَةَ بتحريم مارية عليه ، ولما هدأت النفوسُ ، وعاد سلطانُ العقل ، قال كلمة الحق ، وهي أن اللَّه أحلَّ ماريـة له ، ومـا أحله اللَّه فليس لأحدٍ أن يُحرِّمَه إرضاء لمخلوقٍ . .

وقبلت حفصة الحكم بنفس رَضِيَّة .

وفي الحادثة الثانية : واجه رسولُ اللَّه مؤامرة مـدبّرة ، وإصـراراً على الباطل ، ومقابلةُ هذا الإصرار بإصرارٍ مثله قد يفجِّرُ مُشكلة ، وأسلمُ حَلّ ٍ هو المداراة ، وحَنيُ الرأسِ إلى أن تمر العاصفة ، وهذا ما فعله رسولُ اللَّه حين وعدَهن بأن لا يشربَ عَسَلاً بعد الآن ، وما أن مـرّت العاصفـةُ حتى داوى

رسولُ اللَّه قلوبَهن بدواء الإيمان، فكان الحقُّ عندَهن أحبَّ إليهن مما سواه.

وهكذا ساهم الوحي في تكوين الشخصية الاجتماعية للرسول صلى اللَّه عليه وسلّم، بإرشاده إلى التصرف السليم.

النمط الثاني: روى أنسُ بن مالك قال: كان للنبي تسعُ نسوة، وكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلَّا في تسع، فكن يجتمعن كلَّ ليلة في بيت التي يأتيها، فكان النبي في بيت عائشة، فجاءت زينبُ، فمدَّ يده إليها، فقالت: هذه زينب، فكفَّ النبي صلى اللَّه عليه وسلّم يده، فتقاوَلَتا حتى استَحْثَتا - أي حتى رَمْت كلُّ واحدةٍ الترابَ في وجه الأخرى - وأقيمت الصلاة، فمرّ أبو بكر على ذلك، فسمع أصواتَهما، فقال: اخرُجْ يا رسول اللَّه إلى الصلاة، واحثُ في أفواهِهن الترابَ، فخرج رسولُ اللَّه، فقالت عائشة: الآن يقضي رسولُ اللَّه صلاته، فيجيءُ أبو بكر فيفعل بي ويفعلُ، فلما قضى رسولُ اللَّه صلاته، أتاها أبو بكر - أبوها - فقال لها قولاً شديداً، وقال لها: أتصنعين هذا[1]؟!

ونحن نرى أن رسولَ اللَّه لم يباشر معالجةَ الموقف في قمة ثورته، وترك علاجَه لأبي بكر، لأن الدافع لكل واحدة من المتخاصمتين هو حبّ رسول اللَّه، ولا يجوز أن يكون الحب سبباً لإساءَة محبوبها إليها، فلا يُجزى الإحسانُ بالإساءَة.

ولم يكن رسول اللَّه يكتفي بهذا فقط بل كان عليه الصلاة والسلام يحول بين هذا الطرف الثالث - حتى ولو كان أباً - وبين الإساءة إلى الزوجة، وبذلك تشعر هذه الزوجة أن زوجها رسول اللَّه أرأف بها من أبيها، فقد استأذن أبو بكر على النبي صلى اللَّه عليه وسلّم، فسمع صوت عائشة عالياً على رسول اللَّه، فلما دخل تناولها ليلطمها، وقال: ألا أراك ترفعين

---

(١) مسلم في الرضاع باب القسم بين الزوجات.

صوتك على رسول الله !! فجعل النبي يحجزه ، وخرج أبو بكر مغضباً ، فقال رسول الله حين خرج أبو بكر : كيف رأيتِني؟ انقذتُك من الرجُلِ [١] .

النمط الثالث : كان عليه الصلاة والسلام لا يسمح لواحدةٍ من زوجاتِه أن تَنْتَقِص زوجة أخرى في حضوره ولو كان ما قالته فيها حقاً ، فإذا ما حصل ذلك في حضوره عليه الصلاة والسلام فإنه سرعان ما يذكر من محاسن الزوجةِ المطعونِ فيها ما يرفع من شأنها، ويغطي النقيصة التي فيها، ويذكر من نقائص الزوجة الطاعنة ما يُذهِب غرورَها ، لتشعر كل زوجة من زوجاته عليه الصلاة والسلام بالأمان عنده ، وبأن لها من المكانة في قلبه ما لا يسمحُ لأحدٍ من انتقاصها أمامه ، فقد حدث أن ذكرَ رسولُ الله زوجته خديجة بحضرة عائشة ، فقالت عائشة : وهل كانت خديجة إلَّا عجوزاً ، أبدلَكَ اللَّهُ خيراً منها ، فقال لها رسولُ الله مغضباً : لا والله ما أبدلني اللَّهُ خيراً منها ، لقد آمنَتْ بي إذ كَفَرَ الناسُ ، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناسُ ، وواستني بمالها إذ حرمَني الناسُ ، ورزقني اللَّهُ منها الوَلَدَ دون غيرها من النساء [٢] .

الصِنف الثالث : مشكلات سببُها الحقدُ على الإسلامِ ورسولِ الإسلام ، وغايتها : النيل من رسولِ الله ﷺ وتفريقِ الناسِ عنه . وذلك ما حدث في قصة الإفك ، وخلاصتها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم عبأ أصحابَه من مهاجرين وأنصار وسار بهم لغزو بني المصطلِق وكان في الجيش رأسُ المنافقين عبد الله بن أبَيّ بن سلول ، وفي طريق العودة نزل رسولُ الله بجيشه على ماء ليستريحوا ويتزودوا ، وتزاحم الناسُ على الماء ، فاستغل ابن سلول هذا الازدحام وأخذَ يحرِّضُ الأنصار على المهاجرين ، وجعل يقول : « قَدْ نَافَرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما نحن وجلابيبُ قريش هذه ـ يريد المهاجرين ـ إلَّا كما قال الأوَل : سَمِّن كلبَكَ

---

(١) شمائل الرسول لابن كثير ٨٢ .

(٢) عبقرية محمد ١٠٨ .

يأكلْك . . . » ثم أقبلَ على الأنصار يقول لهم : « هذا ما فعلتُم بأنفُسِكم ، أحلَلْتموهم بلادَكم ، وقاسمْتُموهم أموالَكم ، أما واللَّه لـو أمسكْتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غيرِ دارِكم »[1] يريد بهذا أن ينشقَّ الجيشُ على بعضه ، ويضربَ بعضُهُ رقابَ بعض .

وبلغَ الأمرُ رسولَ اللَّه ، فتلافى الموقف بحكمته ، ولم يحدث ما أرادَه ذلك المنافق ابن سلول ، فامتلأت نفسه غيظاً .

وتابع الجيشُ سيره نحو المدينةِ المنورة ، حتى إذا كان قريباً منها نزل رسولُ اللَّه بالجيش منزلاً ، فباتَ فيه بعضَ الليل ، وخرجت السيدةُ عائشة ـ وكانت في مؤخّرة الجيش ـ لتقضيَ حاجَتَها ، وكان في عُنُقِها عقداً تحبُّه ، فسقط منها العقد ، ولما رجعت إلى رَحْلها افتقدت العقد ، فرجعت لتبحثَ عنه ، وأثناء ذلك تحرك الجيشُ ، وحمل الناسُ هودجَ عائشة وشدوه على بعيرها ظانين أنها فيه ، وسار الجيشُ ، ولما رجعت عائشة رأت أن الجيشَ قَد سَبَقَهَا ، فجلست تنتظر حتى يفطنوا إليها ويعودوا لأخذِها ، وفيما هي كذلك ، إذ مرّ بها صفوان بن المعطّل فأناخ لها راحلته ، فركِبت ، وأخذ هو برأسِ الناقة يقودها ، فلما اقتَربَا من الجيش ورآهما ابنُ سلول قال في نفسه: الآن أدركُ ثأري من محمد ، وأنالُ منه ما لم استطع أن أنالَه بالأمس يوم حاولتُ شقَّ جيشه وضربَ بعضه ببضع ، وأخذ يشيع بين الناس أن صفوانَ بن المعطّل قد تواعد مع عائشة على التخلف عن الجيش لينال منها . وسرت هذه الشائعة سريانَ النارِ في الهشيم ، وبلغ ذلك رسولَ اللَّه . ولما عادت عائشةُ إلى المدينة المنورة مرضَتْ مرضاً شديداً ، فلم ينقطع رسولُ اللَّه عن زيارتها والسؤال عنها ـ رغم ما أشيع عنها ـ .

وأخذ رسولُ اللَّه يتحرى حقيقةَ هذه الإشاعة ، ويسألُ ـ في سرِّيَّةٍ

(١) سيرة ابن كثير ٣/٢٩٩ .

تامَّةٍ ـ عن أخلاق عائشة وسلوكِها وهل رُئيَ عليها شيء ؟ فكـانت شهادات الجميعِ عليها بالاستقامة والخلق والتقوى .

ولم ينس رسـولُ اللّه أن يتحرى حقيقـة هذه الإشـاعةِ مـع عـائشـة ـ المدعى عليها ـ وقال لها فيما قال : « يا عائشةُ فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئةً فسيبرئكِ اللّه ، وإن كنت ألمَمْتِ بذنبٍ فاستغفري اللّه وتوبي إليه ، فإن العبدَ إذا اعترَفَ بِذَنْبِه ثم تاب تابَ اللّهُ عليه » فقالت عائشة : إني واللّه لقد علِمتُ أنكم سمعتم ما تحدَّث به النـاسُ حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتُم به ، ولئن قلت لكم إني بريئة ـ واللّه يعلم أني لبريئة ـ لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفتُ لكم بأمر ـ واللّه يعلم أني بريئة ـ لتصدِّقُنّي ، فواللّه ما أجدُ لي ولكم مثلاً إلاَّ أبا يوسف إذ يقول : ﴿ فَصَبْرٌ جَميـلٌ واللّهُ المُسْتَعَانُ على مَـا تَصِفُون ﴾ فمـا رام رسولُ اللّه مجلسَـه ، ولا خرج أحـدٌ من أهلِ البيتِ حتى أنزلَ اللّهُ على نبيه ما يثبت براءَة عائشة، فكان أول كلمة تكلم بها رسولُ اللّه أن قال : يا عائشة أحمَدي اللّه ، أبشري يا عائشة ، أمّا اللّهُ فقد بَرَّأكِ، وتلا الآيات العشر من سورة النور/١١ : ﴿إن الذينَ جاءُوا بالإفك عُصْبَةٌ منكم . . . ﴾ .

فقـالت لها أمهـا: قومي إلى رسـول اللّه، فقالت عـائشة: لا واللّه لا أقومُ إليه ، ولا أحمدُ إلاَّ اللّه ، هو الذي أنزَلَ براءَتي[١] .

مما تقدم نرى أن رسولَ اللّه كان يواجه المشاكِـلَ الأسْريـة التي تنشأ بأساليبَ متعددة تتناسب مع طبيعة هذه المشكلة .

فكان أحياناً يعالجُها بموقفٍ حازمٍ يتخذُ القرارَ فيه هو بنفسِه ، كمنعه انتقاص زوجَةٍ من زوجاتِهِ زوجةً أخرى ، وأحياناً يعالجُها بموقف حازمٍ تتخذ

---

(١) انظر القصة بطولها في البخاري في تفسير سورة النور ، وفي مسلم في كتاب التوبة .

القرار فيه زوجاته ، كما هو الحال عندما طالبنه بالنفقة ، فَخيَّرهُن بالرضى بالواقع واحتساب الأجر يوم القيامة ، وبين الطلاق .

وكان أحياناً يعالجها بالمداراة ومسايرة الزوجات ـ حين لا يكون في ذلك مظلمة لأحد ـ إلى أن يهدأ الاعصار وتذهب الثورة ، ثم يعود بهن إلى الحق عوداً رفيقاً .

وكان أحياناً يعالجها بترك حَلِّها لشخص آخر عندما تقتضي الحكمةُ ذلك ، كما هو الحال عندما رأى أبو بكر ابنته عائشة تتصرف تصرفاً لا يليق ويعلو صوتُها بحضرة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم .

وكان أحياناً يعالجُها بالتروي وعدم التعجل ، والتحقيق الهادىء ، ليكون قراره في ذلك عادلاً وغير جارح للزوجة ولا لأهلِها .

وتلك حكمة لا تجدها في زوجٍ إلَّا في نبي .

٣ ـ محمد السيّد :

قال أبو عبيدة : كان لرسول اللَّه أربعٌ من السراري : مارية وهي أمُّ ولده إبراهيم ، وريحانة ، وجارية أخرى جميلة أصابها في بعض السبي ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش(١) .

وكان له عليه الصلاة والسلام العديدُ من الموالي نذكر منهم من الرجال: زيد بن حارثة بن شراحيل ، وثوبان ، وأَنْجَشَة ، وسَفينة بن فروخ واسمه « مَهْران » . ومن النساء : سلمى « أم رافع » وميمونة بنت سعد ، وميمونة بنت أبي عسيب ، وخضرة ، ورضوىٰ ، وأم ضميرة ، ورُزينة .

وكان يخدم رسول اللَّه جماعة ، فكان أنس بن مالك على حوائجه ،

---

(١) زاد المعاد ١/ ١١٤ .

وعبد اللّه بن مسعود صاحب نعله وسواكه ، وعقبة بن عامر الجهني صاحب بغلته يقود به في الأسفار ، وأسلع بن شريك صاحب راحلته ، وبلال بن رباح مؤذنه، وأيمن بن عبيد على مطهرته وحاجته. وإن معاملة الإنسان لمواليه وخدمه تعتبرُ أدقَّ مقياسٍ لنفسية هذا الإنسان ، لأنها لا رادع له فيها إلَّا رادع الخُلُق والدين .

ونحن وإن كنا لا نعرفُ الكثيرَ من سيرة رسول اللّه مع هؤلاء الأرقاء كلهم ، إلَّا أننا نعلم علمَ اليقين أن محمداً لم يضربْ رقيقاً قط ، ونعلم من الوقائع والمؤشرات ما يمكّننا من رسم صورة واضحة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم مع مواليه وخدمه .

وأول هذه الوقائع : يوم حرَّم رسولُ اللّه ماريةَ ـ أم ولده إبراهيم ـ على نفسه إرضاءً لزوجته حفصة بنت عمر ، رضي اللّه عنها ، انطلاقاً من أن الأمَةَ لا حَقَّ لها في الوطء ، ورغم أن رسول اللّه لم يظلمْ مارية ، ولم يسلبْها شيئاً من حقوقها ، إلَّا أن القرآن نزل مسدداً رسولَ اللّه بقوله تعالى في سورة التحريم : ﴿ يا أيها النبيّ لمَ تحرِّمُ ما أَحَلَّ اللّهُ لك تبتَغي مَرْضاةَ أزواجِك ﴾ حيث اعتبر تحريم وطء مارية على نفسه من غير جرم جنته ، إرضاءً لحفصة بنت عمر ، مجانبةً للحق الذي لا يليق بالنبي الإقدام عليه .

واستجاب النبي صلى اللّه عليه وسلّم لأمر رَبِّه ، وعاد إلى وطءِ مارية .

وثانية هذه الوقائع : يومَ مات إبراهيم ولد رسول اللّه من أمته مارية ، حيث اشتد حزنُ رسولِ اللّه عليه ، وسفحت عيناه الدموعَ ، ولم يقلّ حزنه على إبراهيم يوم مات عن حزنه على عبد اللّه يوم مات ، ولم يُراوده أيُّ هاجِسٍ شيطاني ليقول له : هذا إبراهيم ابنُ أمَةٍ ، وهذا عبد اللّه بن سيدة من أكرم بيوتاتِ العرب .

ويوم رأت مارية أن ابنها إبراهيم لا يقلّ عند رسول اللّه عن باقي أبنائه من

خديجة، نسيت أنها أمَةٌ رقيقة، ولم تعد تذكر إلاّ أنها أمٌ لولدٍ من أولاد رسول اللَّه .

وثالثة هذه الوقائع : يوم أعتق رسولُ اللَّه زيدَ بن حارثة ، وتبناه ـ يوم كان التبني مشروعاً ـ وسماه زيد بن محمد ، ثم زوَّجه ابنة عمتِه زينبَ بنت جحش الأسدية ، ولما ظهر الشقاقُ بينهما ، حمل رسول اللَّه همومَ زيد ، وتدخل أكثرَ من مرَّةٍ للإصلاح بين الزوجين ، ولما رأى أن لا رجاء في الإصلاح بينهما طلَّقها زيد ، وزوجه الرسولُ أم أيمن ـ حاضنةُ رسولِ اللَّه ـ فولدت له أسامة .

ولكي نتصور حبَّ زيد لرسول اللَّه يكفينا أن نعلم أنه فضَّلَ البقاء معه على الذهاب مع أبيه يوم قدم مع كعبِ بن شرحيل الرسولَ بفدائه على أن يعطيَهما إياه ، فقال رسول اللَّه لأبيه حارثة : فهلا غير ذلك ؟ قال : ما هو ؟ قال : ادعوه فخيِّروه ، فإن اختاركم فهو لكما بغيرِ فداءٍ ، وإن اختارني فواللَّه ما أنا بالذي أختارُ على من اختارني أحداً ، قالوا : قد زِدْتَنا على النَّصَفِ وأحسنتَ .

فدعاه رسول اللَّه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبي وهذا عمي ، قال : فأنا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ محبتي لك ، فاخترني أو اخترْهما ، فقال زيد : ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً ، أنت مني بمنزلةِ الأبِ والعمِّ ، فقالا : ويحك أتختارُ العبوديَّة على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهلِ بيتك ؟ قال : نعم ، إني رأيتُ من هذا الرجلَ شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً[١] .

لم يكن عطفُ محمدٍ على زيد بن حارثة وحسنُ معاملته له من باب عطفِ الكبيرِ على الصغير ، لأنه لم يكن فارقُ السنِّ بينهما سوى عشر سنوات ،

(١) الاصابة وصفة الصفوة في ترجمة زيد بن حارثة .

فهو أصغر من رسول اللّه بعشر سنوات ؛ ولا من باب الإعجاب بجمال الصورَة ، لأن زيداً كان قَبيحَ الصورة ، فهو رجل قصيرٌ آدم شديد الأدمة في أنفِهِ فَطَس ؛ ولا من باب تبادُلِ المصالح ، لأننا نذكر أن زيداً عبدٌ لمحمد ، فلم يبق إلَّا النفسُ الكبيرةُ التي تتعالى عن السّفاسِفِ ، وتنال ما تريد بالحبِّ والإحسان ، تلك هي نفس محمد صلى اللّه عليه وسلّم .

هذه النفس لا ترى إنساناً فوق إنسان إلَّا بما يقدمه من خير ويصنعه من معروف ، هذه النفس التي لا ترى فيما أعطِيَتْ من النبوة إلَّا زيادةً في المسؤولية التي يكتنفها الكثير من التقصير ، ولذلك كان رسول اللّه لا يأنف من السير إلى خدّامه ليزورَهم في بيوتهم ، فيمكث فيها ويداعب أطفالَهم ، ويُدخِل المسرةَ على نفوسهم ، قال أنس بن مالك ـ خادم رسول اللّه ـ : دخل النبي عليه الصلاة والسلام على أمي فوجد أخي أبا عُمَيْر حزيناً ، فقال : يا أمَّ سُلَيم : ما بال أبي عُمَيْر حزيناً ، فقالت : يا رسول اللّه مات نُغَيْرُه ـ طائر كان يلعب به ـ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : أبا عُمَيْر . . . ما فعل النغير[1] ؟ وكان كلما رآه قال له ذلك .

٤ ـ محمد في المجتمع :

إن الحديث عن محمد في المجتمع حديثٌ يطولُ ، ولن أستطيعَ إيفاءَه حقَّه في هذه الدراسة المختصرة ، ولذلك فإني سأحاولُ إقامةَ بعضِ المعالم الاجتماعية في حياةِ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، لأصل بينها بخيطٍ ذهبي رفيعٍ ؛ لعلّي استطيعُ رسمَ صورةٍ تقريبيَّة لرسول اللّه في مجتمعه، لأن الصورة الكاملة ـ فيما أعتقد ـ لا يمكن رسمُها إلَّا بالمسْحِ الشامِلِ لجميع المواقِفِ

(١) البخاري في الأدب باب الانبساط للناس ، ومسلم في الأدب باب استحباب التحنيك ، وأبو داود في الأدب باب الرجل يتكنى وليس له ولد .

الاجتماعية في حياته عليه الصلاة والسلام .

أ ـ **اختلاطه بالمجتمع** : لم يكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم منطوياً على نفسه ، قابعاً في بيته ، لأن هذا الانطواءَ على النفسِ واعتزالَ المجتمع يتنافى أساساً مع مهمتِهِ كرسولٍ للناس ، بل كان عليه الصلاة والسلام يختلطُ بالناس في أسواقهم ، ويزورهم في بيوتهم ، وقد تقدم في الفقرة السابقة كيف زار عليه الصلاة والسلام أمَّ أنس بن مالك في بيتها ، وزار عليه الصلاة والسلام قَيسَ بن سعد بن عُبَادة في بيته ، ودعا له فقال : « اللهم اجعَلْ صلواتِك ورحمَتَك على آل سعدِ بن عبادة »(١) .

وزار الربَيِّع بنتَ مُعَوِّذٍ حين بُني بها ـ تزوجت ـ فدخل بيتها ، وجلس على فراشها ، فجعل جويريات لها يضربن بالدف ويندبن من قُتِل من قومِها يوم بدر ، وقالت إحداهن : « وفينا نبيٌّ يعلمُ ما في غَدِ » فقال لها رسول اللّه : دعي هذا ، وقولي بالذي كنتِ تَقولين(٢) .

وزار عبدَ اللّه بن زيد بن عاصم وتوضأ عنده في تَوْر من صُفْر(٣) .

وزار جابر بن عبد اللّه ، وقد جاءه صلواتُ اللّه وسلامه عليه ماشياً ليس براكب بغلٍ ولا برذونٍ(٤) .

وزياراته للمسلمين في بيوتهم وغشيانه الكافرين في مجالسهم مما استفاض عنه عليه الصلاة والسلام ، ونقلها لنا مصنفو الحديث وكتّاب السيرة .

ب ـ **محاولته كسبه** : إن محمداً صلى اللّه عليه وسلّم كان رسولاً من اللّه

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان .

(٢) البخاري في النكاح باب ضرب الدف ، وأبو داود في الأدب باب النهي عن الغناء ، والترمذي في النكاح باب إعلان النكاح .

(٣) أبو داود في الطهارة باب الوضوء في آنية الصفر.

(٤) الترمذي في مناقب جابر .

للناس ، وداعية لهم إلى الحق ، وبقدرِ ما ينجحُ الداعيـةُ في غزوِ قلوب المدعُوِّين وعقدِ المحبة فيها بقدر ما تستجيب هذه القلوب له ، وبقدر ما يفشلُ في كسب حبها بقدر ما يكون إعراضُها عنه ، وقد نجح محمد صلى اللّه عليـه وسلّم بغزوه لقلوبِ وعقـولِ أفراد مجتمعـه ، ولم يعـد بُغْضُـه موجوداً إلّا في قلوب حسّاده . وقد كـان سبيله لغزْوِ هـذه القلوبِ صفاتٍ جَبَلَهُ اللّه عليها ، منها :

١) **عدم تميُّزه عليهم**: إن النفوس مطبوعة على كره من تعالى عليها، وقد كان رسول اللّه أبعد الناس عن التعالي على مجتمعه أو تمييز نفسه عن أفراده بما لم يميزه به اللّه ، فلم يكن له لباس خاص يتميز به ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يجلس بين ظهراني أصحابه ، فيجيء الغريب ولا يدري أيهم هو حتى يسأل[١] .

وكان يكره أن يتميز عن الناس بالقيام له حين دخوله ، فقد خرج على أصحابه يوماً متوكئاً على عصا ، فقاموا إليـه ، فقال : لا تقـومُوا كما يقومُ الأعاجمُ يعظِّمُ بعضهم بعضاً[٢] .

كما يكره أن يجلسَ ويبقى الناسُ قياماً تعظيماً له ، ويقول : من أحبَّ أن يتمثلَ له الناسُ قياماً فليتبوأْ مقعدَه من النار[٣] .

وكان يكره إذا مَشىٰ مع أصحابه وكانت معه حاجةٌ أن يحملها له بعضُ أصحـابه ويقـول : صاحب الشيءِ أحق بشيئِـه أن يحملَه إلّا أن يكون ضعيفاً يعجز عنه فيعينُهُ عليه أخوه المسلم[٤] .

وكان يكره أن يعمل الناسُ وهو جالسٌ ، ولذلك شاركهم في حفرِ

---

(١) أبو الشيخ في أخلاق النبي ص ٦٦ باب ما ذكر من تواضعه .

(٢) أبو داود في الأدب باب قيام الرجل للرجل .

(٣) أبـو داود والترمـذي في الأدب باب قيـام الرجـل للرجل .

(٤) قال في الجامع الصغير: أخرجه الـطبراني في =

الخندَق ، ولم يرض أن يتوزَّعوا عملَ إعدادِ الطعام بينهم ويتركوه بغير عمل فقال : وعليَّ جمعُ الحطب .

ولم يرضَ أن يركبَ هو ويمشيَ مرافقُه ، عندما صحبه قيسُ بن سعد ، حيث قال له رسول اللّه : اركب معي ، فأبى قيسٌ ، فقال رسول اللّه : إما أن تركبْ وإما أن تنصَرِف[١] .

٢) **عدم إرهاقه بالتكاليف** : وكان مما يقرِّبُ رسولَ اللّه إلى القلوبِ عدم إرهاق الناسِ بالتكاليف ، إذا كان شعارهُ دائماً قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا أمَرْتُكم بشيءٍ فأْتُوا منه ما استطعتم »[٢] وقوله جل شأنه في سورة البقرة/ ٢٨٦ : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ﴾ .

٣) **عدم جرح الأحاسيس** : ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا أرادَ أن ينتقِد تصرُّفَ إنسانٍ كان لا يسمّي هذا الإنسان ، بل ينتقدُ الفعلَ الخاطئَ ، ويوجِّه إلى الصواب من غير ذكر الأسماء حتى لا يخجل صاحبُ الفعل .

ـ فقد واصل جماعةٌ من أصحابه الصيام لما رأوه عليه الصلاة والسلام يواصل الصيام ، فكره ذلك منهم فقال : ما بال رجال يواصلون ـ أي الصيام ـ ؟ إنكم لستم مثلي[٣] .

وصنع رسول اللّه شيئاً فرخص فيه ، فتنزه عنه قومٌ ، فبلغ ذلك رسول اللّه فخطب ، فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : ما بالُ أقوامٍ

= الأوسط .

(١) أبو داود في الأدب باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان .

(٢) مسلم في الحج باب فرض الحج مرة .

(٣) مسلم في الصيام باب النهي عن الوصال .

يتنزهونَ عن الشيء أصنَعُـه ؟! فواللَّه إني لأعلمُهُم بـاللَّه وأشَدُّهُم لـه خشية[١] .

واستعمل رسول اللَّه رجلاً من بني عبد الأشهل على الصدقة ، فلما قدم سأله بعيراً منها ، فغضب رسول اللَّه حتى احمرّ وجهه وعُرِف الغضبُ في وجهه ثم قال : ما بالُ رجالٍ يسألُني أحدُهم ما لا يصلُح لي ولا لَهُ ، فإن منعتُه كرهتُ منعه ، وإن أعطيتُه أعطيته ما لا يصلُحُ لي ولا له[٢] .

وسأله رجـل عن أبيه ـ وكـان قد مـات على الكفر ـ فقـال له : يا نبيَّ اللَّه أين أبي ؟ فقال : في النار ، فلما ولّى دعاهُ النبي صلى اللَّه عليه وسلّم فقال : إن أبي وأبَاكَ في النار[٣] .

٤) **مجـاملتـه** : نريد بالمجاملةِ هنا حسنَ اللقاءِ ، والتبسُّط في الوجه ، سواء كان بين المتلاقين محبةٌ أم لا ، وهذا غيرُ الرياء ، لأن الرياءَ هو عمـل المرءِ عملاً أمامَ الناس ليعظمَهَ الناسُ عليه .

والمجاملة ممدوحةٌ لأنها من حسن الأدب ، حتى قـال الفقهاء : يستحب للرجل أن يداريَ مع الناس ، ينبغي أن يكون قولُ الرجلُ ليِّناً ، ووجهُه منبسطاً مع البرّ والفاجرِ ، والسُّنّي والمبتَدِع من غيرِ مـداهَنَة ومن غيـر أن يتكلم بكـلامٍ يُظَن أنـه يـرضىٰ بمـذهبـه[٤] ، وهكـذا كـان رسولُ اللَّه ، فقد استأذن عليه رجل فقال عليه الصلاة والسلام : ائذنوا لـه ، فلبئس ابنُ العشيرة ، فلمـا دخـل عليـه أَلاَنَ لـه ـ عليـه الصـلاة

---

(١) البخـاري في الأدب باب من لم يـواجـه النـاس بالخطاب ، ومسلم في الفضائل باب علمه صلى اللَّه عليه وسلم باللَّه .

(٢) الموطأ في الصدقة ، باب ما يكره من الصدقة .

(٣) مسلم في الإيمـان باب من مـات على الكفـر ، وأحمد في المسند ١٩٩/٣ وابن مندة في الإيمان برقم ٩٢٧ .

(٤) الفتاوى الهندية ٢٧٩/٥ .

والسلام ـ القولَ ، قالت عائشة : يا رسول اللَّه قلتَ له الذي قلتَ ، ثم أَلَنْتَ له القول ، قال : « يا عائشة ، إن شرَّ الناسِ منزلةً عند اللَّه يوم القيامة ، من تركه الناسُ اتقاء فحشه »[1] ، وقد وصفه أنس فقال : كان لا يكاد يواجه أحداً بما يكره .

٥) **كسب القلوب بالإحسان إليها** : لا شيءَ يغرس الحبَّ في القلوب كالإحسان ، فقد جُبِلت القلوبُ على حبِّ من أحسَنَ إليها ، وهذه فطرةٌ قررها اللَّهُ تعالى في القرآن بقوله تعالى في سورة فصّلت/ ٣٤ : ﴿ ادفَعْ بالتي هيَ أحسَنُ فإذا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كأنه وَلِيٌّ حَميم ﴾ ، وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يدفع بالإحسانِ تلوَ الإحسان حتى يمتلك القلوب بإحسانِهِ .

وروى أنس بن مالك رضي اللَّه عنه أن رجلاً سأل النبي صلى اللَّه عليه وسلّم فأعطاه غنماً بين جبلين ، فأتى قومَه فقال : « أي قومِ أَسْلِموا ، فواللَّه إن محمداً يعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر »[2] .

ويوم حُنين أعطى رسولُ اللَّه المؤلفةَ قلوبهم عطاءً جزيلاً مَلَكَ به قلوبَهم ، فأعطى حكيم بنَ حِزام مئة بعير ، وأعطى أبا سفيان مئةَ بعير ، وأعطى معاويةَ بن أبي سفيان مئة بعير ، وأعطى الحارثَ بن كلدَة مئة بعير ، وأعطى غيرَهم وغيرَهم حتى أنقلب بغضُهم لرسول اللَّه حباً .

وأعطى أعرابياً أغلَظَ لرسول اللَّه القولَ، فما فارقَ هذا الأعرابيُّ رسولَ اللَّه حتى كان الرسول أحبَّ الناسِ إليه ـ كما تقدم ذلك عند كلامنا على حلمه عليه الصلاة والسلام ـ .

---

(١) مسلم في البر والصلة باب المداراة .

(٢) مسلم في فضائل النبي ، انظر مختصر مسلم برقم ١٥٨٧ .

وجاءه أعرابي يستعينه في شيءٍ ، فأعطاه شيئاً ، ثم قال صلى اللّه عليه وسلّم : أحسنتُ إليك ؟ فقال الأعرابي : لا ، ولا أجمَلْتَ ، فغضبَ المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم الرسول : أنْ كُفّوا ، ثم قام النبي فدخل منزلَه ، ثم أرسلَ إلى الأعرابي ، فدعاه إلى البيت فقال : إنك جئتنا فسألتَنا ، فأعطيناك ، فقلتَ ما قلتَه ، فزاده رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم شيئاً ، ثم قال : أحسنتُ إليك ؟ قال الأعرابي : نعم ، فجزاك اللّه من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً ، ثم قال النبي صلى اللّه عليه وسلّم : إنك كنتَ جئتَنا فسألتَنا ، فأعطيناك ، وقلتَ ما قلت ، وفي أنفسِ أصحابي شيءٌ من ذلك ، فإن أحببتَ فقلْ بَينَ أيديهم ما قلتَ بين يَدَيَّ حتى تُذهِب مِنْ صُدورِهِم ما فيها عليك ، قال : نعم ، فلما كان الغدُ ـ أو العشيُّ ـ جاء ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم : إن صاحبَكم هذا كان جاءَ فسألنا ، فأعطيناه ، وقال ما قال ، وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه ، فزعم أنه قد رَضيَ ، أكذلك ؟ قال الأعرابيُّ : نعم ، فجزاك اللّه من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلّم : « ألا إن مَثَلي ومثلُ هذا الأعرابي كمثلِ رجلٍ كانت له ناقةٌ فشردَت عليه ، فاتْبَعَها الناسُ ، فلم يزيدوها إلّا نفوراً ، فناداهم صاحبُ الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفقُ بها وأعلَم ، فتوجّه لها صاحبُ الناقة بين يَدَيْها ، وأخذ لها من قِمامِ الأرض ، فردَّها هَوْناً هَوْناً هَوْناً حتى جاءت واستناخَتْ وشدَّ عليها ، وإني لو تركتكم حيث قال الرجلُ ما قال فقتلتموه ، دخل النار »[1] .

٦) **حلاوةُ منطقه** : لقد اتفق جميعُ الذين وصَفوا منطقَ رسولِ اللّه على أنه عليه الصلاة والسلام كان أحسنَ وأحلىٰ الناسِ منطقاً ، ولعل هذه

---

(١) أخلاق النبي ص ٨٠ .

أجمعُ وأبلَغُ عبارةٍ يمكن أن يوصف بها منطِقُ رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه .

وإذا أرنا أن ننقب عن مُكوِّنات هذا الحسنِ وهذه الحلاوة لوقعنا من ذلك على العناصر التالية :

● **تركُ الفاحِش من القول** : ولنترك الحديث عن ذلك لأنس بن مالك رضي اللّه عنه خادمِ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ومن ألصَقِ الناس به ، ومن أكثرِهم تعرّضاً لسَخَطِه وَرِضَاه .

يقول أنس : لم يكن رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم سَبّاباً ولا فَحّاشاً ، كان يقول لأحدِنا في المَعْتَبَة : ما له ؟ تربَت يمينه (١) .

ويقول رضي اللّه عنه : خدمت النبي تسعَ سنين فما قال لشيءٍ أسأتَ ، ولا بئسَ ما صنعْتَ ، وكان إذا أنكر الشيءَ يقول : كذا قُضِيَ (٢) .

● **فصاحة اللسان**: كان رسول اللّه فصيح اللسان، إذا تكلم تكلم بأناةٍ ، قالت عائشة في وصف تكلُّمِهِ : ما كان رسول اللّه يسرُد كسرْدِكم هذا ، ولكنه كان يتكلم بكلامٍ يبيِّنُه ، فَصْلٍ ، يحفظه من جلس إليه (٣) .

● **تبسمه أثناء التكلم** : إن مما يعطي الكلامَ حلاوة تبسمُ المتكَلِّم أثناء تكلمه ، وكذلك كان رسول اللّه يفعل ، قال أبو الدرداء : كان رسول اللّه إذا حدّث بحديث تبسَّم في حديثه (٤) .

● **مشاركته في الحديث المطروح** : قد يظن البعضُ أن كلامَ رسولِ اللّه

---

(١) أخلاق النبي ٣٧ ومسند أحمد ١٢٦/٣ .
(٢) أخلاق النبي ٣٦ .
(٣) الترمذي في المناقب .
(٤) أخلاق النبي ٩٢ .

كلَّه كان وَعْظاً ، والحقيقة ليست كذلك ، ولو فعل رسول اللَّه هذا لملَّ الناسُ .

والمأثور أن رسول اللَّه كان يشارِكُ أصحابَه أحاديثَهم ، فإن خاضُوا في الحديث عن الدنيا شاركهم في الحديث عنها ، وإن تحدثوا عن الطعام ، تحدث معهم عنه ، لا يجد حَرَجاً في ذلك ، قال زيد بن ثابت رضي اللَّه عنه : كنا إذا ذكرنا الدُّنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطَّعامَ ذكره معنا[1] .

٧) خِفَّةُ ظله: إن مما يُدخلُ المرءَ إلى القلوب خِفَّةُ ظِله، وتظهر خفَّة الظِّل أكثر ما تظهر في المزاح ، فبعض الناس يمزحُ فيكون فَكِهاً ، وبعض الناس يمزحُ فيكون مزاحه ثقيلَ الظِّلِّ يُكرِب ولا يُطرِب ، أما رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم فقد كان يمزحُ وكان فَكِهاً في مُزاحِهِ .

قال أنس رضي اللَّه عنه : كان رسول اللَّه من أفْكَهِ الناسِ مع صَبيٍّ[2] .

وقال عبد اللَّه بن الحارث بن جَزء : ما رأيت أحداً أكثرَ مُزاحاً من رسول اللَّه ، ولا أكثر تبَسُّماً منه ، وإن كان ليَسْنُوا ـ أي يأنسوا ـ أهلُ الصبيِّ إلى مُزاحه[3] .

ولو ذهبنا نُسْتقرىء ما ورد في مُزاحه لطال بنا المقام ، وحسبنا أن نذكر ما يلي :

● كان يمزح مع خادمه أنس بن مالك ويقول له : يا ذا الأُذُنَيْن[4] .

---

(١) زاد المعاد ١/٧٣ .
(٢) شمائل ابن كثير ٨١ .
(٣) أخلاق النبي ٨٥ .
(٤) الترمذي في البر والصلة باب المزاح ، وأبو داود في الأدب باب المزاح .

● أتى رجل النبيَّ وطلب منه أن يحملَه ـ أي : يعطيه ما يركبه ـ فقال عليه الصلاة والسلام : إنّا حاملوكَ على وَلَدِ ناقةٍ ، فقال الرجل : يا رسول الله : ما أصنع بولَدِ ناقة ؟ فقال رسول الله : وهل تَلِدُ الإبلُ إلاَّ النوق(١).

● وأتت عجوزٌ النبيَّ فقالت : يا رسول الله ادع لي ان يُدْخِلَني اللَّهُ الجنةَ ، فقال : يا أم فلان إن الجنة لا تدخُلُها عجوز ، فولّت العجوز تبكي ، فقال : أخبروها أنها لا تدخُلُها وهي عجوزٌ ، فإن الله يقول : ﴿إنّا أنْشَأْناهُنَّ إنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُن أبْكاراً * عُرُباً أتْراباً﴾(٢).

● كان زاهر رجلاً دميماً ، وكان رسولُ اللَّه يحبُّه ، فأتاه يوماً وهو يبيعُ متاعَه ، فاحتضنه الرسول من خلفه ، ولا يبصرُه الرجلُ ، فقال زاهر : أرسلني ، من هذا ؟ فالتفَتَ ، فعرف النبيَّ صلى اللّه عليه وسلم ، فجعل لا يألو ما ألصَقَ ظهرَه بصدرِ رسول اللّه حين عَرَفَه ، وجعل رسولُ اللّه يقول : من يشتري العَبْد ؟ فقال : يا رسولَ اللّه إذنْ واللّهِ تجدُني كاسِداً ، فقال رسول اللّه ، لكن عندَ اللّهِ لَسْتَ بِكاسِدٍ(٣).

والجدير بالذكر أن المزاح يتبع في أسلوبه عادات المجتمع ، فقد يكون نوع من المزاح مقبولاً في عصر ، غير مقبولٍ في عصر آخر ، وما نراه من بعض مزاحه عليه الصلاة والسلام أنه لا يليق بأمثالِه أن يأتيَه ، فإننا نحكم عليه من خلال عصرنا وما سادَ فيه من عاداتٍ وتقاليد ، أما في عصرِ الرسول فقد كان ذلك أمراً مألوفاً .

بهذه الشخصية كان رسول اللّه يعيش في أسرته وفي مجتمعه فكان له فيهما أعظم الأثر .

(١) أبو داود في الأدب باب المزاح ، والترمذي في البر والصلة باب المزاح .
(٢) الترمذي في الشمائل باب مزاح النبي .
(٣) الترمذي في الشمائل وابن حبان في صحيحه .

شَخصيَّة الرّسُولِ السّياسية

نريد بالسياسة هنا : تدبير شؤون الدولةِ بحكمةٍ وذكاءٍ وحنكة .

وفي ضوءِ هذا المفهوم للسسياسةِ يظهرُ لنا أن السياسة لا يتعلَّمها المرءُ في كتاب أو في مدرسة بقدر ما تنضحُ بها فطرتُه ، وإن كنّا لا ننكرُ دَوْرَ العلم في صقْل الفِطْرَة والتسامي بها .

ورسول اللَّه صلى اللّه عليه وسلّم قد وهبه اللّه تعالى من الذكاء الفطري ، والحكمة الفيَّاضة ، وبُعدِ النظر ، وحسنِ التصرُّف في الأمور ما يقصرُ عنه كلّ وصف ، وإن تصفح سيرته الشريفة يُظهر لنا هذا بكل وضوح .

ونحن سنعرض فيما يلي : سياسة الرسول في بناء الدولة ، ثم سياستَه الداخلية ـ ثم سياسته الاقتصادية ، ثم سياسَتَه الخارجيَّة ، أما سياستَه العسكرية فإننا سنفردُ لها فصلاً خاصاً نتكلم فيه بشيء من التوسُّع عن شخصية الرسول العسكرية .

١ ـ سياسته في بناء الدولة :

أ ـ **دولة عقدية** : الدولة المثلى هي الدولة التي لا تقتصرُ أهدافُها على توفير الرفاهية الماديِّة لشعبها ، بل التي تجعلُ في طليعَةِ أهدافِها بناءَ شعبها بناءً فِكرِياً سليماً ، لأنه بالفكر السليم تبنىٰ الحضارات ، وترقَىٰ العلوم ، وتُحَلّ جميع المشكلات ، وتتقدم الأمم .

والعقيدة هي المنطلَق الأساسي لكلِّ فكرٍ ، فإذا ما سلِمت العقائِد ، وأتت موافقة لأصولِ التفكيرِ السليمِ أمكَن بَعْدَها بناءُ الفكرِ بناءً سليماً ، أما إذا فسدت العقائدُ وأتت مناقضة لأصول التفكير السليم ، أصبحَ الفكرُ بعدها مسرَحاً للخُرافة ، تجد لها فيه موطِناً ، وإذا سادت الخُرافة ـ ونعْني بها : اعتقادُ ما لا يقبَلُه العقل ـ تخلَّفت العُلُومُ وتدَنَّت الأمم .

ولذلك عمل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم على بناءِ دولةٍ عَقَدِية ، تتبنى عقيدة بَنّاءة ، وتعمل ـ بغير إكراه ـ على أن يكون شعبُها مؤمِناً بعقيدتها ، وعلى أن تؤمن الشعوبُ في الدول الأخرى بهذه العقيدة ، لأن هذه الشعوب رغمَ وجودِها تحت سيطرةِ دولٍ أخرى ـ كافرة ـ فإن ولاءَها سيكون لدولة الرسول التي يحملون عقيدتها ، وستنحاز لدولةِ الرسول إذا ما نشبَتْ الخصومَةُ بين دُوَلِهم ودولة الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه ، وهذا ما فعلَه المستضعفون الذين كانوا يحملون عقيدة التوحيدِ ويقيمون في مكة تحت حكم المشركين من قريش .

إذا كانت الدولة عَقَدِيّة ، وكانت إقامةُ الدولةِ جزءاً من هذه العقيدة ، فإن الدولة ستقوم إذن على أساس متينٍ إذا توفرت لها القواعد الشعبيةُ المؤمنة .

ب ـ **قيام الدولة على قواعد شعبية مؤمنة** : إن أيةَ دولةٍ لا تقوم على قاعدةٍ شعبيَّةٍ واسعة تؤمن بها ، وتنفذُ بكلِّ إخلاصٍ نُظُمها ، وتدافع بكل تفانٍ عنها ، هي دولة لا تملك مقوِّمات وجودها ، ولا تسير في الطريقِ الذي يُحقِّقُ لها وجودها ، وهي دولة لا تلبث أن تنهارَ عند أولِ صدمةٍ وإن بدت لنا من الخارج قويةً متماسكة ، وتُعتبر بدايةُ النهاية للدولة انقلابُ شعبها إلى مجموعةٍ من المنافقين للدولة ، يظهرون الإيمانَ بها ، ويبطنون الكفر بها ، أو مجموعةٍ من المقهورين لا يملكونَ في قلوبهم ذرةَ ولاءٍ للدولة .

ولذلك رفض رسول اللَّه أن يقيمَ دَولته العَقَديّةَ على قواعدَ شعبية غير مؤمنة بها عندما قدمَ إليه عتبةُ بن ربيعة ، يفاوضُه ويعرضُ عليه ما غلب على ظنه أن محمداً يطمح إليه ، عرض عليه المال والسيادة والملك ، فقال له : « يا محمد إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر ـ الإسلام ـ مالاً ، جمعنا لك من أموالِنا حتى تكون أكثرَنا مالاً ، وإن كنت تريدُ به شرَفاً سوَّدْنَاكَ علينا حتى لا نقطَعَ أمراً دونك ، وإن كنتَ تريدُ به مُلْكاً ملَّكْناك علينا » وقريب من هذا ما عرضه عليه أشراف قريش مجتمعين : عتبةُ بن ربيعة ، وشَيْبَةُ بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام ، وعبد اللَّه بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف .

ولذلك راح رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يُعِدُّ القواعدَ الشعبية المؤمِنَة قبل إقامة الدولة ، حتى إذا ما قامت هذه الدولةُ أخذت هذه القاعدة الشعبيَّة المؤمنةُ تدير أجهزة الدولة بكفاءَةٍ وإخلاصٍ ، وتدافع عنها بفدائيةٍ لا نظير لها .

جـ ـ **مكان إقامة الدولة** : لما جعل الرسولُ يبحث عن المكان الذي يقيم فيه الدولة الإسلامية ، أخذ يبحث عن مكان ذي مواصفات معيَّنة ، لا أيِّ مكان . ومن هذه المواصفات :

١) وجود الموارد الطبيعية التي تؤمِّنُ الكفاية الذاتية والرخاءَ الاقتصادي .

٢) اتصافُ أهلِها بالفروسية والنَّجدةِ ، والخبرةِ بالحرب وتأهّلهم لها .

والمكانان اللذان توجهت أنظارُ رسولِ اللَّه إليهما لإقامةِ دولةِ الإسلام فيهما ـ وهما : الطائف والمدينة المنورة ـ تتوفر فيهما هذه الصفات الثلاثة .

فكلّ من الطائفِ والمدينة بلدٌ زراعي ينتج أصنافَ المزروعات التي تكفي أهلَه وتفيضُ عن حاجتهم ، ويعيشُ أهلُهُ في بحبوحة من العيش ، وفيه من الأعمال ما يمتصُّ الأيديَ العاملةَ من المؤمنين المهاجرين إليه من مكة .

وكل من الطائفِ والمدينةِ يتمتَّع بموقع استراتيجي ممتاز ، فالطائفُ بلدٌ في أعالي الجبال يصعُب اقتحامها ، لأن الجبال تؤمِّنُ الحمايةَ لمن يلجأ إليها بما فيها من التضاريس ، ولذلك رأينا الثورات تتخذ الجبالَ قاعدةً لها تنطلقُ منها إلى أن يصلُب عودها .

والطريقُ إلى الطائفِ طريقٌ جبلية تؤمِّنُ الحماية لأصحاب رسول اللَّه المتسللين من مكة إلى الطائف .

والطائف ذاتُها بلدٌ ذات حصون ، ولو قدِّرَ للدولةِ الإسلامية أن تقوم في الطائف لقامت في بلد ممتنعٍ بذاتِه على خصوم هذه الدولة .

وأما المدينةُ المنورة فهي بلد محصَّنة من جانبيها بالحرتين ، ومن الجانب الثالث ببساتين النخيل وظهور مساكنها التي تشكل سدّاً منيعاً في وجه المهاجمين ، فإذا ما أرادَ العدوُّ مهاجمتها فإنه لا يستطيع ذلك إلَّا من جهةٍ واحدةٍ وهي التي حفر فيها رسولُ اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه مانعاً طبيعياً فيها يقفُ المهاجمون عنده ، ذلك هو الخندقُ الذي حفره يوم الأحزاب .

هذا فضلًا عن أن المدينةَ المنورَة واقعةٌ على الطريق التجارية التي تسلُكها قوافلُ قريش من مكةٍ إلى الشام ، وهذا ما يسهِّلُ على الدولة الإسلامية مراقبةَ التحركات التجارية لقريشٍ ، وفرض الحصار الاقتصاديِّ عليها في الوقت المناسب .

وأهلُ كلٍّ من الطائفِ والمدينةِ فرسانٌ شجعانٌ لهم تمرُّسٌ بالحروب وخبرةٌ واسعة فيهَا ، وهم سندٌ قويٌّ للدولةِ الإسلامية إذا ما أقيمت بين ظهرانيهم .

٢ ـ سياسته الداخلية :

يمكننا أن نلخِّصَ سياسةَ الرسولِ الداخليةَ بما يلي :

أ ـ **سيادة الدَّوْلة على أراضيها** : لقد أعلن رسولُ اللَّه سيادةَ الدولة الإسلامية على أراضيها يومَ أمرَ بلالاً أن يؤذِّنَ بما رآه عبدُ اللَّه بن زيد بن ثَعْلَبة في نومِهِ من ألفاظ الأذان ، ولقد سبق لي أن قلت في قراءة جديدة للسيرة النبوية[1]: إني مع إقراري وإيماني بأنَّ الأذانَ دعوةٌ للصلاة ، إلَّا أني أسمعُ بأذنَيْ داخِلي صوتَ عقلي يقول : إن للأذان معنى آخر ومهمة أخرى غير مهمة الدعوة للصلاة ، إنه إعلانٌ رسميٌّ صادرٌ عن مقرِّ الدولةِ الرسمي ـ المسجد ـ بقيامِ دولةِ اللَّه في الأرض، وإعلان سيادتها عليها بقيادَةِ محمدٍ رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه ، بعد أن تجاوزت كل العَقَبَات التي وضعها العتاةُ الظَّلَمة في طريقها ، وفاقَ تدبير اللَّه كلَّ تدبير ، وفاقت قوته كل قوّة .

تأمّل إن شئتَ أولَ كلماتِ الأذان « اللَّه أكبر . . . اللَّه أكبر » إنها تعني أن اللَّه تعالى أكبرُ من أولئك الطغاة ، وأكبرُ من صانعي العَقَبات ، وهو الغالبُ على أمره . . . « أشهد أن لا إله إلَّا اللَّه » أي لا سيادة في دولة الإسلام لغير اللَّه ، ولا حكم إلَّا له ﴿ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للَّه ﴾ .

وأعلن رسولَ اللَّه هذه السيادةَ حين منع أن يُتَحَاكَمَ في أرض

---

(١) انظر : قراءة جديدة للسيرة النبوية ص ١٥٢ للمؤلف .

الإسلام لأي نظام عام غير النظام العام للدولة الإسلامية ، وقد نصت المعاهدةُ التي عقَدَها الرسول صلى اللَّه عليه وسلّم مع اليهود على هذا ، حيث جاءَ فيها : « . . . وإنه ما كانَ بينَ أهلِ هذه الصحيفةِ من حَدَثٍ أو اشتجارٍ يُخافُ فسادُه فإن مَرَدَّه إلى اللَّه عزّ وجلَّ وإلى محمدٍ رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ، وإنِ اللَّه على أتقىٰ ما في هذه الصحيفةِ وأبَرِّه »[1] .

ب ـ **جمع ما أمكن من الكفاءات المخلصة في الدولة** : تعيشُ الدولةُ وتنمو وترقىٰ بالكفاءات المخلصة فيها ، وكلما كثرت هذه الكفاءاتُ كلما ازدادت الدولةُ رُقِيّاً ، فإذا فرَّت هذه الكفاءاتُ منها أو نَدَرَتْ لسببٍ من الأسباب أخذت الدولةُ بالتقهقر والتخلُّف .

ولذلك كان رسولُ اللَّه حريصاً على استقدام كلِّ الكفاءات المخلصةِ لتساهِمَ في بناء دولةِ الإسلام ورُقِيِّها وازدِهارها ، فجعل اللَّهُ تعالى هجرةَ المؤمنين إلى المدينة المنورة ـ مقرِّ الدولة الإسلامية ـ فرضاً بقوله تعالى في سورة النساء/ ٩٧ : ﴿ إن الذينَ تَوَفّاهُمُ الملائكةُ ظالمي أنفُسِهم ، قالوا فيمَ كنتم ؟ قالوا : كنا مُسْتَضْعَفِين في الأرْضِ ، قالوا : ألَمْ تكنْ أرضُ اللَّهِ واسعةً فتهاجروا فيها ؟! فأولئك مأواهُم جَهَنّمُ وَسَاءَتْ مَصيراً ﴾ .

جـ ـ **امتصاصُ الحِقْد** : رئيسُ الدولة العبقري هو الذي يعرفُ كيف يمتصُّ حقد الحاقدين من شعبِه ، ويقتلعُه من قلوبِهم ، ويُحلُّ مكانَه الحبَّ والاحترام ، وهذا ما دأب عليه رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم .

● انظر إلى تصرفه مع أبي سفيان قائد حرب قريش الذي ملأ الحقدُ قلبَه

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٤٢ .

على محمد ، لأنه تصوَّرَ أن محمداً سيسلبُهُ الشرفَ الذي هو فيـه . لقدْ امتصَّ رسـولُ اللَّه بتصرفِـه الحكيم هذا الحقْـدَ من قلبه ، وأكَّـدَ لـه أن الإسلام لا يزيد العزيز إلَّا عزاً ، وذلك عندما أعلن يوم فتح مكة : أن من دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهوَ آمن(١) .

- وانظر إلى تصرفه مع أهـل مكة حين جُمعـوا له بعـد فتحِها ، فخـطبهم وأعلن عليهم مبادىءَ المساواةِ التي جاء بها الإسلام ، وأنه لا غالبَ أكرم من مغلوبٍ لأنـه غَلَب . . . ثم منحهم حريتهم حيث قـال عليه الصـلاة والسـلام : « يا معشـرَ قُريش إن اللَّه قـد أذهَبَ عنكم نخـوةَ الجـاهليـة وتعـظُّمَها بـالآباء ، النـاسُ لآدم ، وآدمُ من تراب ﴿ يـا أيُّها النـاسُ إنّـا خَلَقْنَاكم من ذكَرٍ وأنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوباً وَقَبائِلَ لِتعارَفوا ، إنَّ أكرمَكم عِنْدَ اللَّهِ أتْقاكم ﴾ .

يا معشر قريش ما ترون أني فاعلٌ بكم ؟
قالوا : خيراً ، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم .
قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء»(٢) .

- وانظر إليه حين جمعَ من تمكنت في قلوبهم أحقادُ الجـاهلية ولم يصفُ فيها الإيمان بعدُ في الجعرَّانة وأخذ يُغدِق عليهم من الأموال ما انتزعَ آخرَ قطرةٍ من حقدٍ على الدولة الإسلامية في قلوبهم .

د ـ **تطييب القلـوب** : قد يضطرُ رئيسُ الدولة أن يتصرفَ تصرفاً يَخرج فيه عن المألوف، أو يخالف به سنَنَ القياس لمصلحة عليا يراها، حتى يُظَن أنه منعَ الخَيرَ عمن يظن بأن له حقاً في هذا الخير ، وفي هذه الحالة لا بد له من بيان وجه المصلحة في تصرفه هذا لمن تَضَرَّروا من هذا التصرف ، ولا بد من تـطييبِ قلوبهم، لأن كسبَ القلوبِ هو أثمن مـا يحصلُ عليـه رئيسُ

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٨٧ .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٩٣ .

الدولة ، وقد كان رسولُ اللَّه يفعلُ هذا ويحرص عليه ، فإنه عليه الصلاة والسلام ما أن يلاحظ تذمُّراً أو عدم رضىً من شعبه لموقفٍ من المواقفِ أو تصرفٍ من التصرفات حتى يسرعَ لبيانه وتطييبِ قلوبِ الشعب .

انظر تصرفَه يوم دخلَ سعدُ بن عبادة ـ في الجعرانة ـ على رسول اللَّه فقال : يا رسول اللَّه إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدوا عليكَ في أنفسِهم لِمَا صَنَعْتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ ، قسمتَ في قومك ـ يريد أهل مكة ـ وأعطيتَ عطايا عِظاماً في قبائل العرب ، ولم يَكُ في هذا الحيِّ من الأنصارِ منها شيئاً ، قال : فأينَ أنتَ من ذلك يا سعد؟ قال : يا رسول اللَّه ، ما أنا إلاَّ من قَوْمِي ، قال: فاجمعْ لِي قومَك في هذه الحظيرة . . .

فأتاهم رسولُ اللَّه فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« يا معشرَ الأنصارِ ، ما قالةً بلغتني عنكم ، وجِدَةً وجدتُموها عليَّ في أنفسِكم ، ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكُم اللَّهُ ، وعالةً فأَغْناكُم اللَّهُ ، وأعداءً فألَّفَ بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى يا رسولَ اللَّه ، واللَّهُ ورسولُه أمَنّ وأفَضْل .

قال : ألا تجيبوني يا معشَر الأنصارِ ؟

قالوا : بماذا نجيبُك يا رسولَ اللَّه ، لِلَّهِ ولرسوله المنُّ والفضلُ .

قال : أما واللَّه لو شئتم لقلتم ، فلصَدَقْتُم ولصُدِّقتم : أتيناكَ مكذَّباً فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصَرْناك ، وطريداً فآوَيْناك ، وعائلاً فآسَيْناك .

أَوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم على لعاعَة من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليُسْلِموا ، ووكلتُكُم إلى إسلامِكم ؟ ألا ترضونَ يا معشَرَ الأنصارِ أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعير ، وترجعوا برسول اللَّه إلى رحالِكم ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لولا الهجرةُ لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلَكَ الناسُ شِعباً

وسلكَتِ الأنصارُ شِعباً لسلكتُ شِعب الأنصار ، اللهم ارحَمِ الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ ، وأبناءَ أبناءِ الأنصار » .

وسمع الأنصارُ ما قال رسولُ اللّه ، ورسموا ـ بسرعة البرق ـ صورةً ذهنيةً لما قاله رسول اللّه « قومٌ يُشْرَون بالإيمان ، يقابِلُهم قومٌ يُشرون بالجِمال » و « قوم يصحبهم رسول اللّه يقابلهم قوم يَصحبهم الشاةُ والبعير » وتوقظهم الصورةُ من إغماءَةٍ فكرية كانوا فيها، ورسول اللّه ماثلٌ أمامَهم، ويدركون أنهم وقعوا في خطأٍ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه ، فتنطلق حَنَاجِرهم بالبكاءِ ومآقيهم بالدموعِ ويصيحون : رضينا برسول اللّه قسماً وَحَظّاً .

فهل رأيت سياسياً في الدنيا رقي في سياسته الشعوب المرقى الذي رقَاهُ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم .

هـ ـ **الاستقرار الداخلي** : كلّ دولةٍ لا يتهيأ لها الأمنُ والاستقرارُ الداخلي تبقى في اضطراب دائمٍ يمنعها من بناء ذاتِها ، ويُضعِفها عن الوقوفِ في وجه عدوِّها . ولذلك كان رسول اللّه صلوات اللّه عليه حريصاً على هذا الاستقرار الداخلي في دولة الإسلام ، وقد توجَّه رسولُ اللّه إلى إيجادِ هذا الاستقرارِ في المدينة المنورة بعد أن وطئَتها قَدَمَاه، فعقد فيها معاهدةً مع اليهودِ تضمَنُ هذا الاستقرارَ، لأن اليهود يمكن أن يكونوا مصدرَ إزعاجٍ للدولة ، وقد جاء في هذه المعاهدة : « أن اليهودَ أمّةٌ مع المؤمنين ، لليهود دينُهم ، وللمسلمينَ دينُهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلَّا من ظَلَم وأَثِم ، فإنه لا يوتغ ـ أي : يهلك ـ إلَّا نفسَه وأهلَ بيته . . . الخ »[١] .

وكان رسول اللّه لا يرى حَرجاً في تقديم بعض التنازلات السياسية

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٤٢ .

غير العَقَديّة في سبيل إيجادِ الاستقرارِ في الدولة ، ونجد هذا في موقفه المتكرر مع رأسِ المنافقين عبد اللّه بن أبيّ بن سلول .

فقد كان ابنُ سلول ذا مكانةٍ مرموقةٍ في المدينةِ المنورة ، فقد قدم رسولُ اللّه المدينة وإن قومَه لينظمون له الخَرَزَ ليتوَّجوه عليهم ، وكان له فيها أتباعٌ عدا هؤلاء ، يضمّون جميعَ الحاقدين والمتآمرين والسِّفْلَة ، فكانوا يأتمرون بأمرِهِ ، وكانوا كثرٌ ، حتى انه هب في يوم من الأيام لحمايته سبعمائة مُسَلَّح منهم، ورجع يومَ أُحُد بثلثِ الناس، فهو إذن ليس بالهَيِّن، ولذلك رأى رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أن لا يُهيج ابنَ سلول ، لأن في إهاجَتِهِ إهاجةً للقلاقل ، وعصفاً بالاستقرارِ الداخلي في الدولة ، فقد استجابَ عليه الصلاة والسلام لرغبتِهِ يومَ بني قينقاع، وذلك انه عندما نزل بنو قينقاع على حكم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، قام ابنُ سلولٍ إلى النبيِّ صلى اللّه عليه وسلّم فقال : يا محمد أحسنْ في مواليَّ ، وَاساءَ الأدبَ مع رسول اللّه ، وغضبَ رسولُ اللّه حتى رأوا لوجهه ظللاً ، واستجابَ لمطلبه ، فخلىٰ سبيلَ بني قينقاع ، وأجلاهم عن المدينة المنورة .

ولما مكّن اللّهُ رسولَه عليه الصلاة والسلام من بني النضير ، ساندهم ابنُ سلول وجماعته، فعفا رسول اللّه عنهم وأجلاهم عن المدينة المنورة إيثاراً للعافية ، وحفاظاً على الاستقرار الداخلي في الدولة .

وبعد أن فرغ رسولُ اللّه من عدُوِّه في غزوة بني المصطلق تزاحَمَ رجلان أحدُهما من الأنصار والآخرُ من المهاجرين على الماء ، فاستغل ذلك ابنُ سلول وأوقدَ ناراً للفتنة بين المهاجرين والأنصار فقال ـ وهو جالس في قومِه ـ أوَفَعَلوها ، قد نافَرونا وكاثَرونَا في بلادنا ـ يريد المهاجرين ـ واللّه ما نحن وجلابيبُ قريشٍ إلَّا كما قال الأَوَل : سمّن كلبَك يأكُلك ، أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَن الأعزُّ منها الأذلَّ . . . ثم أقبل على

من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحْلَلْتموهم بلادَكم، وقاسمتموهم أموالَكم، أما واللَّه لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غَيْرِ دارِكم(١) .

وأخمدَ رسول اللَّه نيرانَ هذه الفتنة التي كادت أن تقسمَ الناس إلى كتلتينِ متحاربتين ، أخمدها بعبقرية نادرة، وذكاءٍ منقطع النظير ، حيث أمرَ الناسَ بالمسير ، فمشى بهم يومَهم ذلك حتى أمسى ، وتابع المشيَ بالليل حتى أصبح، وتابع المشيَ في اليومِ الثاني حتى الضحوة الكبرى ، دون أن يمكِّنَهم من الاستراحة ، فنسيَ الناسُ الفتنة ، واشتغلوا بأنفسهم ، ولم يعد لهم حديثٌ إلَّا التَّعبَ .

قد يقول البعض : إن الحفاظَ على الاستقرار الداخلي بهذا الأسلوب ضعفٌ في الدولة ، وكان على رسول اللَّه أن يقطعَ رأسَ الأفعى ، لا أن يملّس جلدَها ، ولكن سياسة رسولِ اللَّه مختلفة ، ونظرته إلى الأمور أبعد ، إنه ينظر إلى أن قطعَ رأسِ الأفعى التي لها فراخ يولِّد الكرهَ له في فراخها ، وهو عليه الصلاة والسلام يريد أن يسوسَ شعبَ دولتِه بالحبِّ لا بالسيفِ، فحيثما أمكن نثرُ بذورِ الحبِّ امتنع استعمال السيف، وهذا ما جعل شعبَ دولةِ الإسلام متفانياً في الدفاعِ عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم وعن دولته .

٣ـ سياسته الاقتصادية :

أ ـ استنباط الثروات الطبيعية : الثروةُ الحقيقية هي الثروةُ التي تشكِّل زيادة في الدخل العام للدولة ، واستنباطُ المعادن من جوفِ الأرضِ ، واستنبات الزَّرْع بأنواعِهِ في الأرض من هذه الثروة الحقيقية ، ولذلك تبنَّى رسولُ اللَّه

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٣٩ .

صلى اللَّه عليه وسلّم سياسةَ التشجيع على الزراعة عندما قـال : « ما مِنْ مُسْلمٍ يغرسُ غرساً أو يزرعُ زرعاً فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلَّا كان له به صَدَقة »[1] .

ولما أراد رسول اللَّه أن يُجْلِيَ يهودَ خيبر عن أرضهم قالوا له : دعنا نكون في هذه الأرض نُصْلِحُها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ـ ولم يكن لـرسول اللَّه صلى اللَّه عليـه وسلّم ولا لأصحـابـه غلمـانٌ يكفـونَهم مؤنتها ـ فدفعها إليهم ، على أنَّ لرسـولِ اللَّه الشطرَ من كـل شيء يخرج منها من ثمر أو زرع ، ولهم الشطر ، وعلى أن يقرهم فيها ما شاء[2] .

فنحن نرى أن رسول اللَّه ما ترك أهلَ خيبر في أرضهم إلَّا لحرصِه على تنشيطِ الزراعة واستغلال الأراضي الزراعية أحسنَ استغلال .

وليس هذا فحسب ، بل عملَ رسول اللَّه على أن لا يبقي في دولة الإسلام أرضاً ميتة غير مستغَلّة فقال : « من أحيا أرضـاً ميتة فهي لـه »[3] وقـال : « من أَحْيا أرضـاً قد عجـزَ صاحبُهـا عنهـا وتـركهـا بمَهْلكـة فهي له »[4] .

ب ـ **عدم امتلاك ما تعلق به نفعٌ عام** : المعروف أَنَّ رسولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم أقرَّ الملكيةَ الفرديةَ بشروطها المعروفة ، ولكنه لم يُبح امتـلاكَ عينٍ تعلقت بهـا منفعة عـامة للمسلمين ، كـالمساجـدِ والـطرقـات والمـراعي والممالح ونحو ذلك ، فقد وفد أبيضُ بن حَمّال إلى رسول اللَّه فاستقطعه الملحَ الذي بمأرِب ، فقَطَعَه له ، فلما أن وَلّى قال رجلٌ من المجلس :

---

(١) أخرجه البخاري في الحرث والمزارعة ، ومسلم في المساقاة ، كـلاهما في بـاب فضل الغـرس والزرع .

(٢) زاد المعاد ١٤٤/٣ .

(٣) الموطأ ٧٤٣/٢ والترمذي في الأحكام باب إحياء أرض الموات ، وأبو داود في الخراج باب إحياء الموات .

(٤) جامع الأصول برقم ١٣٦ .

أتدري ما قطعتَ له يـا رسول اللّه ؟ إنمـا قطعتَ لـه الماءَ العِـدَّ ، قال : فانتزعه منه[١] ، لأن الملحَ مما يتعلق به نفعُ عام ، ولا يستغني عنـه أحدٌ وهو من صنع اللّه لا دخل لأحد في صنعه .

وسـأل أبيضُ بن حَمـال رسـولَ اللّه أن يعـطيَــهُ شَجَـر الأراكِ في البـراري ، فأعـطاه ما بَعُـدَ عن العمارة منـه فلا تبلغـه الإبلُ السَّـارِحَةُ إذا أرسلت في المرعى[٢] ، لأن القريب منه يتعلق به نفع عام ، حيث يحتاجه الناس لتنظيف أسنانهم .

وطلب حُرَيْث بن حَسّان ـ وافدُ بني بكر بن وائـل ـ حين وفد على رسول اللّه أن يخصص لبني بكرٍ أرضاً لا يدخلها من بني تميم إلَّا مسافرٌ أو مجاورٌ ، فقال رسول اللّه : اكتبْ له يا غلام بالدهناء ، فقالت لرسول اللّه امرأةٌ : يا رسول اللّه ، إنه لـم يسألك السَّوِيّة إذْ سَأَلك ، إنما هذه الدهناء عندك مُقيَّد الجَمَلِ ومرعىٰ الغنم ، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك ، فقال رسول اللّه : «أمسِكْ يا غلام، صـدقَتِ المسكينة، المسلمُ أخـو المُسْلِمِ يَسَعُهما الماءُ والشجَر ، ويتعاونان على الفَتَّان»[٣] ـ أي الشيطان ـ .

جـ ـ **التوجيه نحو العمل**: نظراً لانتشار الرقيق وكثرته في عصر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم فقد كان كثير من الأحرار يأنفون من مزاولةِ المِهَنِ اليدويّة ، بل كانت تسميتهم العمل اليدوي بالمهنة تعبيراً عن أَنَفَتِهِم منه .

ولكن رسولَ اللّه رأى أنه لا تقومُ دولةٌ ولا يُبنىٰ اقتصـادٌ إلا بالعمـل اليدوي الذي يمارسُه أهـل البلاد ، وإن الاعتمـادَ في الاقتصاد على أيـدٍ غـريبة يعـرِّضُ الاقتصادَ إلى هـزات عنيفةٍ ليست في مصلحـة الدولـة أن

---

(١) أبـو داود في الخـراج بــاب اقـطاع الأرضين ، والترمذي في الأحكام باب القطائع .

(٢) انظر المرجعين السابقين .

(٣) انظر الحديث في المرجعين السابقين .

تتعَرَّضَ لها ، ولذلك كان رسولُ اللَّه يوجِّهُ أصحابَه المؤمنين نحو العمَلِ اليدويِّ ويقول : « مَنْ أَمْسَىٰ كالًّا من عمل يده أمسىٰ مغفوراً له »(١) ويقول : « ما أكَلَ أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكُلَ من عملِ يَدِهِ ، وإن نبيَّ اللَّهِ داود كانَ يأكلُ من عملِ يده »(٢) .

د ـ **عدالة الأسعار** : وكان رسولُ اللَّه يعملُ على استقرار الأسْعار ، ويمنعُ من التلاعُب بها عن طريق التغرير بالبائعين وشراءِ السِّلَع منهم قبل تعرُّفهم على السِّعرِ الحقيقي لها ، وقد نهى رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم عن تلقِّي البُيوع(٣) ، أو عن طريق الاحتكار ، فقد قال صلى اللَّه عليه وسلّم : « من احتكَرَ طعاماً أربعين يوماً يريدُ به الغَلاء فقد برئَ من اللَّه وبرئَ اللَّهُ منه »(٤) .

هـ ـ **إعادة توزيع الثروة توزيعاً عادلاً** : وقد سلكت إعادة التوزيع هذه طرقاً متعددة تهدف كلها إلى إتاحةِ فرصةِ الحصولِ على المالِ للفقراء ، ففي السنوات الأولى من الهجرة كان رسولُ اللَّه يُرسل إلى الغزوِ مِنَ المهاجرين أكثرَ مما يرسل مِن الأنصار ، لعلهم يحصلون على شيء من الغنائم يُحسِّنون به وضعهم الاقتصادي ، بل كان عليه الصلاة والسلام يبعثُ بُعوثاً كلها من المهاجرين كبعث عبيدة بن الحارث إلى ثنية المرة ، وبعثِ سَعْد بنِ أبي وقاص إلى الخرار ، وبعث عبد اللَّه بن جحش إلى نخلة ، وغزوة العشيرة وغيرها من السرايا والغزوات .

وكانت الزكاة ، وزكاة الفطر ، وحظ الفقراء من خُمس الفيء ، والصدقات ، والكفّارات تساهمُ مساهمةً فَعّالة في رَدْمِ الفجوةِ الاقتصادية

---

(١) قال في الجامع الصغير : أخرجه الطبراني في الأوسط .
(٢) البخاري في البيوع باب كسب الرجل عمله بيده .
(٣) الترمذي في البيوع باب كراهية تلقي البيوع .
(٤) مسند الامام أحمد ٢ / ٣٣ .

بين فئتين من الناس هما : الأغنياء والفقراء ، ولم يمضِ زمنٌ طويلٌ حتى رُدِمَت هذه الفجوة ، وارتفع الفقراء إلى مصافِّ الأغنياء حتى لم يجدوا في اليمن في زمن عمر بن الخطاب من يَقْبَلُ الزكاة[1] .

٤ ـ سياسته الخارجية :

أ ـ **معرفةُ خصائصِ ومزايا الشخصيات القيادِيّة عند العدو** : كان رسولُ اللّه حريصاً على معرفة خصائص ومزايا الشخصياتِ القياديّة عند العدو ، وكان هذا يساعدُهُ كثيراً في اختيار التصرُّف الأَمْثَلِ تجاه كل شخصية من هذه الشخصيات .

ففي صلح الحديبية قدِم على رسولِ اللّه موفداً من العدوّ « مُكْرِز بن حَفْصِ بن الأَخْيَف » فلما رآه رسول اللّه مقبلاً قال : هذا رجلٌ غادر .

ثم أقبل عليه « الحُلَيْس بن عَلْقَمة » فلما رآه رسول اللّه مقبلاً قال : إن هذا من قوم يتألّهون ـ أي يعظمون اللّه ـ .

ثم أقبل عليه « سهيل بن عمرو » فلما رآه الرسول مقبلاً قال : قد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرجل . . .

وإذا عرف خصائص كل شخصية ، ساسَها بما يناسبها ، وبما يدفعُ شرَّها عن الدولة ، فهذا الحليس لمّا عرف رسولُ اللّه بأنه رجل متَدَيِّن ، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابَه بأن يبعثوا الهَدْيَ في وجهه حتى يراه ، ولما رأى الحُلَيْس الهدْيَ ـ الأنعام المهداة لفقراءِ الحرم ـ يسيلُ عليه من جوانبِ الوادي في أعناقه قلائِدُهُ ، رجع إلى قريشٍ ولم يصل إلى رسول اللّه ، إعظاماً لما رأى ، وأخبرهم بالذي رآه ، وأخبرهم بأنِ عليهم أن يخلُّوا بين

(١) انظر : موسوعة فقه عمر بن الخطاب ، مادة : زكاة/٧ .

محمد وبين الكعبة.

ولما قال له زعماء المشركين : اجلس إنما أنتَ أعرابيٌّ لا علمَ لك ، غضب وقال : يا معشر قُريش ، واللَّه ما على هذا حالَفْناكم ، ولا على هذا عاقَدْناكم ، أيُصَدُّ عن بيت اللَّه من جاءَ مُعَظِّماً له !! والذي نفس الحليس بيده لتُخَلِّن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفُرَن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

وهكذا استطاع رسولُ اللَّه بتصرفه الحكيم ـ حين عرف خصائص الحليس ـ أن يشقَّ عصا قريش ويوقع الخُلْف بينها وبين حلفائها من الأحابيش .

ب ـ **إقناع العدو بقوة الدولة الإسلامية** : إذا استطاعت الدولةُ أن تُقنع عدوَّها بقُوَّتها، بل بأنها أقوى منه، وأوقعت الرعبَ منها في قلبه، أمكنها أن تَحْسِمَ كثيراً من المواقفِ قبل الخوضِ فيها، ومن هنا كان يقول عليه الصلاة والسلام : « نُصِرْتُ بالرعب »[١] ويَعملُ جاهداً على إقناع عدوِّه بقوته ، وقد نجح رسولُ اللَّه في ذلك أيما نجاح ، حتى وصلت هذه القناعة إلى دولة الرومِ ، فإنها لما جمعتْ له الجموعَ في تبوك ، سار إليها رسولُ اللَّه ، وما أن وصلَ رسولُ اللَّه تبوكاً حتى رأى جموعَ الروم قد انصرفت عنها ، متحاشية الصِّدام معه .

وإذا كان الرعب قد دبَّ في قلب الروم فما بالك بقلوب قبائل العرب ، إن قلوبها ترتعد فَرَقاً عندما تسمعُ بقدوم جيش المسلمين ، فتفر من وجهه إذا وجدت فرصة للفرار ، وقد أحصينا من المواقف التي فرَّ فيها العدو بمجردِ سماعِهِ بمقدَم جيشِ المسلمين ما يلي :

---

(١) البخاري في الجهاد باب نصرت بالرعب ، ومسلم في أول كتاب المساجد .

غزوة السويق ـ غـزوة بني سُلَيم وغطفـان في قَرْقَـرَة الكُدر ـ غـزوة غطفان بذي أَمَر ـ غزوة بني سُلَيم بالفُرُع من بَحران ـ سرية زيد بن حارثة إلى القردة من مياه نجد ـ غزوة حمراء الأسد ـ غـزوة بدر الأخيـرة ـ غزوة دومة الجندل ـ غزوة بني لحيان ـ غزوة ذي قرد ـ سرية عكاشة إلى الغَمْر ـ سرية أبي عبيدة إلى ذي القصة ـ سرية زيد بن حارثة إلى الطرف ـ سـرية علي بن أبي طالب إلى فَدَك ـ سرية عمـر بن الخطاب إلى تـربة ـ سـرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يُمن وجُبار من أرض غطفان ـ سرية عُيَيْنَة بن حُصن إلى بني تميم ـ سـرية عَلْقَمـة بن محرز إلى الحبشـة الذين نـزلـوا بجدة .

هـذا إضافـة إلى بني ضُمْرَة الـذين وادعوا رسـول اللّه حين وصـل إليهم، وإلى بني قينقاع، وبني النضير، وبني قُريظة الذين نزلوا على حكم رسول اللّه ، وإضافة إلى يهود فَدَك ووادي القرى ، وتَيْماء الذين اسـرعوا بعد انتصار رسول اللّه على خيبر ، وصالحوا رسـولَ اللّه على ما صـالحه عليه أهلُ خيبر .

ولولا نجاحُ رسولِ اللّه في إقناع أعدائِه بقوةِ الدولـة الإِسلاميـة لما وَصَل إلى هذه النتائج المرضِيَّة ، ولَمَا وفَّرَ على جيشه كثيراً من المعـارِك الحربية التي تكلِّف الكثيرَ من المال ، ويضحِّيْ فيها بكثير من الرجال .

جـ ـ **احتواء العدو** : إن سياسةَ الاحْتِواء لا يقدر عليها إلَّا السياسيُّ الماهرُ الذي أعـطاه اللّه من ضبط النفس ومخالفـةِ الهـوى الشيءَ الكثيـر ، وقـد كـان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يمارسُ سياسة الاحتواءِ هذه على أدقّ ما يمكن أن تمارَسَ فيه ، وتظهر لنا هذه السياسة البارعة كأحسن ما تكون في احتواء رسولِ اللّه لقائدِ تجمُّعِ المشركين في أوطـاس وحنين « مالـكَ بن عـوف » ، ومـالُ « مـالِـكٍ » وأهلُه في الغنـائم عنـد رسـول اللّه ، فقـال

رسول اللّه لوفد هوازن ـ قوم مالك ـ حين وَفدوا عليه : ما فعلَ مالك ؟ قالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول اللّه : أخبروا مالِكاً أنه إن أتاني مُسْلِماً رَدَدْتُ عليه أهلَه ومالَه وأعطيتُه مائةً من الإبل . فأُخبِر مالكٌ بذلك ، فخرج سراً من الطائف ، ووفد على رسول اللّه معلناً إسلامه وولاءَه .

وقد رأينا سابقاً كيف احتوىٰ رسولُ اللّه أبا سفيان عندما جعل له شيئاً من الفخر بقوله صلى اللّه عليه وسلّم : « من دخلَ دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ » .

ورأينا كيف احتوىٰ زعماءَ مكة بما بذلَه لهم من مالٍ ، ووفَّر على نفسه عداوَتَهم .

د ـ **السلم والحرب** : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يُؤثِرُ حَلَّ مشكلاته مع أعدائِه بالطُّرقِ السِّلمية ، ويتحاشىٰ الصِّدام المسلَّح وإراقةَ الدِّماء ما استطاعَ ، وهذا ما شاهَدْناه منه عليه الصلاة والسلام عندما حلَّ المدينةَ المنورةَ وفيها من اليهود الحاقدين جماعاتٌ غير قليلة ، فلم يبدأهم رسول اللّه بالحرب ، بل عقد معهم معاهدةً سياسيّة جَمَّدت عداوَتَهم إلى حِين .

ولكن قد يستحيلُ حلّ المشكلاتِ بالطرقِ السلمية ، وتكون الحربُ اللغةَ الوحيدةَ التي يتعين على الخصوم التكلم بها ، وفي هذه الحالة كان ينظر رسولُ اللّه : فإن رأى أن بإمكان جيشه بكفاءَته الحاضِرة انتزاعَ النصرِ ، لم يتلكَّأ رسولُ اللّه في خوضِ الحرب ، ولكنه إن رأى أن المعركةَ خاسرةً ، وانه لا أملَ فيها بالنصر لجأ عليه الصلاة والسلام إلى كسبِ المعركةِ بالدّهاء السياسي لا بحدِّ السلاح ، وكثيراً ما يكون الدهاء السياسي لمن رُزِقَه أمضى وأجدى من كل سلاح .

لقد بلغَ رسولَ اللّه أن تحالفاً عسكرياً قد عُقد بين قريش في جنوب

المدينة المنورة ويهودِ خيبرَ في شمالِها ، الغايةُ منه وضعُ الدولة الإسلامية بين فكَّيْ الكماشة ثم الإطباق عليها ، لإنهاء الوجودِ الإسلامي في يثرب ، لم يكن في مقدور رسول اللَّه أن يكسِرَ هذا الحلفَ عسكرياً ، لذلك لجأ إلى الدَّهاء السياسي حينَ خرجَ مظهراً أنه يريدُ العمرة ، وكان مما قاله عليه الصلاة والسلام : « لا تدعوني قُريشٌ إلى خطةٍ يسألونَني فيها صِلَةَ الرَّحِمِ إلَّا أعطيتُهم إياها . . . »[1] ثم كان صلحُ الحديبية الذي كَسَرَ فيه الرسولُ هذا التحالف .

ويوم الأحزاب تحالفت قوى الشرّ على رسول اللَّه : قريشٌ ، وغطفانُ وبنو قُرَيْظة . ولم يكن آنذاك في مقدورِ رسول اللَّه أن يواجه هؤلاء مجتمعين ، لذلك فكّر رسولُ اللَّه بكسر هذا التحالف بالدَّهاء السياسي ، فبعث إلى قائدي غطفان : « عُيَيْنَة بن حصن » و« الحارث بن عوف » وعرض عليهما ثلثَ ثمار المدينة المنورة إن هما تَرَكا قريشاً ورجعا بما معهما من الناس ، ولكن هذا الاتفاق لم يلبث أن فَشِل لعدم مُوافقة زعماءِ الأنصار عليه، مما جعل رسولَ اللَّه يفكِّر بأسلوب سياسي آخر استغَلَّ فيه مجيءَ نُعَيم بن مسعود الأشجعي معلناً إسلامه ـ ونعيم ذو خبرة في تخذيل المحاربين ـ فاتفق معه على مخطط ، وأمره بتنفيذه ، فخرج نُعيم حتى أتى بني قُريظة ـ وكان لهم نديماً في الجاهلية ـ فقال : يا بني قُريظة ، قد عرفتُم وُدّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقتَ ، لستَ عندنا بمتَّهم، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البَلَدُ بلدُكم فيه أموالُكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تَقْدِرون أن تتحوَّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحربِ محمدٍ وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ،

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٥٢ ، وانظر البخاري في الشروط باب الشروط في الجهاد ، وأبا داود في الجهاد باب صلح العدو .

وبلدُهم وأموالُهم ونساؤهم بغيره ، فإن كان النصرُ أخذوا الغنائِمَ ، وإن كانت الهزيمةُ لَحِقوا ببلادِهم وخلُّوا بينكم وبين محمد ، ولا طَاقَةَ لكم به إن خَلَا بكم ، فلا تُقَاتِلُوا مع القومِ حتى تأخذوا منهم رهائنَ من أشرافِهم يكونون بأيديكم حتى يكونوا معهم حتى النهاية .

فقالوا : قد أشرت بالرأي .

ثم خرجَ من عندهم وأتى قُريشاً فقال لهم : قد عرفْتُم وُدِّي لكم وفِراقيَ محمداً ، وإنه قد بلغني أمرٌ ، فرأيتُ حقاً علي أن أبْلِغكموه ، نصْحاً لكم ، فاكتموا عني ، فقالوا : نفعل ، قال : تعلمون أن معشرَ يهود قد نَدِموا على ما صَنَعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد نَدِمْنا على ما فعلنا ، فهل يُرضيك أن نأخذَ لك من القبيلتين رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضربَ أعناقهم ؟ ثم نكون معك على من بَقِي منهم حتى نستأصِلَهم ؟ فأرسَل إليهم : أن نعم ، وأنا أنْصَحُكم يا معشرَ قريش انه إن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج من عند قريش وأتى غطفان فقال لها مثلَ ما قالَ لقريش .

ولما أرسلت قريشٌ لبني قريظة موعدَ البدءِ بالقتال، أجابهم زعماءُ لبني قريظة : لن نقاتل معكم حتى تُعطونا رَهْناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن ضَرسَتكم الحربُ أو اشتد عليكم القتال أنْ ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا ، ومحمد في بلدِنا ، ولا طاقةَ لنا بذلك منه . فأبوا أن يُعطوهم ، وخَذَّل اللَّه بينهم .

هـ ـ **المعاهدات المؤقتة:** من شأن كلِّ دولةٍ عَقَدِيّة أن تكون معاهداتها كلها مؤقتة وليست بدائمة ، لأنها لا تقرُّ بالحاكِمِيّة لغير اللَّه تعالى ، ولذلك رأينا رسولَ اللَّه يلغي بأمر من اللَّه جميعَ المعاهداتِ الدائمةِ بينه وبين

المشركين ، ويعطي أصحابَها مهلةً قدرها أربعة أشهر ، وعليهم أن يُعلنوا بعدها ولاءهم للدولة الإسلامية ، وإلاَّ فإن الدولة تكون في حلٍّ من قتالهم ، حيث قال تعالى في أول سورة براءة : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسولِهِ إلى الذين عاهَدْتُم من المشركين * فسيحوا في الأرضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُر ، واعلَموا أنكم غيرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وأن اللَّهَ مُخْزي الكافرين ﴾ .

و ـ **التبادل الدّبلوماسي** : كان رسولُ اللَّه يقرُّ التبادُلَ الدبلوماسي بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى ، وقد استقبل عليه الصلاة والسلام كثيراً من الرسل والوفود ، وكان عليه الصلاة والسلام يُراعي الأعرافَ المرعية في استقبال الرسل والوفود والحفاظ عليهم وحمايتهم ، وقد صح عنه أنه قال لرسولَيْ مُسَيْلمة : « أما واللَّهِ لولا أنَّ الرسُلَ لا تُقْتَل لضربتُ أعناقكما »[١] .

وأرسل رسلاً وكتباً إلى ملوكِ الأرضِ منها كتابه إلى هِرَقْل ، وكتابَه إلى كسرى، وكتابه إلى النَّجاشي، وكتابه إلى المقوقِسْ في الإسكندرية ، وكتابه إلى المنذِرْ بن ساوى ، وكتابه إلى جَيْفَرٍ وعبدٍ ابني الجَلَنْدي ملكي عُمَان ، وكتابه إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة ، وكتابه إلى الحارث بن شِمْر الغَسّاني[٢] .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/٤٨٧ وأبو داود برقم ٢٧٦١ .

(٢) انظر هذه الكتب في زاد المعاد ٣/٦٨٨ وما بعدها.

شخصية الرسول العسكرية

إن الشخصية العسكرية لقائدٍ ما لا يمكنُ رسمُها من خلالِ صفاتِهِ الشخصيَّة فحسب ، بل تُرسَم من خلال تعامُلِه مع الموقفِ العسكري بكل ما فيه من قيادة وجنود وأسلحة وخطط ، وهذا ما يفرِض علينا في دراستنا لشخصية الرسول العسكرية دراسة صفاتِهِ الشخصية ، وتعامُله مع جنوده، وإعداده السلاح ، ووضعه الخطط العسكريةِ .

وقد يتبادرُ إلى الأذهان وجود مغالاة في الحديث عن شخصية الرسول العسكرية وتطبيقه لمبادىء الحربِ ، وهي مبادىء حديثة ، وإلى هؤلاء أقول كما قال أخي الاستاذ أحمد راتب عرموش : إن العرب قالوا الشعرَ أولاً ، ثم وضعوا له الأوزانَ ، وكذلك القادَةُ العِظامُ على مرّ العُصور قادُوا حروبَهم ، ومنهم من انتصر ، ومنهم من انهزم ، ثم جاء المتأخِّرون فدَرَسُوا أسبابَ النصر وأسبابَ الهزيمة في كلِّ معركةٍ وعند كل قائد ، واستنتَجوا منها قواعدَ الحربِ ومبادِئِها[1] .

إن القيادَةَ الأصيلةَ فِطرةٌ تُخلَقُ مع الإنسان ، يتصرف القائد بها التصرف الحكيم الموافق للظرف الذي هو فيه .

ومن الخطأ أن نَظُنَّ أن قواعدَ الحرب قواعد منضبطة إذا طبقت بمنطوقها

---

(١) مقال : الرسول العربي قائد عسكري مثالي للأستاذ أحمد راتب عرموش المنشور في مجلة الدفاع الإسلامي العدد ١١ السنة الثالثة التي تصدر في لندن .

وحرفيتها انتجت النتائج المقدَّرة لها ، كالمعادلة الكيميائية التي تحدد العناصرُ المْشرَكةُ فيها حتميةَ الناتج منها ، لأن الحربَ تتداخل فيها عناصر غريبة كثيرة تؤثر على حتمية الناتج من تطبيق قواعد الحرب ، ومن هنا كانت نتائجُ الحربِ لا تتوقَّفُ على معرفةِ القائِدِ لقواعِدِ الحرب بقدر ما تتوقفُ على عبقَريَّةِ القائِدِ الفطرية وتكوينه الذهني .

١ ـ الصفات الشخصية للرسول القائد :

الشخصية القيادية فطرة يصقُلها التدريبُ والعلمُ ، فهناك أشخاص خُلِقوا ليكونوا قادة لما حباهم اللّه في أصلِ خَلْقِهم من الصفات والمزايا التي تؤهلهم للقيادة ، فإذا ما أتيحت القيادة لهؤلاء كانوا قادة أفذاذاً .

وهناك أشخاص استلموا القيادة دون أن تتوفر لهم هذه الصفات والمزايا ، فكانوا خير مثال للقائد الفاشل .

ورسولُ اللّه كان قائداً عسكرياً فذّاً باعتراف جميع المحلِّلين العسكريين ، وهو عليه الصلاة والسلام لم يكن كذلك إلَّا لتوفرِ مجموعةٍ من الصفات أهَّلَتْه لكي يكون قائداً فذّاً ، وإننا سنحاول أن نكشف عن هذه الصفات في شخصِ رسولِ اللّه من خلال تحليلنا للمواقف العسكرية التي مرّ بها عليه الصلاة والسلام .

أ ـ **اللّيَاقة البدنية** : لم تكن حربُ الأمس كحرب اليومِ ـ حرب أزرار ـ بل كانت حرباً تعتمد على اللياقةِ البَدَنية ، فالمسافاتُ الطويلةُ إلى موقع المعركة كانت تُقْطَع سيراً على الأقدامِ في كثير من الأحيان ، ومقارعةُ العدوِّ بالسيفِ قد تمتدّ يوماً أو أياماً ، والقائد أحياناً يكون في مقدمةِ الصُّفوف وأحياناً يكون في أوسطها ، كل ذلك يتطلب أن يكون القائدُ ذا لياقةٍ بدَنيةٍ عالية ، وقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم كذلك ، بل

كان عليه الصلاة والسلام يفوقُ في لياقَتِه البدنية جمهورَ أصحابه ، فقد صارع عليه الصلاة والسلام رُكانة ـ وركانة معروف بقوته وخبرته بالمصارعة ـ فصرعه رسول اللّه .

وشارك أصحابَه المسيرَ الطويلَ المُضْنِيَ حين فَرَضَه عليهم في غزوة بني المصطلق ، فكَلُّوا ولم يكلّ ، وتعِبوا ولم يتعَبْ .

وشارك أصحابَهُ في حفرِ الخندق ـ يوم أَمَرَ بحفرِ الخندق تحصيناً للمدينة ، لصدِّ هجوم الأحزاب عليها ـ فكانوا كلما اعترضَهم ما يُعجِزُهم حفرُهُ من صخرةٍ ونحوها لجأوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، فتتفتَّت الصخورُ تحت ضرباتِ معوله القاضية .

ب ـ **بُعْدُ النظر** : ويجب أن يكون القائدُ العسكري بعيدَ النظر ، وبُعْد النظر هذا مرحلة أرقى من مرحلة الذكاء ، فكل بعيدِ نظر ذكي ، وليس كلُّ ذكيٍّ بعيد النظر ، وإن الدارس لسيرة الرسول صلى اللّه عليه وسلّم يرى أن اللّه تعالى أعطاه من بُعْدِ النظرِ ما لم يعطِ غيره ، لقد رأينا بُعدَ نظره يوم وضعت قريشٌ الشروطَ لصلح الحديبية ، فقد رأى عقلاء أصحابه أن في هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين ، ورأى فيها رسولُ اللّه ـ بما آتاه اللّه من بُعدِ النظر ـ النصرَ للمسلمين ، ورأى أن قريشاً بوضعِها هذه الشروط إنما تحفُرُ قبْرَها بيدها ، وتكتب دمارَها بقلمها .

لقد رأى رسولُ اللّه في صلح الحديبية كَسْراً للطوقِ الذي ضربتْه قريشٌ عليه بتحالفها مع يهود خيبر ، وبذلك استطاعَ الرسولُ أن يضربَ خيبرَ ضربتَه القاضِية .

ورأى فيه استقراراً يستطيع من خلالِه مضاعفةَ نشاطِه الدبلوماسي بقصد الاعتراف بالدولة الإسلامية ونظامِها الحاكِم .

ورأى فيه إثارة للرأي العام العربي الذي جعلَ ينقُم على قريشٍ

صَدَّها عن البيت مَنْ جاءَ مُعَظِّماً له .

ورأينا بُعْدَ نظره في تألفه عبد اللّه بن أبي بن سلول ـ وكان ذا شوكة ـ يوم بني قَيْنُقاع ويوم بني النضير ويوم بني المصطلق ، وبقي رسولُ اللّه يتألفه حتى انكشف نفاقُه، وظهرت عداوته للإسلام والمسلمين، فجعل قومه بعد ذلك إذا أَساءَ الإِساءة هُمُ الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنِّفونَه ، وعندها قال رسول اللّه لعمر بن الخطاب : كيف ترى يا عمر ؟ أما واللّه لو قَتلتُه يومَ قلت لي: اقتله ، لارْتَعَدَتْ له آنفٌ لو أمرتُها اليومَ بِقَتْلِه لقَتَلَتْه ، فقال عمر : قد ـ واللّه ـ علمتُ أن أمر رسولِ اللّه أعظم بركة من أمري[1] .

جـ ـ **سرعة اتخاذِ القرار الصحيح** : القيادةُ العسكرية بحاجةٍ أكثر من غيرها إلى القرارات السريعة، ومع سرعة اتخاذِ القرارِ يفشلُ كثيرٌ من القادة العسكريين في تحقيق القرار الصحيح في كثير من الأحيان .

نحن لا ننكر أن القرارَ الصحيحَ لا بد من أن يستند على حصيلةٍ من المعلومات الصحيحة والقيِّمة عند القائد ـ ولذلك كان رسول اللّه لا يقصِّر في جمع هذه المعلومات ، وما أكثر السرايا والدوريات التي بعثها بقصد جمع المعلومات ـ ولكننا لا نستطيع أن نهملَ الاستعدادَ العقلي لاستنباط القرارِ الصحيح من هذه المعلومات ، وهذا ما بلغ فيه الرسول شأواً لم يجارِه فيه أحدٌ من أقرانه .

دخلَ رسولُ اللّه حَرَم مكة وهو ما زال في مُقتَبَلِ العُمُر ، فوجد زعماءَ القبائِلِ قد اختلفوا فيمن يضَعُ الحَجَرَ الأسودَ مكانَه في ركن الكعبة ، وحكَّموه بينهم ، فاتخذَ قراره بسرعةِ البرقِ ، فبسَطَ رداءَه ووضع

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٤١ .

الحجر الأسودَ عليه ، وأمر زعماءَ القبائل كلَّهم أن يحملوا الرداء ، وكـان قراره مع سرعته في غاية الصحة .

وتفرق المحاربون يوم أُحد عن رسول اللَّه تحت ضربات المشركين العنيفة ، واستُهْدِفَت قيادةُ الجيش الإسلامي ، فاتخذ الرسول قراراً سريعاً بنقل القيادة إلى بطنِ الجَبَل وإقامة دفاع عنها ، وكان هذا القرار على غاية من الصحة .

وعاد المسلمون من أُحُدٍ قد أنهكَتْهُم الحربُ ، فاتخذ الرسول قراره السريع ـ رغم تعب قواته ـ باللحاق بالعدوِّ المنتصر ـ بعد أن أرسل له من يخوِّفه ويخذِّله ـ ولحق بالعدوّ ، وما أن سمعَ العَـدُوّ بمقدَمـه حتى فَرَّ من وجهه ، فكان هذا القرار السريع في غاية الصحة .

وما أن رَجَع الأحزاب عن المدينة المنورة حتى اتخذ الرسول قراره السريع بالانقضاض على بني قريظة ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً حتى نزلوا على حُكْمِه ، وكان هذا القرار السريع على غاية من الصحة .

د ـ قوة الإرادة : ولا بد للقائِدِ العسكري أن يكون قويَّ الإرادة ، يمضي في تنفيذ ما قرره مهما واجهه من عقبات ، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم كان مثالاً يُحتَذىٰ في ذلك .

● ففي أُحُد استشارَ الرسولُ أصحابَه في أمرِ الخروج لقتـالِ قريش ، أو التحصُّن في المدينة المنورة ، فكان رأي جمهور الصحابة الخروجَ للقاءِ قريش لئلا تَظُن بهم قريشٌ الجبنَ ـ وكان رأي رسول اللَّه التحصّن في المدينة ـ وقرّر الرسـول العَمل بـرأي الصحابـة ، فدخـل عليه الصـلاة والسلام بيته ليتجهز للحرب ، وفيما هو كذلك ، تشاوروا فيما بينهم ، وغيّـروا رأْيَهم ، فلما خـرج رسـولُ اللَّه إليهم قـالَـوا : يـا رسـول اللَّه استكرهناكَ على الخروج ، ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد ، فما

كان من رسول اللّه إلاَّ أن قـال : «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأْمَتـه ـ عدة الحرب ـ أن يضَعَها حتى يقاتل » .

● وبعد أُحُدٍ لما عاد الصحابة من المعـركة وقـد انهكتهم الجراح ، أصـدر الرسول أمره لهم بالتجهز للّحاق بالعدو ، فتثاقلَ الصحابةُ عن ذلك لما بهم من التعب والجراح ، ولكن رسول اللّه صمم على تنفيـذ ما قـرره ، وقد كان الخير كل الخير في هذا التصميم .

● ولماعلم بعَزم الأحزابِ على مهاجمة المـدينةِ المنـورة قرر عليـه الصلاة والسلام حفرَ الخندقِ الذي يقي المدينة المنورة هجمةَ الأحزاب ، ورغم أن طولَ الخندق كان خمسة آلاف ذراع ـ أي حوالي٢٣١٠ أمتار ـ وعرضه تسعةَ أذرعٍ ، وعمقه سبعةَ أذْرُع[1]، ورغم أن حفر الخندَقِ كان في ظروفٍ سيئةٍ جداً ، حيث كـان العامُ عـامَ مجاعـة ، وكان البـرد قارسـاً والريـاحُ شديدة ، والمرجفون من المنافقين يُثبِّطون المسـلمين مـا استطاعـوا إلى ذلك سبيلاً ، إلاَّ أن رسولَ اللّه صمَّم على حفرِ الخندق ، وصمم أن يتمَّ إنجازُ الحفْرِ قبل موعِدِ قدوم الأحزاب ، فكان لرسول اللّه مـا أرادَ ، وتم حفرُ الخندق في شهرٍ ، وقد أنجز العمل فيه قبل وصول الأحزاب بثـلاثة أيام .

هـ ـ **الشجاعةُ الشخصيـة** : وقد تقدم الكلامُ على شجاعـة الرسـول صلى اللّه عليه وسلّم عند حديثنا عن (شخصيـة الرسـول الآدمية ـ صفـاته النفسيـة والسلوكية ـ تكامل صفات الرسول) .

و ـ **رباطةُ الجـأْش** : القائدُ العسكري كثيراً ما يمرّ بمواقفَ أكثر ما يكون فيها حاجة إلى رباطةِ الجـأش، لأنه لـو فقد أعصـابَه، وطـاشَ صوابـُه لكانت

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب ص ١٩٤ .

الهلكة ، والمتتبع لسيرةِ المصطفى عليه الصلاة والسلام يجد أنه عليه الصلاة والسلام من أشدِّ الناسِ امتلاكاً لأعْصابِه ، وأكثرهم رباطة لجأشه في الأزمات .

وقد برزت هذه الصفةُ في رسولِ اللّه يومَ قدم عليه غَوْرَثُ بن الحارث مُصْلِتاً سيفَه ورسول اللّه مضطّجع ، وغَوْرَث يصيح : من يمنعك مني يا محمد ، فبقي الرسول رابطَ الجأش وصاح بغورث صيحة قائلاً : « اللّه » أسقَطَت السيف من يده ، ولو أن رسول اللّه ارتبك واضطرب لما استطاع أن ينجو من خصمه .

ويوم تفرّق عنه الناسُ في أُحُد ، بقيَ رابطَ الجأش يصدرُ الأوامِرَ ويفكر بسبُل النجاة ، وقد أصدر أمره الحكيم بنقل القيادَةِ إلى الجبل .

ويوم حُنَيْن حين تفرَّق عنه أصحابُهُ ، بقي رابطَ الجأش يفكر في كيفية إعادةِ تجميع قواته ، ولو أنه أُسْقِطَ بيده لكانت الهَلَكَة عليه وعلى المسلمين .

ز ـ **القدرةُ على السيطرةِ على الجيش وإعادة التنظيم بعدَ الهزيمة** : يقول اللواء الركن مصطفى طلاس في كتابه : « الرسول العربي وفن الحرب » : « إن عدد القادَةِ في التاريخ الذين استطاعوا أن يُسيْطِروا على جيوشِهم بعد الهَزيمة يُعَد على أصابع اليد ، لذلك فإن كبارَ القادَة العسكريين يَحنون هاماتِهم لعملِ الرسول العربي في المناورةِ العسكرية البارِعَة لحملَةِ حَمْراء الأسد »[1] .

أقول : ولعمله يومَ حنين ، حيث استطاع عليه الصلاة والسلام السَّيْطرة على قواتِهِ بعد الهزيمة وجمعها من جديدٍ ومتابعة القتال بها ،

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب ص ١٧٣ .

وانتزاع النصر من الأعداء غَلَبَةً وقهراً .

ح ـ **معرفته بخصائص رجاله ورجال عدوه** : كان رسول اللّه يعرف خصائصَ قواده .

فيعرف في أبي عبيدة التَّرَوِّيَ والمحافظةَ على الجند ، ولذلك سماه بـ « أمين الأمة » .

ويعرف في خالد بن الوليد الشجاعَـةَ التي لا حدود لهـا ، والبطشَ الذي لا يعرف الرحْمَة في العدوّ ، ولذلك سماه بـ « سيف اللّه » .

ويعرف في أبي بكر الصِّـدْقَ الذي لا يعـرف الشَّكُّ إليـه طريقـاً ، والإخلاصَ الذي لا يتلجلج ، ولذلك سماه بـ « الصدّيق » .

ويعرف في عمر بن الخطاب نصرة الحَقّ مهما كلفته هذه النصرة من ثمن ، وإقامة العدل ولو كلفه ذاته ، ولذلك سماه بـ « الفاروق » وهكذا .

وكمـا كان عليـه الصلاة يعـرف خصـائص رجـالـه ، كـان يعـرف خصائصَ رجالِ عدوّه ، كما تقدم الحديث عن ذلـك عندمـا تكلمنا عن سياسته الخارجية .

ط ـ **عدم الاستبداد بالرأي**، وهذا ما سنتحدث عنه تحتَ عنوان «الاستشارة» عندما نتكلم عن مقدمات القتال وأساليبه في الفقرة/ ٤ ي .

ي ـ **تحمل المسؤولية**[1] : لا بد للقائد من الاتصاف بتحمل المسؤولية ، ويبدو لنا اتصاف رسُول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بهذه الصفة في مواقف عديدة نذكر منها :

ـ تحمله عليه الصلاة والسلام مسؤوليةَ اتخاذِ قرار القتال الذي اتخـذه يوم

---

(١) انظر مقال محمد العربي قائد عسكري مثالي ، في مجلة الدفاع الإسلامي العدد/١١ السنة الثالثة .

بدر مع عدم تكَافؤ القواتِ ، وتفوق قوة العدوِّ على قوة المسلمين ، وقد كان مِن آثار تحمله هذه المسؤولية إمعانه عليه الصلاة والسلام بالدعاء وسؤالِهِ ربَّه النصرَ .

ـ وتحمله مسؤولية قرار الهِدْنَة التي وقعها مع قريش يومَ الحديبية رغم اعتراض بعضِ كبارِ الصحابة عليها ، ويبرز لنا تحَمّله للمسؤولية فيها في قوله لعمر بن الخطاب حين أعرب عن اعتراضه على هذه الهدنة : « يا عمر : أنا رسول اللّه » .

ـ وتحمله مسؤوليةَ قرار الخروج لملاقاةِ العدو في أُحُد ، بعد أن استشار الناس في أمر الخروج ، فافترقوا ، فمنهم من فضل الخروج ، ومنهم من فضّل التحصن في المدينة المنورة، ويبدو لنا تحمله هذه المسؤولية في قوله للمعتذرين إليه : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » وأنه عليه الصلاة والسلام لم يعاتب الذين أشارُوا عليه بالخروج إلى لقاءِ العَدُو رغم ما تحمَّلَه المسلمون من الخسائر ، بل اعتبر الرسول نفسه هو المسؤول عن هذا الخروج لا غيره ، لأنه هو الذي اتخذ قراره .

ومثل هذا كثير في السيرة النبوية المطهرة .

٢ ـ إعداده الجنود المحاربين :

الجنديُّ هو العُدّة الأولى في الحرب ، وبدونه لا يكون نصرٌ ولا هزيمة ، ولذلك كانت العناية به في كل جيوش الدنيا كبيرة ، وتركَّزتْ عنايةُ رسول اللَّه بالجندي بما يلي :

أ ـ إكسابه لياقةً بَدَنيّة عالية تساعدُه على المضي في المعركة في أسوأ الظروف ، وتحمُّل الشدائد فيها كأحسن ما يكون الاحتمالُ ، ولا يكون ذلك إلاَّ بالتدريب المستمرّ ، وأحياناً يُرافق هذا التدريبَ من أجل اللياقة استخدامُ أدواتِ الحرب كالمسابقة على الخيل ـ وهو ما سنتحدث عنه في

الفقرة التالية ، عند حديثنا عن التدريب على استعمال وسائل الحرب ـ وأحياناً لا يرافقه استخدامُ أدواتِ الحرب كالسباحةِ التي ندبَ إليها الرسول وأمر الآباء بتعليمها الأبناء بقوله : « علِّموا أولادَكم السباحَةَ والرَّمي »(١) لأن السباحةَ من أحسن الرياضات لإكساب الجسمِ اللياقةَ العالية ؛ وكالمشي حُفاةً ، لأن المحاربَ قد يفقدُ حِذَاءَه في المعركة ، ويضطر لمتابعة المشي ، أو متابعة القتالِ حافياً ، ولا بد من أن يكون متدرباً عليه منذ أيام السلم ، قال فُضَالة بن عبيد : (كان رسولُ اللّه يأمرنا أن نَحْتَفي أَحياناً)(٢) .

ب ـ **تدريبُه على استخدامِ أدواتِ الحرب بمهارة** : فكان عليه الصلاة والسلام يطلب من جنوده أن يجعلوا من التدرب واتقانِ استخدامِ أدواتِ الحرب مادةً **للهْوِهم** فيقول : « كلُّ لَهْوٍ باطل ـ ليس من اللهو المحمود ـ إلّا ثلاثة : تأديبُ الرجلِ فرسَه ، وملاعبته أهلَه ، ورميه بقوسِه ونَبْلِه ، فإنَّهُن من الحَقّ »(٣) ويقول : « لا سَبَقَ إلَّا في خِفٍّ أو حافرٍ أو نَصْلٍ »(٤) .

وكان هو عليه الصلاة والسلام يقيمُ **المباريات** لذلك ويدعو الناس إليها ، ويشارك هو بنفسه فيها ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يضمِّر الخيلَ يُسابق بها(٥) ، وكانت لرسول اللّه ناقةٌ يقال لها : العَضْباء ، لا تُسبَق ، فجاء أعرابيٌّ على قَعودٍ فسَبَقها ، فشقَّ ذلك على المسلمين حتى عَرَفَه ، فقال رسولُ اللّه : « حقٌّ على اللّه أن لا يرتفع شيءٌ من الدنيا إلّا وَضَعَه »(٦) .

---

(١) سنن البيهقي .
(٢) أبو داود في الترجل .
(٣) أبو داود في الجهاد باب الرمي .
(٤) أبو داود والترمذي في الجهاد باب السبق ، والنسائي في الخيل باب السبق .
(٥) أبو داود في الجهاد باب السبق .
(٦) البخاري في الجهاد باب ناقة النبي .

وخرج عليه الصلاة والسلام على نفر من أسْلَم ينتضِلون بالسيوف ، فقال رسول اللّه : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكُم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بني فلان ، قال ، فأمسك أحَدُ الفريقين بأيديهم ، فقال رسول اللّه : ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمي وأنتَ معهم ، فقال النبيُّ صلى اللّه عليه وسلّم : ارموا وأنا معكم كلكم »(١) .

وإدامة هذا التدريب وتعهد هذه المهارة بالرعاية الدائمة للحفاظ عليها والارتقاء بشأنها قد أولاه النبي عناية خاصة بقوله : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ، أو قد عصى »(٢) .

جـ ـ **تحقيق أسطورة « الشعب هو الجيش »** : كان رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يطمحُ أن يجعلَ الشعبَ كلَّه جنوداً ، وقد تحقق له عليه الصلاة والسلام ما أراد ، وذلك عندما أطلق صيحة الحرب ، وأخذ يُعِدُّ العدة لقتال الروم في تبوك ، لقد التحقَ بالجيش كلُّ قادرٍ على حمل السلاح ، لم يتخلف من الناس إلَّا مَنْ كانوا لا يعدُّون من جيش رسول اللّه من المنافقين ، وثلاثةٌ من أهل الإيمان لا عذْرَ لهم في تخلفهم ، ما كانوا في ساعة من الساعات أشدَّ من هذه ندماً منهم على تخلفهم ، يقول اللواء مصطفى طلاس : « ولا توجد في التاريخ تعبئةٌ شاملةٌ تفوق هذه النسبة »(٣) .

ومما يزيد من جلال تحقيق أسطورة « الشعبُ هو الجيش » أن الشعبَ كان يقبل على الالتحاق بالحربِ طائعاً غير مكره ، يتشوَّقُ إلى لقاءِ العدوِّ لعله يفوزُ بالشهادة ورضوان اللّه ، بينما يلتحق الشعبُ بالحرب في ظلِّ القيادات الأخرى والأنظمة الأخرى خوفاً من أن تناله عقوبةُ التخلف عن الالتحاق بالحرب .

---

(١) البخاري في الجهاد باب التحريض على الرمي .

(٢) مسلم في الإمارة ، باب فضل الرمي .

(٣) الرسول وفن الحرب ص ٢٦٣ .

د ـ **الإيمان** : لقد غرس رسول اللّه في نفس كلِّ جنديّ من جنوده الإيمانَ باللّه تعالى ، والإيمان بالقيادة ـ لا كقيادة عسكرية فحسب ، بل هي نبوة مسدَّدة بالوحي ـ والإيمان بسموٍّ وعدالةِ المبادىءِ التي تدعو إليها القيادة ، والإيمان بأن الوقوفَ في وجه هذه المبادىء ومنعها من الانتشار جريمة في حق الإنسانية ، وهذه الجريمة يجب أن تُمنع ولو بقوة السلاح ، والإيمان بأن من يُقتل في نضالِهِ لمنع هذه الجريمةِ فهو شهيد ليس له جزاءٌ إلّا الجنة .

هـ ـ **المحبة** : لم يكتف الرسولُ صلى اللّه عليه وسلّم بغرس الإيمان في نفوسِ جنوده ، بل غذّى هذا الإيمان بالحب ، فجعل عليه الصلاة والسلام حبَّ القيادة ـ الرسول ـ أمراً لا يكمل الإيمان إلّا به ، قال صلى اللّه عليه وسلّم : « لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين »[1] .

هذا الحب هو الذي جعل أبا دُجانة ينصِبُ نفسَه تِرساً لرسول اللّه في أُحُدٍ ، فجعلت السهامُ المصوَّبة على رسول اللّه تقعُ في ظهر أبي دُجانة ، وأبو دُجانة سعيدٌ بها في ظهره ما دامت لم تصِبْ رسولَ اللّه ، وهو يقول : نفسي دون نفسك فداء يا رسول اللّه .

هذا الحب هو الذي جعل نُسَيْبة بنتَ كعب المازنية تنزل إلى مقدّمة الصفوف وتقف مدافعة عن رسول اللّه في أُحُدٍ ودماؤها تنزف من جراحِها .

هذا الحب هو الذي جعل تلك المرأة من بني دينار تنسى قَتْلَ أبيها

(١) البخاري ومسلم في الايمان باب حب رسول اللّه .

وزوجها وأخيها في أُحُد وتقول حين أخبرت بقتلهم : ما عن هذا أسألُكم ، ولكن أخبروني عن رسول اللّه فلما قيل لها : إنه بخير ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته قالت : كلُّ مصيبة بعدك جَلَلٌ يا رسول اللّه[1] .

و ـ **التحرق للقتال** : لقد استطاع رسول اللّه أن يوجدَ في جنودِه من الصحابة التحرُّق للقتال حتى كان القتالُ أحبَّ إليهم من الإيواءِ إلى زوجاتهم في ليلةِ العرس .

فهذا خالدُ بن الوليد رضي اللّه عنه يقول : ما ليلةٌ تهدى إلى بيتي فيها عروسٌ أنا لها محب ، أو أُبشَّر فِيها بغُلام أحبَّ إلي من ليلة شديدة الجليد في سَرِيّة من المهاجِرين أُصَبِّح بها العدو[2] .

وهذا حنظلة بن عامر ترك زوجتَه ليلةَ عرسه ليلتحق بالمحاربين يوم أُحد ، فأعجلته الحربُ عن الغسل ، فخرج جنباً[3] .

وهذا عُمير بن الحمام جلس يأكل تمرات في يده ـ يوم بدر ـ فسمع رسولَ اللّه يقول : « والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يُقَاتِلُ اليومَ رجلٌ فيقتل صابراً محتسِباً مقبلاً غيرَ مدبرٍ إلاَّ أَدْخَلَه اللّهُ الجنة » فقال عمير : بخٍ .. بخٍ .. أفما بيني وبين أن أُدخل الجنة إلاَّ أن يَقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[4] .

ويعتبر أعجوبة الأعاجيب فعل المقدادِ بنِ الأسود فارس رسول اللّه المشهور عندما كَبِرَ وعظُمَ جسمُه وشاخَ ، فقد رآه أبو راشد الحَبْراني

---

(١) قراءة جديدة للسيرة النبوية ص ٢١٥ .

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٣٥٠ والاصابة ١/ ٤١٤ .

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٨٣ .

(٤) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٦٥ ، وانظر مسلم في الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد .

بحمص جالساً على تابوتٍ وقد فَضَل عنه من سِمَنِه فقال له راشد : لقد أعْذر اللَّهُ إليك ، قال : أتت علينا سورةُ البعوث ﴿ انفِرُوا خِفَافاً وثقالاً ﴾[1] ـ التوبة/ ٤١ ـ .

والأعجب من هذا فعل ابن أم مكتوم الأعمى حين خرج إلى غزوة أُحُد وطلب أن يُعطىٰ اللواء[2] ، ياللَّه أعمى يشارِكُ في الحربِ وقد امتلأ عَزماً وتصميماً ، ويطلب أن يُعطى اللواءَ ، لأنه يشعر أنه لا يوجدَ في الجيش من يحمل تحرّقَه وعزمه على المحافظة عليه .

ولم يكن هذا التحرق للقتال عند الكبار فحسب ، بل تجاوزه إلى الصغار ، فقد انضم إلى جيش رسول اللَّه يوم أُحُد مجموعةٌ من الصغار ، فردّهم رسول اللَّه ولم يوافق على مشاركتهم في القتال فقيل : يا رسول اللَّه إن أحدهم ـ وهو رافع بن خديج ـ رام ، فأجازه ، فلما أجاز رافعاً قيل: يا رسول اللَّه إن سَمُرة ـ صغير آخر ـ جَلْدٌ قويٌّ يصرع رافعاً، فأجازه أيضاً، وردّ بقية الصغار ومنهم : أسامة بن زيد ، وعبد اللَّه بن عمر ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسيد بن ظهير .

ز ـ **العزم والتصميم على المضي في المعركة** : لقد استطاع رسولُ اللَّه أن يوجدَ في نفس جنوده العزمَ والتصميمَ على المضيِّ في المعركة حتى الرمَق الأخير ، حتى يكون النصرُ أو الشهادة ، ونكتفي هنا بحادثةٍ واحدةٍ تنبىء عَمّا عَداها ، تلك هي حادثة مُصْعَب بن عُمَيْر يوم أحد . . . لقد حمل مصعبٌ لواءَ المسلمين في هذه المعركة ، وخاضَ غمارَ الحرب ، فاستهدفه العدُوّ ، فضربَ رجلٌ من الكفار يَده التي يحمل بها اللواء فقطعها ، فأمسك اللواءَ باليد الأخرى ، فضربَ اليدَ الأخرى ، فأمسك

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٧٦ .

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٢٢٦ .

اللواءَ بصدرِه وقرأ : ﴿ وما مُحَمَّدٌ إلَّا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُل . . . ﴾[١] .

إن قائداً استطاع أن يبثَّ في جنوده هذه الروح القتالية ليستحقُّ أن تنحني له الهامات إجلالاً وإكباراً لعبقريته .

٣ـ التسليح :

لم يغفل الرسولُ القائدُ عن دور السلاحِ في اكتساب النَّصرِ ، ولذلك نراه عليه الصلاة والسلام يُولي التسليحَ اهتماماً كبيراً ، ويراعي في التسليحِ أمرين :

الأول : وفرة السلاح ، ولذلك حرص عليه الصلاة والسلام أن يكون عند كلِّ محاربٍ سلاحه وعدة حربه ، يشتريها هو بنفسه من ماله ، ليشعر بقيمتها ، وليتحرَّق على استعمالها ، فكان يقول حاضّاً على اقتناء الخيل ـ والخيل آلة الجهاد ـ : « الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخير : الأجر والمغنم ، إلى يوم القيامة »[٢] ، ويقول حاضّاً على صناعةِ النبال : « إن اللّه ليُدخِل بالسهم الواحد ثلاثةَ نَفَرٍ الجنةَ : صانعُه يحتسِبُ في عمله الخير ، والرامي به ، والمُمِدُّ به »[٣] .

وإذا ما عجز الأفرادُ عن تأمين سلاحِهم وعدةِ حربهم بأنفسهم لسببٍ من الأسباب ـ كالفقر مثلاً ـ لجأوا إلى الدولة لتؤمن لهم ما يحتاجونه من عدة الحرب .

وقد حدث أن عجزَت الدولةُ عن تأمين عدّةِ الحربِ لطالبيها ، في غزوةِ تبوك ، نظراً لضيقِ الموارِدِ المالية لها آنذاك ، وكثرة الطالبين ، وقد قص اللّه

---

(١) تفسير القرطبي ٨/٢٢٦ .

(٢) البخاري في الجهاد ، ومسلم في الامارة ، كلاهما في باب الخيل في نواصيها الخير .

(٣) أبو داود في الجهاد باب الرمي .

تعالى علينا ذلك في القرآن الكريم في سورة براءة ٩١ ـ ٩٣ : ﴿لَيسَ على الضُّعفاءِ ولا على المَرْضىٰ ولا على الذين لا يَجِدُونَ ما يُنفِقون حَرَجٌ إذا نَصَحُوا للّهِ وَرَسولِه ، ما على المُحْسِنين من سَبيل واللّهُ غفورٌ رحيم * ولا على الذين إذا ما أتَوْكَ لتَحْمِلَهم قلتَ لا أجِدُ ما أحْمِلُكم عليه وَتَولَّوْا وأعيُنُهم تَفيضُ من الدَّمْع حَزَناً ألَّا يَجِدوا ما يُنفقون * إنما السبيلُ على الذين يَسْتَأذِنونَك وهم أغنياءُ ، رَضُوا بأن يكونوا مع الخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ على قُلوبِهم فهم لا يَعْلَمونَ﴾ .

الثاني : نوعيَّة السلاح : لقد كان رسولُ اللّه يدرس أسلحَةَ العدوِّ وطبيعة قتاله، ثم يُعدُّ له من الأسلحة ما يُبْطِل مفعولَ أسلحته أو يُدَمِّرها، فيفاجئه بها، وقد فاجأ الأحزابَ بالخندق الذي حفَرَه في منطقةِ هجوم الأحزاب ، فأبطل به هجومهم ، فوقفوا عنده لا يتجاوزونه .

وفاجأ ثقيفاً عندما حاصر الطائف ـ والطائف مدينة ذات حصون قوية ، يحيط بها سور له أبواب تغلق عليها ـ بسلاحٍ جديد فعّال ضد الحصون ، وهو المنجنيقات والدبابات ، فرمى أسوارَ الطائف بالمنجنيقات ، وتقدم بعضُ جنود المسلمين بحماية الدبابات إلى سور الطائف ليُعْمِلوا معاوِلَهم فيه ويخرقوه ، ولكن أهلَ الطائف كانوا قد أعَدّوا لهذه الدبّابات قطعَ الحديدِ المحمي ، فألقوها عليها ، فاحترقَتْ ، وفشِلَ الهجوم .

٤ ـ مقدمات القتال وأساليبه :

أ ـ **الحرب الإعلامية** : يقول نابليون : إن العاملَ المعنويَّ في الحرب أكثرُ أهميَّة من العامل المادي بنسبة ثلاثة إلى واحد[1] .

ورسولُ اللّه قد عرف هذه الحقيقة قبل نابليون ، ولم يُغفِل

(١) الرسول القائد ص ٤٦ .

تطبيقها ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يقصر في شن الحرب الإعلاميَّة ضدَّ أعداءِ الدولة الإسلامية ، فيوم الحديبية أعلَن رسولُ اللَّه أنه يريدُ العمرة ، واستصحب معه المسلمَ والمشركَ ، وساقَ الهديَ معه ، ولم يكن من السهلِ على قريشٍ أن تسمحَ له بالدخول إلى مكة ، فمنعته من دخولها وعقدت معه معاهدةً كان من بنودها : أن يعودَ هذا العام فلا يَدخل مكة ، وإن أراد دخولَها في العام القادم فذلك أمر لا بأس به .

واستغلَّ الرسولُ هذا الردّ ، وأشاع في القبائل أن قريشاً تصدُّ عن البيتِ من جاء معظّماً له ، وفعلت هذه المقولَةُ فعلَها حتى كادت أن تثيرَ حرباً أهلية في مكة بين الأحابيش الذين يتزعمهم الحُليس بن علقمة ، وبين قريش .

والحرب الإعلامية لا تقف عندَ حدودِ إضعافِ معنويات العدوّ وإشاعة الفوضىٰ بين صفوفه فحسب ، بل تتجاوزه إلى **إبطالِ إعلام العدوّ** بإيقاف أجهزته عن العمل ، أو إبطال مفعولها. ولذلك أرسلَ رسولُ اللَّه من يقتلُ كعبَ بن الأشرف ، وعصماء بنت مروان ، وأبا عفيك ، وكانوا شعراء يتبنون الحربَ الإعلامية ضد الدولة الإسلامية .

ب ـ **استبعاد المخَذِّلين عن الجيش** : وكان رسول اللَّه يسعىٰ السعي الحثيث لأن يضم جيشُه المؤمنين المخلصين ، وأن يخلوَ من أهلِ الرِّيب والشَّك ، لأن ضررَ هؤلاء على الجيش قد يفوق ضررَ العدوّ لما قد يمارسونه من تخذيل المسلمين عنِ القتال ، أو إلقاءِ الخوف في قلوبهم ، ولذلك فإنه عليه الصلاة والسلام لما رأى ـ وهو في طريقه إلى أحد ـ كتيبة حسنة التسليح ، منفردة عن سواء الجيش ، قال : ما هذا ؟ فأبلغوه أنها كتيبة اليهود حلفاء عبد اللَّه بن أبيّ بن سلول يرغبون في مشاركةِ المسلمين مقاتلة المشركين ، فقال رسولُ اللَّه : هل أسلموا ؟ فقالوا : لا ، قال :

مروهم أن يرجِعوا ، فإننا لا ننتصر بأهل الكُفْرِ على أهْلِ الشرك[1] .

جـ ـ **إظهار قوة الجيش الإسلامي** بتواجده بسرعة فائقة في الأمكنة التي تقام فيها تجمّعاتٌ معادية، وضرب هذه التجمعات والقضاء عليها بضربة خاطفة ، كما فصلنا ذلك في حديثنا عن سياسة الرسول الخارجية فقرة/ ٤ ب .

د ـ **تحديد الهدف وعدم الانثناء عنه** : إن تحديدَ الهدف الذي يتمّ التحركُ نحوه أمرٌ لا بد منه لرسم مسيرةِ القتال ، وتمثُّلُ هذا الهدفِ وعدمُ الانشغال عنه بمعارك جانبية تُفْرَض على القائدِ لتضليلِهِ وحَرْفِهِ عن هَدَفِهِ أمرٌ لا يكون بغير تخطيط سليم للمعارك المصيرية .

ولذلك رأينا رسولَ اللّه يحددُ الأهدافَ التي يريدُ تحقيقها ، ثم يتحركُ نحوها بخطواتٍ ثابتة ، لا تلهيه عنها المعاركُ الجانبية التي يفرضُها عليه العدوّ .

لقد وضع الرسولُ أولَ هدفٍ عسكري له ، وكان هذا الهدف هو القضاءُ على اليهود في الجزيرة العربية ككيان سياسي وقوة عسكرية ، وجعل ذلك مقدَّماً على الهدف العسكري الثاني وهو القضاء على المشركين الوثنيين ككيان سياسي وقوة عسكرية .

ورغم ما كان يُفْرَض على رسول اللّه من معاركَ جانبية بفعلِ اليهود أحياناً ، وبفعل المشركين الوثنيين أحياناً ، فإن ذلك لم يحوِّلْ رسولَ اللّه عن هدفِهِ ، وجعل يُصَفّي اليهودَ جماعةً بعد جماعة ، في كل سنة يصفّي جماعةً ، فصَفّى في العام الثالث للهجرة بني قينقاع ، وفي العام الرابع بني النضير ، وفي العام الخامس بني قريظة ، وفي العام السادس بني المصطلق ، وفي العام السابع خيبر .

---

(١) الرسول القائد ص ١١١ والرسول العربي وفن الحرب ص ١٥١ .

ولما انتهى من تحقيقِ الهدفِ الأول التفت لتحقيق الهدف الثاني ، فصَفىٰ في العامِ الثامن من الهجرة الكيانَ السياسي والعسكري للمشركين بفتح مكة وما تبعها من غزوة حنين .

هـ ـ **حرمان العدو من موارده الاقتصادية** : الحربُ عصبُها المال ، فإذا حُرمت أمةٌ من مواردِها الاقتصادية ، وافتقرت ، استحال عليها أن تخوض حرباً مُجْدِية ، بخاصة في عصرنا الحاضر .

وقد أدرك الرسول القائد هذه الحقيقة ، ولذلك فإنه كان يُحاربُ أعداءَه بحربين : حربِ اقتصادية ، وحربٍ بالسلاح ، وهو لا يعدلُ عن الحربِ الاقتصادية إلاَّ إذا ضمن أن عدوه قد أصبح نعجة يقودها كيف يشاء .

كانت التجارةُ هي المورد الاقتصاديّ الوحيد لقريش ـ العدوّ التقليدي للدولة الإسلامية ـ وكانت لقريشٍ رحلتان رحلةٌ في الشتاء إلى اليمن تحمل إليها بَضائع الشام وحاصلاتها ، ورحلة في الصيف إلى الشام تحمل إليها حاصلات اليمن وبضائعها . وضرب أحد جناحي هاتين الرحلتين ضرب للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمةٌ على سلع اليمن ، وتجارتهم إلى اليمن قائمة على سلع الشام .

ولما كانت المدينةُ المنورةُ تقعُ على طريق قوافِلهم المنطلقة من مكة إلى الشام فقد قرر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقطع عليهم هذه الطريق ويفرض عليهم الحصارَ الاقتصادي .

ولما أرادت قريشٌ العدولَ عن هذه الطريق إلى الطريقِ الأخرى المارّة بنجد فالعراق فالشامَ ، أسرعَ رسولُ اللَّه يرسلُ السرايا إلى هذه الطريق ليقطعها عليهم كذلك ، وقد نجح عليه الصلاة والسلام في إحكام الحصارِ الاقتصادي عليهم أيما نجاح ، وبذلك حرمهم من أعظم مواردهم

الاقتصادية ، فأثَّر ذلك في إضعاف كيانهم العسكري ، حتى شعروا أنهم قد أُسْقِط بأيديهم .

و ـ **عدم تمرير أية حادثة اعتداء دون عقاب** : إن السكوتَ عن الاعتداء وتمريره دون انتقام دليل ضعف في الدولة واستكانة وذلّ ، ولذلك فإن رسولَ اللَّه لم يكن يترك أي اعتداء يمرُّ دون أن ينتقم له من المعتدي .

فقد قدم وفد من قبيلتي **عُضَل والقارة** على رسول اللَّه ، وأعلنوا إسلامهم ، وطلبوا من الرسول أن يرسلَ معهم معلِّمين ، فأرسل معهم جماعةً من أصحابه ، ولكنهم ما لبثوا أن غدروا بهم في الطريق وقتلوهم ، فأمهلهم رسول اللَّه ، ولما وجد القوة على غزوِهم غزاهم ـ وهي غزوة بني لَحيان ـ .

وقدم نفر من **قيس كبة من بَجيلة** على رسول اللَّه ، فاستَوْبَأُوا المدينة ومرضوا ، فأخرجهم رسولُ اللَّه إلى لقاحٍ للدولة الإسلامية ، وكان على هذه اللقاحُ مولى رسول اللَّه يَسار ، فلما صَحُّوا عَدَوا على يسار فذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه واستاقوا اللِّقاحَ ؛ فبعث الرسول في آثارهم كُرْزَ بن جابر ، فلحقهم ، وأتى بهم رسولَ اللَّه ، فقطع أيديَهم وأرجلَهم وسَمَل أعينهم .

وأغار **عُيينة بن حُصن الفزاري** على لقاح للدولة الإسلامية وفيها ابن أبي ذر الغفاري وزوجته، فقتلوا الرجُلَ واحتملوا امرأتَه ، فأرسل رسولُ اللَّه سَعْدَ بن زيد في جماعة وقال له : اخرج في طلب القوم حتى ألحقَ بك بالناس ـ وهي غزوة ذي قرد ـ .

وغدر **بنو قريظة** بالدولة الإسلامية ، وتحالفوا مع المشركين ، فسار إليهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ، وكان ما كان من أمرهم .

ز ـ **جمع المعلومات عن العدو** : إن جمع المعلومات عن العدو على غاية من

الأهمية ، لأن القائدَ يضعُ الخطةَ القتاليـة المناسبـةَ طبقاً للمعلومـات التي تتوفر لديه عن العدو ، وتكون هذه الخطة مُجدِية ـ إذا أُحكم وضعُها ـ بقدر ما تكون المعلومات المتوفرة لدى القائد دقيقة ، ومن تتبُّعِ حـوادثِ السيرةِ النبوية نجد أن الرسولَ عليه الصلاة والسلام كان يركز في جمـع المعلومات عن العدو على الأمور التالية :

١) **نوايا العـدو** : لأن معرفةَ نوايا العدو تتيحُ للقائد أن يتصـرف على هدىً وبصيرة، ففي غزوة أُحُد بعد أن انصرف المشركون عن ساحة المعركة وولّوها ظهـورهم راجعين ، أراد رسولُ اللّه أن يعـرفَ نوايـاهم ، فقال لعلي بن أبي طـالب : اخرُج في آثـارِ القوم فـانظر مـاذا يصنعون ومـا يريدون ؟ فإن كانوا قد جَنَّبوا الخيلَ وامتطوا الإبلَ فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبلَ فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادُوا المدينَة لأسيرن إليهم فيها ثم لأُنَـاجِزَنَّهم ، فخـرجَ عليٌّ في أَثَرِهم فوجدهم قَد جَنَّبوا الخيلَ وامتَطوا الإبلَ ووجَّهوا إلى مكة .

وفي صلح الحـديبية : لمـا وصل رسـولُ اللّه ذا الحليفة أرسـلَ رجلًا من خُزاعة يستطلع أمر قريش ويعرف نواياهم ، فعادَ الرجلُ وأخبره أنهم أجمعوا على صدِّه عن البيت .

٢) **عدَدُ قوّاته** : ففي بدرٍ كان رسولُ اللّه حـريصاً على معـرفةِ عـدد قوات العدو ، وقد سأل الأسيرين اللذين أسرهما الصحابةُ من غلمان قريش : كم القوم ؟ قالا : لا ندري ، قال : كم ينحرونَ كلَّ يومٍ ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول اللّه : القومُ بين التسعمائة والألف .

٣) **مـوضعـه** : ففي بـدرٍ خـرجَ رسـولُ اللّه ومعـه أبـو بكـر ليجمعـا بعضَ المعلومات عن مكان قريش فوقفا على شيخٍ من العـرب ، فسألاه عن قريش ؟ فقال : بلغني أنهم خـرجوا يـومَ كذا وكـذا ، فإن كـان الذي

أخبرني صادِقاً فهم اليومَ بمكانِ كذا ... ؛ ولما أتى الصحابةُ بالأسيرين سألَهما الرسولُ : أخبراني عن قريش ؟ قالا : هم وراءَ هذا الكثيب الذي ترى ، بالعُدْوَة القُصوى .

٤) **طرق تحركه** : كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم حريصاً على معرفة طُرُقِ تحرّكِ العدو ، ليهاجمه عليها إن أرادَ مُهاجمته ، وليتحاشى الصِّدام معه إن أرادَ تحاشيه ، وقد أرسل رسولُ اللَّه أولَ ما حلَّ المدينة المنورة كثيراً من السرايا لتحديد هذه الطرق ، ثم أخذ عليه الصلاة والسلام يُرسِلُ السرايا لتهاجم العدوَّ أثناءَ تحركه على هذه الطرق .

٥) **قواده** : لكل قائد أسلوبُه في القتال ، ومعرفة قيادَةِ العدوّ تعني معرفة أسلوبِ قتالِهِ ، ولذلك كان رسولُ اللَّه حريصاً على معرفة قادة العدو ، وقد سأل رسولُ اللَّه الأسيرين في أُحُد : مَنْ في جَيْشِ العدوِّ من أشرافِ قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزَمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ .

فعلم رسولُ اللَّه أن المعركة ستكونُ عَنِيفة ، وأن القوم مصمِّمون على النصر ، فالتفت إلى أصحابه وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أَفْلاَذَ أكبادِها» .

٦) **تسليحه** : وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً على معرفة تسليح العدو ، بمعرفة عدد الخيلِ التي معه ، وعدد الإبل ، وغير ذلك من صنوف الأسلحة وأدوات الحرب لأن هذا له دوره في المعركة .

ح ـ **الاقتصاد في المجهود** : لقد استطاعَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام أن

يجعلَ من كل مواطن جندياً ـ كما تقدم ـ وبذلك يكون قد حشَدَ للمعركة أكبرَ حشدٍ في التاريخ ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يزجُّ في المعركةِ من هذا العدد الكبيرِ والحشدِ الهائل من الجنودِ غير ما تحتاجه المعركةُ ويحقق له النصر ، ويُبقي بقيةَ القوة في حالة راحة أو حالة تأهُّبٍ لمعركة قادمة ، وهي في فترة الراحة هذه تزاول أعمالها اليومية من زراعةٍ وتجارةٍ وصناعة ، وتساهم في بناءِ الاقتصادِ الوطني للدولة الإسلامية .

ط ـ الأمن :

١) **أمن المعلومات :** كان رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يفرضُ احتياطات أمنية مشدَّدَة على المعلومات العسكرية ، حتى لا تتسربَ هذه المعلوماتُ إلى العدو فيستفيد منها ، ففي فتح مكة أمَرَ رسولُ اللَّه الناسَ بالتجهز للقتال ، وأخفى وجهة سيره حتى على أقربِ الناس إليه ـ وزيرِه الأول أبي بكر، وزوجاتِهِ ـ فقد دخل أبو بكر على ابنته عائشة ـ زوج رسول اللَّه ـ وهي تهيىء جهاز رسولِ اللَّه للقتال فقالَ لها أبو بكر: أي بُنيّة ، أأمَركم رسولُ اللَّه أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، قال أبو بكر : فأين ترينه يُريد ؟ قالت : واللَّه لا أدري . . . .

وأمَّرَ عبدَ اللَّه بن جَحْش على سرية ، وكتب له رسالةً مكتومة ، وأمره أن لا يفتحها حتى يصلَ إلى مكان كذا ، فإذا وصلَ المكانَ المذكورَ فَتَحَها ونفَّذَ ما فيها .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام باتخاذ هذه الاحتياطات فحسب ، بل كان يراقب الطرق التي يمكن أن تتسربَ منها المعلوماتُ إلى العدو ، حتى إذا ما تسرب من المعلومات شيء رغم الاحتياطات المتخذة عالجه رسول اللَّه بحكمة .

لقد كان لحاطب بن أبي بلْتَعَة أهلُ ومالٌ في مكة ، فأحب أن

يحتاط لهما ، فكتب كتاباً لقريش يخبرهم فيه بمسيرِ رسولِ اللّه لحربهم ، ودفع هذا الكتابَ إلى مولاةٍ لبعض بني عبد المطلب اسمها « سارة » كان مُغَنِّية ، وأمرها بإيصاله إلى قريش، وأعطاها على ذلك مالاً ، فأخذت « سارةُ » الكتابَ ووضعته بين طياتِ شعرها، وضفرت عليها قرونها ، وخرجت من المدينة المنورة ، وعلم رسولُ اللّه بما صنع حاطبُ ، فبعثَ رسولُ اللّه عليَّ بن أبي طالب والزبيرَ بن العوام في طلبها وأخذِ الكتاب منها ففعلا . . . . ولما دعا رسول اللّه حاطباً وقال له : ما حملك على هذا ؟ قال حاطب : أما واللّه إني لمؤمنٌ باللّه ورسوله ، ما غيَّرتُ ولا بدّلتُ ، ولكني كنتُ امرءاً ليس لي في القوم من أصلٍ ولا عشيرةٍ ، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلٌ ، فصانعتهم عليه ، فقال عمر بن الخطاب ـ وكان حاضِراً ـ دعني يا رسول اللّه فلأضرب عُنُقَه ، فإن الرجلَ نافق ، فقال رسول اللّه : وما يدريك يا عمر ، لعل اللّه قد اطلع إلى أصحاب بدر يومَ بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم .

ولولا يدٌ لحاطب في الإسلام نديةٌ يومَ بدر لكانت عقوبته القتل على محاولته تسريب المعلومات العسكرية للعدوّ .

٢) **أمن العمليات** : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم لا يخرجُ في غزوةٍ فينزل منزلاً إلاّ ويُقيم حرساً يحفظُ الجيشَ من المباغتَة ، فقد روى أبو هريرة أن رسول اللّه حين قفل من غزوةِ خيبر سار ليلةً ، حتى إذا أدركه الكرى عرَّس ـ أي نزل فبات ـ وقال لبلال : اكْلأْ لنا الليلَ ـ أي أحرسنا[1] ـ . . . إلى آخر الحديث .

(١) جامع الأصول برقم ٣٢٤٨ .

كما كان إذا سار بجيشه أرسلَ أمامَه دوْرِيّات استطلاع متقدمة تكشف له الطريقَ ، وتعرف له أخبارَ العدو .

وما أرادَ أن ينزِلَ في مكانٍ إلَّا استطلعه قبل أن ينزِلَ فيه جيشُه ، وقد رأيناه يومَ بدر يرسل بسبس بن عمرو ، وعديَّ بن أبي الزغباء يستطلعان له مكان نزول الجيش في بدر .

ي ـ **الاستشارة** : وكان عليه الصلاةُ والسلام لا يتأخرُ عن الاستشارة في حالين :

١) عندما يشعرُ أنه بحاجةٍ إلى هذه الاستشارة **للوصول إلى قرار صحيح** ، ففي بدرٍ قَبِلَ إشارة الحُباب بن المنذر ورحَّبَ بها ، عندما أشار عليه الحباب بالنزول على الماء ، ليمنع جيش المشركين من الماء ويحاربهم بالعطش . وفي غزوة الأحزاب قَبِلَ إشارةَ سلمان الفارسي بحفر الخندق ورحَّبَ بها . والغالب أن الاستشارة في مثل هذه الأمور لذَوي الرأي دون غيرهم .

٢) عندما يشعر أنه بحاجةٍ إلى **تأييدٍ شعبي** ، وفي مثل هذه الأحوال تكون استشارته عليه الصلاة والسلام لجماهير جنده . وقد استشار هذه الجماهير يوم أُحُد ، فأشار عليه جمهورُهم بالخروج إلى لقاءِ العدو ، وكان من رأيِهِ عليه الصلاة والسلام البقاء والتحصُّن بالمدينة ، ولكنه عملَ بما أشارَ به الجمهور .

واستشار الجماهيرَ يومَ بدرٍ أيضاً في أمر لقاءِ العدوّ ، فقام من المهاجرين أبو بكر الصدّيق فتكلم وأحسنَ الكلامَ ، ثم قام المقدادُ بن عمرو فقال : « يا رسول اللّه امضِ لما أراك اللّه ، فنحن معك ، واللّه لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتِلا إنا هَهُنَا قاعِدون ﴾ ولكن اذهب أنتَ وربُّك فقاتِلا إنا معكما مقاتلون ،

فوالذي بعثَكَ بالحقِّ لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغِماد ـ موضع باليمن ـ لجالَدْنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه . . . . ثم قال رسولُ اللّه : أشيروا عليَّ أيّها الناس ، فقال له سعد بن معاذ ـ زعيم الأنصار ـ : واللّه لكأنك تريدُنا يا رسولَ اللّه ؟ قال : أجَل ، قال : قد آمنا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السَّمْعِ والطاعة ، فامضِ يا رسول اللّه لما أردْتَ ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضته لخضناهُ معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقىٰ بنا عدوَّنا غداً ، إنا لصُبْرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل اللّه يريك منا ما تقرُّ به عينك ، فسِرْ بنا على بركَةِ اللّه »(١).

ك ـ **أمر القتال الواضح الصريح** : وكان رسولُ اللّه يحرص أن يكون أمرُ القتالِ الذي يعطيه جيشه محدداً وواضحاً وصريحاً لا يحتمل التأويل ، فقد جَهَّزَ سريةً لعبد اللّه بن جحش مؤلفة من ثمانيةِ أشخاصٍ من المهاجرين ، وأعطاهُ رسالةً مكتوبة مغلَقَةً ، وأمره أن لا يفتح الرسالةَ ولا ينظر فيها حتى يسير يومين ، فلما سارَ عبدُ اللّه يومين فتح الرسالة فإذا فيها : إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزلَ نخلة بين مكة والطائف ، فترصَّد بها قريشاً وتعلّم لنا من أخبارهم(٢) .

ولما أصدَرَ أمرَ القتالِ للرماةِ في غزوة أُحُد قال لهم : « لا تبرحوا ، فإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تَبْرَحوا ، وإن رأيتموهم ظَهَروا علينا فلا تُعينونا »(٣) .

وبسبب هذه الأوامر القتالية الواضحة لم يقع قوادُ رسول اللّه ولا

---

(١) قراءة جديدة للسيرة النبوية ص ١٧٤ وانظر البخاري في المغازي باب « إذ تستغيثون ربكم » .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٥٠ .

(٣) البخاري في المغازي باب غزوة أحد .

جنوده بأخطاء في التنفيذِ ناتجة عن عدم فهمِ أمرِ القتال الصادر من الرسول صلى اللّٰه عليه وسلّم .

ل ـ **وحـدة القيـادة** : وحدة القيادة أصـلٌ من الأصولِ الإِسـلامية في الصـلاة والخلافة وقيادة الجند ، ولذلك نرى أن رسولَ اللّٰه لم يَخُضْ معركةً بقيادةٍ مزدوجة ، ولم يؤمِّر أميرين على سرية قط ، نعم هو قد يؤمِّر أكثر من أمير على أن يستلمَ الثاني بعد الأول كما حدث في غزوة مؤتة ، ولكنه لم يؤمِّرْ أميرين يمارسـان السُّلطة معاً قط ، ولعـل هذا أحـد أسباب انتصـارِه عليه الصـلاة والسلام في بـدر ، فقـد كـان الجيش الإِسـلامي يتحـرك بقيـادةٍ واحدةٍ ، وكان جيشُ المشركين يتحركُ بأوامر قيادات شتى ، أو بمبادرات فردية .

ووحدة القيادة من أسبابِ إمكانِ إعـادَةِ لَمِّ الشمْلِ بعـد التفرق في أُحُدٍ وفي حنين ، ولو كانت هناك أكثر من قيادة لتضاربت الآراء واختلفت الأوامر وكانت الطامّة .

م ـ **تفريق قوة العدو ثم تصفيته على مراحل** : مبدأُ تجزيءِ الصعوباتِ للتغلّب عليها مبدأ حياتي نطبقُه في حياتنا اليومية ، فالمرء إن أراد أن ينقل كيساً من الأرز إلى مكان آخر فلم يستطع حمله ، نقله على مراحلَ ؛ وإذا أراد أن يحفظ قصيـدةً طويلةً فلم يستـطع حفظهـا دفعة واحـدة ، حفظهـا أبيـاتـاً متفرقة ، ثم ضم الأبيات إلى بعضها .

وقد استعمل رسولُ اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلّم هذا المبدأ كأسلوب عسكري ينتهجه ، فإذا كانت قـوةُ العدو ممـا يمكن للرسولِ أن يـواجههَا ويقضي عليها ، واجهها عليه الصلاة والسـلام ، أما إن كـانت قوةُ العـدوّ كبيرةً بحيث لا يستطيعُ مواجهتهـا والقضاءَ عليهـا ، فإنـه كان يعمـل على تجـزئتها ، ثم يعمـلُ على تصفيتها جـزءاً بعد جـزءٍ حتى يتم له القضـاء

عليها ، وهو ما يعرَفُ بمرحليَّة التنفيذ ، أو سياسة الخطوة خطوة .

فعندما حلَّ رسولُ اللَّه المدينَةَ المنورة لم يكن في مقدوره أن يواجه اليهود المقيمين فيها والمحيطين بها ، ولذلك أخذ يُصَفِّيهم على دفعاتٍ ، فجعل يصفّي في كل سنة جماعة منهم فصفّى في العام الثالث من الهجرة بني قينقاع ، وفي الرابع بني النضير ، وفي الخامس بني قريظة ، وفي السادس بني المصطلق ، وفي السابع خيبر .

ولما تحالفت عليه قريشٌ وغطفان وبنو قُرَيْظَة ، حاول أن يُجَزِّيءَ قوةَ العدو ، وكانت أولُ محاولة له لفصلِ غطفان عن المجموعة، وعودتها إلى ديارها ، وذلك عندما اتفق مع قائديها عُيَيْنَة بن حصن والحارث بن عوف المريّ على أن يعطيهم ثُلُثَ ثمار المدينة على أن ينفصلوا عن قريشٍ ويعودوا إلى بلادهم ، ولكن هذه المحاولة قد فشلت لأن سادة الأنصار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رأيا فيها ذلاً لهما ولقومهما ، فلم يوافقا عليها ، وقالا لرسولِ اللَّه آنذاك : يا رسولَ اللَّه أهُو أمرٌ تُحبُّه فنصنعه ، أم هو شيء أمركَ اللَّه به لا بد لنا من العمل به ، أم هو شيء تصنعُه لنا ؟ قال : بل هو شيءٌ أصنعُه لكم ، واللَّه ما أصنعِ ذلك إلَّا لأني رأيت العربَ قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ ، وكالَبُوكم من كلِّ جانب ، فأردت أن أكسِرَ عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول اللَّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللَّه وعبادةِ الأوثان ، لا نعبدُ اللَّهَ ولا نعرفُه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلَّا قِرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا اللَّه بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالَنا ، واللَّه ما لنا بهذا من حاجَة ، واللَّه لا نعطيهم إلَّا السيف ، حتى يحكُم اللَّهُ بيننا وبينهم ، فقال رسول اللَّه : فأنت وذاك .

ولما فشلت هذه المحاولة قام بمحاولة أخرى لعزل بني قُرِيْظة عن المجموعة ، وَأوكل الأمرَ إلى نُعَيم بن مسعود الأشجعي ، ونجح نُعَيْم في

مهمته واستلت الثقة من نفوس القوم بعضهم ببعض .

وما أن عادت قريشٌ وغَطَفَان إلى ديارها حتى هاجم رسولُ اللَّه بني قريظة ، وكان من أمرهم ما كان .

ولما تحالفت قريش مع خيبر للقضاء على الدولة الإسلامية ، عقد رسولُ اللَّه هدنة مع قريش ـ هي صلح الحديبية ـ ثم هاجم خيبر . . . ثم هاجم قريشاً وكان فتح مكة .

ن ـ **انتهاج أسلوب الهجوم** : إن المستقرىءَ للسيرة النبوية يجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحارب حرباً دفاعية إلاَّ في غزوة الأحزاب ، حتى في أُحد لم تكن حرباً دفاعية ، بل كانت حربَ لقاءٍ ، صحيح أن قريشاً هي التي خرجت لرسول اللَّه ، ولكن رسول اللَّه خرج إليها أيضاً ، وهو الذي اختار أرضَ المعركة ، فهي دفاعية في هدفها ، هجومية في أسلوبها .

ولا بد لنا من أن نتساءَلَ لِمَ اختارَ رسولُ اللَّه أسلوبَ الهجوم دون أسلوب الدفاع؟ ولا يطول بنا التفكير حتى ندرك وجه الحكمة في ذلك :

ففي الحرب الدفاعية يتحمّل المدافع جميع أضرار الحرب من تدمير وتخريب وتوقف للحركةِ الاقتصادية من تعطيل الزراعة والصناعة والتجارة .

ـ وفي الحرب الهجومية يصيبُ الخوفُ والذعرُ الأُسَرَ التي يقع الهجوم عليها . فتهبط المعنويات .

ـ وفي الحرب الهجومية يظهر المهاجِمُ بمظهرِ القوة ، فيُرهبُ جانبه ، ولا يطمع في الهجوم عليه طامع ، ولذلك قالوا : الهجوم يمنع الهجوم .

وقد كان لرسول اللَّه مدرسة خاصة في الهجوم ، يمكننا أن نوجز هذه المدرسة بما يلي :

١) **الهجوم المبكر** : ونعني بالهجوم المبكر : الهجومُ على العدُوِّ قبل استكمال تشكيلاته القتالية ، فما أن سمعَ عليه الصلاة والسلام بأن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان يستعدون في نجد لمهاجمة الدولة الإسلامية حتى سار رسول اللّه إليهم في غزوة ذات الرقاع .

وما أن سمع أن القبائلَ الضاربة عند دومَةَ الجَنْدل تعِدُّ العدة للهجوم على المدينة المنورة حتى سار إليهم رسول اللّه بألف من أصحابه ـ وهي غزوة دومَةَ الجَنْدل ـ .

وما أن سمع أن تجمعاً، يقام ضد الدولة الإسلامية في ذي القصة حتى جهز سرية لأبي عبيدة بن الجراح وأمره بالسير إليهم . . . وهكذا .

٢) **مباغتة العدُو** : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حريصاً على مباغتة العدو ، لأن المباغتَةَ قد تحسمُ الحربَ في ساعات ، ولولاها لامتدت الحرب أياماً .

والمباغتة قد تكون في المكان ، أو في الزمان ، أو في الأسلوب القتالي .

أما مباغتة العدو في المكان : فتبرز في نصب الكمائن على طرق تحرك القوافل التجارية لقريش .

وتبرز في هجوم رسولِ اللّه على خيبر ، حيث نزل رسول اللّه بالرجيع ليحول دون تعاون خيبر وغطفان في قتال الدولة الإسلامية ، وأوهم غطفان بأن الهجوم موجّهٌ إليها ، وأرسل مفرزةً إلى غطفان فعلاً مما اضطرها إلى التراجع إلى ديارها ، وتوجه هو عليه الصلاة والسلام بمن معه إلى خيبر .

وفي غزوة لبني لِحْيان، فقد تحرك عليه الصلاة والسلام بقواته شمالاً باتجاه الشام حتى لا تَعرف قريشٌ وبنو لحيان توجهَهُ إليهم ، ولما

انتشرت أخبارُ اتجاه رسول اللّه نحو الشام ، وطار الخبر في القبائل تحوَّلَ رسول اللّه بقواته نحو بني لحيان .

وأما مباغتة العدو في الزمان : فتبرز لنا في حرص رسول اللّه على السير بقواته ليلاً وإخفائها نهاراً ، كما فعل في غزوة دومة الجندل ، وغزوة تبوك ، وغزوة خيبر ، وبني قريظة وغيرها كثير ، واستغلال الليل في الاقتراب من العدو ثم الانقضاض عليه عند خيوط الفجر الأولى ، كما فعل عليه الصلاة والسلام في خيبر وغيرها : وقد كان رسول اللّه إذا غـزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يصبح(١) .

وأما مباغتة العدو بأسلوب القتال : فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يلتزم أسلوباً واحداً في القتال، بل كان يستعمل من الأساليب القتالية ما يتفق مع طبيعةِ الأرض وتشكيلات العدو ، وغير ذلك . وكان هذا التحولُ في الأسلوبِ القتالي يشكل مباغتةً للعدو تقلب موازينه ، وتوقع الاضطراب في صفوفه .

ففي بدر فاجأ الرسولُ المشركين بأسلوب جديد في القتال لم يألفوه ، وهو القتال على أسلوب الصفوف التي يصعُبُ اختراقها ، ويتحرك فيها الجيش قطعة واحدة .

ويوم الأحزاب فاجأهُم بأسلوبِ المَوَانِعِ ، حين حَفَرَ الخندَقَ الذي يحولُ دون وصولهم إليه ، وهو أسلوبٌ يتناسب جيداً مع تفوّق إحدى القوتين على القوة الأخرى تفوقاً ساحقاً .

وفي فتح مكة فاجأهم بالهجوم على مكة على عِدَّة مَحَاور ، مما

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٦١ ، وانظر صحيح مسلم في الصلاة باب الامساك عن الاغارة إذا سمع فيهم الأذان ، وسنن الترمذي في السير باب في وصيته بالقتال ، وسنن أبي داود في الجهاد باب دعاء المشركين .

أربك العدوَّ وأُسقِط بيده .

وفي حصاره للطائف فاجأهم بأسلحة جديدة لم تُستخدَمْ من قبلُ وهي المنجنيقات التي ترمي الحصونَ بحجارتها ، والدبابات التي تحمي المحاربين بأجسامها الضخمة .

٣) **تضليل العدو** : هذا التضليل الذي يُربكُ العدوَّ ولا يُمكِّنه من تقديرٍ صحيحٍ للموقف ومن ثَمَّ لا يمكِّنه من اتخاذِ قرارٍ صحيح .

وطرق التضليل كثيرةٌ لا تحصى ، وهي تنبع من عبقرية القائد ، وقد كان رسولُ اللَّه يجيدُ استعمالَها ويقول : « الحربُ خُدعة »[1] فكان رسول اللَّه إذا خرجَ إلى الغزوِ أظهر أنه يريدُ مكاناً فيتوجه إليه ، ثم يتحول إلى غيره ، كما فعل في غزوة بني لحيان ، وفي غزوة خيبر ؛ وإيهام العدو أن حليفَه قد غَدَرَ به وتخلى عنه ، مع أنه ليس كذلك ، كما فعل في غزوة الأحزاب ، وإيهامِ العدوِّ أن الرسول لم يقاتل في أُحُدٍ إلَّا بجزء من جيشه ، وأنه جمع الجيش اللَّجِبَ ليلحقَ بالعدو ، كما فعل في غزوة حمراء الأسد .

٤) **الهجومُ الصاعِقُ** : إن المتتبع لغزواتِ الرسولِ صلى اللَّه عليه وسلّم يَرى أن الرسول كان يعتمد على الهجومِ الصاعِقِ ، والحربِ الخاطِفَة ، وقوةِ وشدَّةِ الصدمَةِ الأولى ، فكان عليه الصلاة والسلام يعمد إلى القوةِ العسكرية المعادية حيث أصابها ، فيقضي على عزائمِ أعدائِه بالقضاء عليه بسرعةٍ خاطفَةٍ ، ولا يضيعُ الوقتَ في انتظار ما يختارُه أولئك الأعداء .

٥) **الهجوم غير المباشر** : ونعني بالهجوم غير المباشر: عدم الاقتراب من

---

(١) البخاري ومسلم في الجهاد باب الحرب خدعة .

القوة الرئيسية للعدو إلَّا بعد إخلال توازُنِه بمعارِكَ جانبيةٍ صغيرةً في اتجاهات متعددة .

يقول اللواء الركن مصطفى طلاس : ويقدم لنا فتحُ الرسول لمكة نموذجاً رائعاً لاستراتيجية الهجومِ غيرِ المباشر ، لأن الرسول لم يُهاجم مكةَ إلَّا بعد أن أوْقَعَ الرهْبَةَ والخوف في نفوس أعدائِه ، وكانت خطته العسكرية أن يَدخُلَ مكةَ بأربعةِ أرتالٍ تتلاقى في جَبَل هند ، وقد تم تنفيذ الخطة تنفيذاً دقيقاً ومحكماً .

فإذا علمنا أن استراتيجية الهجوم غير المباشر تتلخص بفرض إرادَتنا على الخَصْمِ مع تحمل أقل معدَّل ممكن من الخسائر أدركنا عبقريةَ الرسولِ العربي في هذا المجال ، لأن من يتتبع نتائجَ السرايا والمعاركِ والغزواتِ التي خاضَها أو وَجَّهها الرسولُ العربي في أيامه يجد أن عددَ الضحايا من الطرفين المتحاربين لا يتجاوز الأَلْف ، وهذا أكبر دليل على أن الرسول العربي كان يفرض إرادته على خصومِه بالمناورة لا بالقتال ، وهذا أفضل تطبيق لاستراتيجية الهجوم غير المباشر .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية : فإن الاستراتيجية غير المباشرة تعني أيضاً : اختيار الأهدافِ اختياراً دقيقاً ومتدرِّجاً وتنفيذَها على مراحل (مناورة الخرشوفة) ، وفي هذا المجال أيضاً كان الرسولُ يختارُ أهدافَه دائماً بكل دقَّةٍ ، وما أن يتحقق النجاح في الهدف المحدود حتى يتطلع لتحقيق هدفٍ جديد . . . وهكذا . . . إلى أن أتم توحيد الجزيرة العربية ونشرَ الإسلامَ في ربوعها ، وقضى على المجتَمعِ المتَخَلِّف ، وطهَّر الأرض العربية من رجس اليهود والروم[1] كل ذلك في أقل من ثلاث وعشرين سنة[2] .

---

(١) لعله يريد « الوثنية » .

(٢) الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٥٧ .

٦) **أما في قتال الحصون :** فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعتمد على مشاغَلَةِ الحصون بقواتٍ صغيرة ، ويركِّز هجومَهُ على حِصْنٍ واحدٍ ، فإذا ما سقط هذا الحصن انتقل إلى غيره . . . كما فعل عليه الصلاة والسلام يوم خيبر .

٧) **تفريق قوة العدو أثناء الهجوم :** وهذا ما فعله عليه الصلاة والسلام أثناء هجومِهِ على خيبر حيث نزل عليه الصلاة والسلام بجيشه بوادي الرجيع وأرسل مفرزَةً من جيشه لتشغل غطفان حليفة خيبر ، وهجم بقواته الرئيسية على خيبر .

وكما فعل في هجومه على مكة ، حيث هاجمها بأربعةِ فرقٍ ، من جهاتها الأربعة، مما اضطرَّ العُدوَّ إلى توزيعِ قواتِه ، ولكن هذه القوات لم تلبث أن استسْلَمَت ، لأنها لم تستطِع أن تنظِّم نفسها ، ولا أن تَنَسِّق بينها ، فسقطت جميعُها .

س ـ **توقع أسوأ الاحتمالات :** كان رسول اللّه في حروبه يفترضُ الذكاءَ في عدوّه ، فيحسب كلَّ الاحتمالات ، ويتوقع منه أسوَأها ، وكان يتخذُ تدبيره على هذا الأساس ففي أُحُد توقَّع الرسولُ أن يقومَ العدوّ بحركة التفاف بجزءٍ من جيشه ، غايتها وضع جيش الرسول بينِ فكي الكمّاشة ، فركز الرسول على جبل الرماة مفرزةً من جيشه ممن يجيدون الرماية لمنع هذا الالتفاف .

وفي غزوه لخيبر توقع الرسولُ أن يقوم تعاوُنٌ بين خيبر وغَطَفان ، فنزل عليه الصلاة والسلام بجيشه بالرجيع لمنع هذا التعاون .

ع ـ **كلمة التعارف :** نظراً لطبيعة القتالِ في عصرِ رسول اللّه وما يحدث فيه من اختلاط القواتِ الصديقة بالقوات المعادية ، فقد كانَ لا بد من تمييز العدوّ من الصديق ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يجعل في كثير

من غزواته كلمة تعارف ، يتم التعرف بها على الجندي الصديق ، وكانت كلمة التعارف يوم أحد (أمِتْ) ، ويوم بدر (أحَدَ . . . أحَد) وفي غزوة أخرى كانت كلمة التعارُفِ للمهاجرين (عبد اللّه) وللأنصار (عبد الرحمن)[١] .

ف ـ **استثمار الفوز** : لقد كان للانتصار الذي أحرزه الرسولُ في مكة حين فتحها اللّه عليه أثرٌ كبيرٌ في نفوس المؤمنين وفي نفوس الكافرين ، فما أن سمعت هوازنُ وثقيفٌ بسقوط مكة بيد رسولِ اللّه حتى أخذت تُعِدُّ العدةَ لحرب رسول اللّه ، فهاجم رسولُ اللّه تجمُّعَهم وكان ما كان في حنين من نصب الكمائن في قمم الجبال ورمي جيشِ رسول اللّه بالنبال ، ولكن الرسول استطاع أن يجمَعَ الناسَ في حنين بعد تفرُّقهم ، ويهزمَ العدو ، ثم يتابع إلى أوطاس ، حيث أوقع به خسائر جسيمةً ثم تابع فلولَه المنهزمَة إلى الطائف .

ص ـ **عدم الاندفاع أكثر من الهدف المحدد** : إن ما يُسمى استثماراً للفوزِ قد ينقلب إلى استجرارٍ من العدو ، أو تورُّطٍ من الصديقِ ، ولذلك كان لا بد لكل عملية عسكريةٍ من هدف ، فإذا ما تحقَّقَ هذا الهدفُ فلا يجوزُ تجاوزه إلَّا إلى هدفٍ آخر يتم تحديده بعد دراسة دقيقةٍ ومستفيضة .

لقد كان الهدف من غزوة حَمْراء الأسد اقناعُ قريشٍ بأن خسارة المسلمين في أُحُد لم تؤثر في المسلمين ، وانه ما زال عند الدولة الإسلامية من القوةِ ما تستطيعُ بها مواجهةَ قريشٍ والتغلبَ عليها ، ولم يكن هدفُها قتال قريش . ولذلك رأينا رسولَ اللّه ما أن رأى قريشاً فَرَّتْ من وجهه لَمّا بلغها أن رسولَ اللّه قد جمع لها ، حتى عسكر عليه الصلاة والسلام في حمراء الأسد ولم يتابعها ، لأنه قد حَقَّق بذلك هَدَفه ، وربما

---

(١) أبو داود في الجهاد باب الرجل ينادي بالشعار .

لو تابعها وتورّط معها في قتال لم يكن ما يُسرّ .

وفي غزوة ذي قَرَد : أغارَ عُيَيْنَةُ بنُ حُصْن في خيلٍ من غطفان على لقاحٍ لرسول اللّه فيها ابن أبي ذرٍّ وزوجته ، فقتلوا الرجلَ وأخذوا زوجتَه ، فلحق بهم رسول اللّه واستخلص بعضَ اللقاح منهم ثم نزل عليه الصلاة والسلام بذي قَرَد ، فقال سلمة بن الأكوع : يا رسول اللّه لو سرَّحتني في مائةِ رجل لاستنقَذْتُ بقيةَ اللقاح ، وأخذتُ بأعناق القوم ، فقال له رسول اللّه : إنهم الآن ليغبقون ـ أي يشربون اللبن ـ في غطفان[1] .

وإنما لم يتعقبْهم الرسولُ صلى اللّه عليه وسلّم لأن هذه الغزوة حققت هدفها وهو إشعار العدو بقوة الدولة الإسلامية ، وأنها لا تُوطَأ أطرافُها .

ولأنه شعر عليه الصلاة والسلام أن العدوَّ يريد أن يستجرَّه إلى مكمن قوتِه في غطفان ، وما كان رسولُ اللّه يريد أن يتورَّط في هذه الآونة بقتالٍ مع غطفان .

ق ـ **إن الحرب في نظر رسول اللّه وسيلة وليست غاية** ، فالحربُ عنده لضمان مسيرة الدعوةِ إلى اللّه ، ونشرِ العدل ، ولذلك اتصفت الحربُ بأنها حربٌ إنسانية لا تستهدف إراقَةَ الدماءِ ، ولا إذلالَ الرِّقاب ، ونقرأ هذا في وصيته عليه الصلاة والسلام لأمرائه ، فعن بُرَيْدَةَ قال : كان رسولُ اللّه إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللّه ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال: «اغزوا باسم اللّه في سبيل اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، ولا تغلُّوا ، ولا تغْدِرُوا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيتَ عدوَّكَ من المشركين فادعُهم إلى ثلاثِ خصالٍ ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ

(١) انظر قراءة جديدة للسيرة ص ٢٧٣ .

عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ، ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دارِ المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرينَ وَعَليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحوَّلُوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكْمُ اللَّهِ الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيءِ شيءٌ إلَّا أن يُجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فَسَلْهم الجزيَةَ ، فإن أجابوكَ فاقبَلْ منهم وكفَّ عنهم ، وإن هم أبَوا فاستَعِنْ باللَّه عليهم ، وقاتلهم »[١] .

وعن أنس بن مالك قال: إن رسولَ اللَّه كان إذا بَعَثَ جيشاً قال: انطلقوا باسم اللَّه ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طِفْلاً صغيراً ، ولا امرأةً ، ولا تغلّوا ، وضموا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا إن اللَّه يحب المحسنين[٢] .

* * *

وأحب أن أنهي كلمتي عن شخصية الرسول العسكرية بما قاله اللواء الركن مصطفى طلاس في كتابه الرسول العربي وفن الحرب . قال :

« **وإنني أقول بكل ثقةٍ ويقين إن المبادىءَ العسكريَّة التي طبَّقَها الرسولُ في معاركه وغزواتِهِ وسراياه وحملاتِهِ ما تزالُ صالحةً إلى يومِنا هذا ، كما أن الآفاق الاستراتيجية العليا التي مارَسَها الرسولُ العربي على صعيدِ الحرب والسِّلم ما تزال منارةً تُشِعُّ لتهدي إلى سواء السبيل** »[٣] .

(١) مسلم في الجهاد باب تأمير الإمام الأمراء .
(٢) أبو داود في الجهاد باب دعاء المشركين .
(٣) الرسول العربي وفن الحرب ص ٢٨٢ .

شَخصيّة الرّسول التربويّة

إن نصيب أيِّ منهجٍ من الصحة يقاسُ ـ إذا توفرت الظروف المناسبة ـ بمقدار نجاحِه ، وبالنتائج التي حققها ذلك ، ونحن إذا طَبَّقنا هذه القاعدة على منهج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في التربية لوجدنا أن الآثارَ التي حققها هذا المنهج ، والنجاحَ الباهرَ الذي وصل إليه ، لم يصلْ إليه أيُّ منهج تربوي في التاريخ .

فمحمد عليه الصلاة والسلام استطاعَ بمنهجه التربوي الفائقِ الإحكام أن يحوِّل جُفَاةَ العرب إلى رهبانٍ في الليل فرسانٍ في النهار ، يحبُّ أحدُهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصَة ، حتى شهد لهم القاصي والداني ، وشهدَ لهم الربُّ خالقُهم بأنهم خيرُ أمةٍ أُخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ويؤمنون باللَّه .

وللكشف عن شخصية الرسولِ التربوية لا بدَّ لنا من أن نستعرِضَ الصفات التي اتصف بها رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ، والتي جعلت منه مربياً من الطرازِ الأوَّل ، ثم نستعرض المنهج التربوي الذي تبناه عليه الصلاة والسلام ، والذي استطاع به أن يحقِّق ذلك التحويل التربوي الفذّ .

١ ـ تعريف التربية :

لن نستعرض في هذه العجالة التعريفات التي وضعَها العلماءُ للتربية ،

لأن استعراضها مع كثرتها يخرجُنا عن مقصدِنا ، فمقصدُنا هو الكشفُ عن شخصية الرسول التربوية ، ولكن حسبنا أن نسوق إليك ما ارتضيناه تعريفاً للتربية . وهو :

« التربية هي السيرُ بالإنسان نحو الكمال الذي أحبَّهُ اللَّه تعالى له » إننا بهذا التعريف للتربية نجعل محلَّ التربية « الإنسان » دون غيره من المخلوقات كالحيوان وغيره .

ونجعلُ هدفَ التربية السير نحو الكمال ، وليس بلوغ الكمال ، لأن الكمالَ للَّه تعالى والعصمة لرسل اللَّه ، ويقاسُ نجاحُ التربية بمقدار اقتراب الإنسان من الكمال .

وهذا الكمالُ هو الكمال الذي أحبَّه اللَّه تعالى لعباده ، والذي حدده بشرعه لا الكمال الذي رسمه الفلاسفة ، وهذا ما حرصنا على إبرازه في التعريف .

وقلنا في التعريف : الكمال الذي أحبَّه اللَّه تعالى لعباده ، ولم نقل « أراده » اللَّه لعباده ، لأنه لو أراده اللَّه تعالى لعباده لكان حاصلاً لا مَحالة ، لأن إرادةَ اللَّه ما تعلقت بشيء إلَّا كان ، وليس كذلك ما أحبه اللَّه تعالى ، فهو سبحانه يحب لعبادِهِ الصَّلاحَ ، ولكن ليس كلُّ عباده صالحاً .

٢ ـ صفات المربي عليه الصلاة والسلام :

لا بد لمن يباشرُ عمليةَ التربية أن يتصف بمجموعةٍ من الصفات ، وهو من خلال هذه الصفات ينفذُ إلى المربّىٰ ، حتى إذا ما تخلفت هذه الصفاتُ عنه فشلت عملية التربية فشلاً ذريعاً ، ومن أهم هذه الصفات :

١) الرحمة : هذه الصفة يجبُ توفرها في كل مُرَبٍّ . فإنَّ القاسيَ القلب لا

يصلح لأن يكون مربِّياً ، لأن هذه الرحمة ـ التي هي حركة قلبية ، وتألم نفسي ـ هي العصبُ الحسّاس الذي يدفعُ المربيَ ذاتياً وعن رغبة للتخفيف عن الشخص الذي يربّيه .

وقد تحدثنا فيما تقدمَ من حديثنا عن صفات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، عن رحمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، ورأينا كيف أنه عليه الصلاة والسلام كان يتجوَّزُ في صلاته ـ يقصّر صلاته ـ عندما يسمع بكاء صبيٍ في مؤخرة الصفوف رحمة بأمه التي تتألم لبكائه[1] ، ورأينا أنه عليه الصلاة والسلام قد ناله من أذى المشركين في مكة وفي الطائف ما ناله ، ولما حضره ملكُ الجبال ليأمرَه رسولُ اللّه بأمره من إهلاك ثقيف الذين استخفّوا به وآذوه تحركت الرحمةُ التي ملأت نفسَ الرسول المربي ، واستبدل العقوبة بالدعاء لهم : لعلَّ اللّهَ يُخرج من أصلابهم من يعبد اللّه تعالى . وقال أنس بن مالك : « ما رأيت أحداً كان أرحمَ بالعيال من رسول اللّه »[2] .

٢) **الصبر** : الصبر زادُ كلِّ مربٍّ ، والمربي الذي لا يتمتع بالصَّبر كالمسافر الذي يسافر بغير زاد ، فإما أن يهلك وإما أن يرجع .

فقد يُساء فهمُ أو تفسيرُ مقصِد المربي ، فعليه أن يصبر حتى تتضح الأمور . وقد يَبذل المربي جهداً كبيراً ثم لا يرى نتائجَ مرضيّة ، فعليه أن يصبرَ لأن طبيعةَ التربية انها لا تؤتي ثِمارَها عاجِلَةً . وقد يُحارَبُ المربي ويؤذىٰ ، فعليه أن يصبر ، لأن هذا الصبر هو عدة التغيير الذي يبتغيه .

ونحن إذا رجعنا إلى سيرة المربّي الأعظم عليه الصلاة والسلام نرى

---

(١) انظر الحديث في البخاري في صلاة الجماعة ، وفي مسلم باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة .

(٢) مسلم في الفضائل باب رحمته بالصبيان .

أنه عليه الصلاة والسلام كان العَلَمَ المرفوعَ في الصبر ، صبرَ على أذى قومه له في بدنه ، وعلى أذاهم له في نفْسِه ، حتى اتضحتْ لهم الأمورُ ، وتبين لهم نبلَ مقصِده ، فانقلب بُغضُهم له إلى حبٍّ ، وأذاهُم إلى إيثار .

٣) **الفطانـة** : لا بد للمرَبّي من أن يكون ذكيـاً فَطِناً ، يلاحظ أدقَّ الأمـورِ في المربَّىٰ ، فإن كانت خيِّرة انتقى أفضلَ الطرق بالنسبة للمربَّىٰ لتنميتها ، وإن كانت شرّيرة اختارَ أفضل الطُرُقِ لمعالَجَتِها ، ويلاحِظُ ما يناسب المربَّى وما لا يُناسبه ، ويعرف خلجاتِ نفسه من قسماتِ وجهه ، ويدركُ الفروقَ الفرديّة الدقيقة بين الناس ، لأن مهمته أن يتسلَّل إلى داخل النفس من خلال هـذه الفروق ، أو يستغلَّها لتوجيه كل فردٍ إلى ما يُفْلح فيه .

ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم كرسول من عند اللَّه ، قد غـرس اللَّهُ تعالى صفةَ الفطانة في أصلِ فطرته ، واتفق جميع المحلّلين لشخصية الرسول صلى اللَّه عليه وسلّم وجميع علماء العقيدة على أن الرسولَ بخاصة وجميع الرسل بعامة متصفون بالفطانة ، وسوف نرى مظاهر هذه الفطانة في التربية أثناء كلامنا على منهج رسول اللَّه في التربية .

٤) **التّواضُـع** : ولا بدَّ للمربي أن يكون متواضِعاً لمن يُرَبّيه ، لأن تعـاليه عليـه يُزيدُ في الهوَّة بينه وبينَه ، وإذا زادت الهوَّةُ انعدم التأثير .

ورسولُ اللَّه ـ سيّد المربين ـ كان أكثرَ الناس تواضعاً ، حتى أدى بـه تواضعُه إلى أنه مرّ بصبيان فسلَّم عليهم[١] ، وإلى أن كانت الأمَـةُ من إماء المدينة لتأخذ بيـد رسول اللَّه فتنـطلق به حيث شـاءت[٢] وإلى أن كان إذا استقبله الرجلُ فصافحه لا ينزعُ يده من يده ، حتى يكون الرجل ينزعُ يده ،

(١) البخـاري في الاستئـذان بـاب التسليم عـلى الصبيـان ، ومسلم في السلام بـاب استحبـاب السلام على الصبيان .

(٢) البخاري في الأدب باب الكبر .

ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجلُ هو يصرفُه[(١)] .

٥) **الحِلْـم** : ولا بد للمربي أن يكون واسعَ الصدر حَليماً ، لا يثيرُه الخطأ : بل ولا الإساءةُ إليه ، بل يمتصُّها ثم يلفظُها مستهينـاً بها ، ثم يـوجه همـه إلى معالجة أسباب هذا الخطأ ، أو أسباب تلك الإساءة ، ورسولُ الله قد بلغ به الحلم مبلغاً لا يُدانيه فيه أحد ، وإنَّ استقراءَ ذلـك في سيرتـه الشريفـة أمرٌ يطول، فنكتفي بذكر مثالٍ واحدٍ؛ فقد روى أنس بن مالك رضي اللَّه عنـه قال : كنت أمشي مع رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم وعليه بردٌ نَجْـرانيّ غليظُ الحاشية ، فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جبذَةً شديـدة حتى نظرتُ إلى صفحةِ عنق رسولِ اللَّه قد أثرت بها حاشية البُرْد من شدة جبذَتِهِ ، ثم قال : يا محمد ، مُرْ لي من مالِ اللَّه عندك ـ وفي رواية : فإنك لا تحملُ لي من مالِكِ ولا من مالِ أبيك ـ فـالتفت إليه رسـولُ اللَّه ثم ضحك ، ثم أمَـرَ له بعطاء[(٢)] .

٦) **العفوُ والصَّفْح** : لقد كان هذا الحلمُ من رسول اللَّه صلى اللَّه عليـه وسلّم عنـد الإسَاءة إلى شخصِـهِ عليه الصـلاة والسلام يـلازمُه عفـوٌ وصفـحٌ عن المسيءِ ليَبْدَأ معه سيرة جديدة ، ونحن إن استقرأنا حوادث العفو في سيرة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم لوجدناها أكثـر من أن تحصى ، فقد عفـا رسول اللَّه عن الرجل اليهودي الذي سحرهُ ، وعفا عن المرأة التي دسَّتْ له السُّمّ في ذراع الشـاة ، وعفـا عن غَــوْرَث الـذي أراد قتله عليــه الصـلاة والسلام ، وعفا عمن أساءَ إليه كذلك الأعرابيِّ الذي جبذَهَ بردائه حتى أثَّرتْ حاشيةُ الرداء في عُنقِه عليه الصلاة والسلام ، وعفا عن الأعرابي الذي أعطاه الـرسول شيئـاً ، ثم سألـه عليه الصـلاة والسـلام : أحسنتُ إليـك ؟ قـال

---

(١) أبو داود في الأدب باب حسن العشرة .

(٢) البخاري في الأدب باب التبسم ، ومسلم في الزكاة باب إعطاء المؤلفة قلوبهم .

الأعرابي : لا ، ولا أجْمَلْت ، وعفا عن أهلِ مكة بعد ما آذَوْه وأخرجوه من بلده وحاربوه في كل مكان وقال لهم : لا تثريبَ عليكم اليومَ اذهَبُوا فأنتم الطُّلَقاء .

٧) **قوة الشخصية** : ويشترط في المُرَبّي أن يكون قويَّ الشخصيَّةِ ، غير متهافِتٍ ولا متردد ، ليستطيع التأثير في المُرَبّىٰ ، وقُوة الشخصية تغني عن كثيرٍ من العقوبات ، وتردعُ عن كثير من المخالفات ، وتزرع القناعة في النفس ، وقد كان لرسول اللَّه من قوة الشخصية ما استطاعَ به أن يغرس القناعَةَ في كثيرٍ من قلوب أعدائِهِ في أولِ لقاءٍ له معهم ، وقد ورد في وصفه عليه الصلاة والسلام : أن من رآه هابَه .

٨) **الاقتناع بالعمل التربَوي** : اختلفت تعبيرات الباحثين عن هذه الصفة ، فبعضهم يعبر عنها بالإيمان ، وبعضهم يعبر عنها بحب العمل ، وبعضهم يعبر عنها بالاقتناع بالعمل .

وهي صفةٌ يجبُ توفرُها في المربي ، لأن التربية عطاء نفسي وروحي ، وإذا كان المربي غيرَ مُقتنع بالعمل التربوي فإنه لا يستطيع أن يقدم هذا العطاء .

وغنيٌّ عن البيان أن محمداً صلى اللَّه عليه وسلّم كان مقتنعاً بل مؤمناً كل الإيمان بالعمل التربوي ، لأن اللَّه تعالى قد طبعه على ذلك ، ولأنه أعدَّه لمهمة الرسالة ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام لا يقدِّمُ على بناءِ النفوس أيَّ عملٍ آخر .

٣ـ بعض القواعد التربوية التي كان رسول اللَّه يعتمدها :

ليس من مهمتنا في هذا الفصل المتواضع أن نكشف عن جميع القواعِدِ التربوية التي كانَ رسولُ اللَّه يعتمدها في تربية أصحابَه ، لأن ذلك يتطلبُ منا

مسحاً شاملاً لدقائق تصرفاتِ الرسولِ صلى اللَّه عليه وسلم، وهو ما لا يتيسر لنا الآن أولاً ، ولا تتسع له هذه الدراسة التحليلية ثانياً ، ونرجو أن تكون لنا عودة لهذا الموضوع في القريب إن شاء اللَّه ، ونكتفي الآن بذكر بعض القواعد التربوية التي كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يستخدمها في تربية أصحابه .

١) **بناء النَّفْس أَوَّلا** : كان رسول اللَّه يرىٰ أن التربية يجب أن تبدأ من داخلِ النفس ، وإذا لم تبدأ التربية من داخِل النفس ، فكلُّ مظهرٍ تربويّ هو ضرب من الخداع ، وقد أقام رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم بناء النفس على ثلاثة أسس :

الأساس الأول : تخليصُها من أمراضِها ، وهذه الأمراض قد تكون فكرية : كالكفر ، وكالإيمان بالخرافات ونحو ذلك ، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « من أتىٰ عَرَّافاً فسألَه عن شيءٍ فصدَّقَه لم تُقْبلْ له صلاةٌ أربعين يوماً »[١] ؛ وقد تكون **نفسيَّة** : كالحقد ، والحسد ، وسوء الظن ، والكِبْر ، والتشاؤم ، ونحو ذلك ، وفي ذلك يقول صلى اللَّه عليه وسلّم : « إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تنافَسوا ، ولا تحاسَدوا ، ولا تباغَضوا ، ولا تدابَروا ، وكونوا عباد اللَّه إخواناً كما أمركم »[٢] وقال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنَه في سورة لُقمان/ ١٨ : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناسِ ولا تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحاً إنَّ اللَّه لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخُورٍ﴾ .

الأساس الثاني : غرسُ القناعَةِ والإيمان بالمبادىءِ المُهَذِّبَةِ للنفسِ والمؤديةِ إلى استقامةِ السلوك : كغرسِ الإيمان بكراهةِ الاعتداء على أعراض الغير ، فقد روى أبو أمامة قال : إن فتى شاباً أتى النبي صلى اللَّه

(١) مسلم في السلام باب تحريم الكهانة . (٢) مسلم ، انظر مختصر صحيح مسلم برقم ١٨٠٣ .

عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه ائذن لي بالزنا ، فأقبل القومُ عليه فزجروه وقالوا . . . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « ادنه ، فدنا منه قريباً ، فقال : أتحبه لأمك ؟ قال : لا واللّه جعلني اللّه فداك ، قال : ولا الناس يحبون لأمهاتهم ، قال : أتحبه لابنتك ؟ قال : لا واللّه يا رسول اللّه ، جعلني اللّه فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال : أتحبه لأختك ؟ قال : لا واللّه جعلني اللّه فداك ، قال : ولا الناسُ يحبونه لأخواتهم ، قال أتحبه لعمتك ؟ قال : لا واللّه ، جعلني اللّه فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال : أفتحبه لخالتك ؟ قال : لا واللّه جعلني اللّه فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم ، قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهِّر قلبه ، وحصّن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[١] .

وغرس القناعة والإيمان بضرر الربا وبشاعته ﴿ الذينَ يأكلونَ الرِّبا لا يقومُونَ إلَّا كما يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُه الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ ﴾ ـ البقرة/ ٢٧٥ ـ ، وغرس القناعة والإيمان بضرر الغيبة وبَشاعَتِها ﴿ ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكم أنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أخيه مَيْتاً فَكَرِهْتُموه ﴾ ولذلك لا نجد غرابةً في أمرِ الآباءِ بتوجيه أولادِهِم إلى الصلاةِ وهم أبناءُ سَبْع ، والاستمرار في هذا التوجه وغرس القناعة في أعماق نفس الطفل بضرورة الصلاة وفرضيتها ثلاثَ سنوات كاملة ، حتى إذا ما تركها بعد ذلك استحق على تركها التأديب ، قال صلى اللّه عليه وسلّم: « مُرُوا أولادَكُم بالصلاةِ وهم أبْناءُ سبعٍ ، واضرِبوهُم عليها وهم أبناءُ عَشْر »[٢] .

وما الأذان الذي شرعه رسول اللّه في أذُن الوليد ساعة ولادته إلَّا غرس لبذور العزة والإباء في لاشعور هذا الوليد ، وكتابة لأول كلمات مضيئة في

---

(١) الإمام أحمد في المسند ٥/٢٥٦ .

(٢) أبو داود في الصلاة باب متى يؤمر الغلام بالصلاة .

صفحة نفسه البيضاء ، وذلك في قولَه : « اللّه أكبر » التي تكون أول سطر يُخط في عقله الباطن .

الأساسُ الثالث : الثقةُ بالمربّي وحُبُّه : لأن الثقة بالمُرَبّي ، بعلمه وفكره وإخلاصه وحكمته يسهِّل عمليةَ الاقتناع والإيمان بصحة ما يُوجّه إليه ، ولذلك جُعِل الإيمانُ باللّه تعالى ـ وهو ربُّ السماوات والأرض وما فيهما ـ وبمحمدٍ رسولِ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم ، الأساس الأول في إيمان المؤمن، وجُعِلَ حبُّ المربي ـ اللّه ورسوله ـ عصب الإيمان . لا حياة للإيمان بغيره ، قال صلى اللّه عليه وسلّم : « لا يؤمنُ أحَدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والِدِه وَوَلَدِه والناسِ أجمعين »[١] .

٢) **التطبيقُ العملي** : إن اللّه تعالى لم يفرض الإيمان إلّا للعمل ، ولذلك كان الإيمان القلبي والتطبيق العَمَلي صنوين لا يفترقان، لا يغني أحدُهما عن الآخر ، من أَجْلِ ذلك قَرَنَ اللّهُ تعالى الإيمان بالعملِ الصّالح في أكثر من خمسةٍ وخمسين موضِعاً ، منها قوله تعالى في سورة الرعد/ ٢٩ : ﴿ الذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصالحات طُوبىٰ لهم وَحُسْنُ مَآب ﴾ .

ولذلك كان نهج رسولِ اللّه في التربيةِ تدعيمَ المعرفة النظرية بالتطبيق العملي ، لأن المنافعَ الحقيقية تتولّد من التطبيق العملي للمعرفة النظرية ، وقد استعاذَ عليه الصلاة والسلام من المعرفة النظرية التي لا تقود إلى تطبيق عملي ينتفع به الإنسان أو ينفع به غيره ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : « اللّهم إني أعوذُ بكَ من الأربع : **من عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ** ، ومن قلبٍ لا يخشعُ ، ومن نفْسٍ لا تَشبَعُ ، ومن دعاءٍ لا يُسمَع »[٢] .

ولما كان من الحَرَج الشديدِ إعطاءُ حُكْم جازمٍ ملزمٍ ـ كالفَرْض ـ

---

(١) البخاري في الإيمان باب حب رسول اللّه ، ومسلم في الإيمان باب وجوب محبة رسول اللّه .

(٢) أبو داود في الصلاة باب الاستعاذة .

لكل تطبيق عملي لمعرفة نظرية، وكان من التسيُّب إعطاءُ حكمٍ غير ملزم- كالنَّدْب - لكل تطبيق عملي لمعرفة نـظرية ، فـإن الرسـول صلى اللَّه عليه وسلّم أعطى حكمَ الفرضِ للتطبيق العملي للمعرفـة النظريـة إذا كان هـذا التطبيق العملي تُمليه الضرورة[١] كالصلاةِ التي تهذِّبُ النفـس وتنهـى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة التي فيها كفاية الفقراء ، والنفقات الواجبـة التي فيها الإبقاء على النفوس ، واجتناب الكذب الذي هو مفتاح كل حق وخير ، واجتناب قولِ الزور وشهادة الزور الذي يقـام به العَـدل وتخبو نـار الظلم، واجتناب الخروج على الحـاكم المسلم ، لأن به استتبـاب الأمن واجتماع كلمة المسلمين وغير ذلك .

واعـطى عليه الصـلاة والسلام حكمَ النـدبِ لما هـو دون ذلـك من التطبيقات العملية ، فجعل تبسمَ المرءِ في وجه أخيه صدقة ، وإماطةَ الأذى عن الـطريق صدقـة ، والسلامَ على من مـررتَ به أو دخلت عليـه ، وغير ذلك .

٣) **التكليف بقدر الطاقة** : ومن القواعد التربوية التي انتهجَها رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم قاعدة « التكليف بقدرِ الطاقة » لأن الإرهاق بالتكاليف يورثُ النفورَ من المربِّي ومن التكاليف ، وهذا لا يجوز أن يصل إليه المربّي ، فقد وصفت السيدة عائشة رضي اللَّه عنها رسولَ اللَّه فقالت : (كان إذا أمَرَهُم ، أَمَرَهُم من العمل بما يُطيقون)[٢] ، ومرّت الحَوْلاء بنت تُوَيْت - وكانت من العابدات - أمامَ رسول اللَّه ومعه عائشة ، فقالت عائشة : هذه الحَوْلاءُ بنت تُوَيْتٍ، وزعموا أنها لا تنام الليـل - تريـد: تقوم الليـلَ كلَّه بالعبـادة - فقال رسول اللَّه : « لا تنامُ الليلَ ؟!! خذوا من العمل ما تطيقون ، فواللَّه لا يَسْأَمُ

---

(١) الضـرورة : هي الضرر الشـديـد النـازل بـأحـد الضـــروريـات الخمس وهي « النفس والـــدين والعقل ، والعرض ، والمال » .

(٢) جامع الأصول برقم ٨٦ .

اللَّهُ حتى تسأمُوا »[١] .

وكان شعارُ رسول اللَّه في التربية قولـه صلوات اللَّه وسلامـه عليه : « إذا أمَرْتَكُمْ بشيءٍ فأتوا منه ما اسْتَطَعْتُم »[٢] .

٤) **الخطابُ على قَدْرِ الفهم** : إن تحديث المربِّي المربّىٰ بحديث لا يدرِكُ معناه يمكن أن يفهَمَه على غير وجهه ، ويتبع ذلك إفشاؤه بين النـاس أو تطبيقـه على ذلك الوجه الخطأ ، وعندئذ تنقلب الآية ، ويتحقق عكس المقصِد ، ولذلك فإن المربي يجب أن يراعي المستوى العقلي للمربّى ، فلا يحدِّثُه ولا يأمره إلَّا بما يعقله ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما أنت بمحدّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولُهم إلَّا كان لبعضهم فتنة »[٣] وقال : « حدّثوا الناس بما يعرِفون ، أتحبونَ أن يُكذَّبَ اللَّهُ ورسولُه ؟ »[٤] .

فإن حدثهم بحديث يعلو على أفهامهم فعليه أن يوضحَه لهم ويقرِّبَـه إلى أفهامهم بالتمثيل أو بغيره . كما وضَّح رسول اللَّه رؤية أهْلِ الجنة اللَّهَ تعالى يوم القيامة من غير تزاحم على ما هم عليه من الكثرة ، فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه : « إنكم سَتَرَوْن ربَّكم عِيـاناً كمـا تَرْون هـذا القَمَر ، لا تَضَامّون في رؤيته »[٥] .

٥) **مراعاة الفروق الفردية في التربيـة** حيث كان رسول اللَّه يسمح للصغار بما لا يَسمح به للكبار ، فلما تزوج رسول اللَّه عائشة ـ وكانت صغيرة ـ كان عليه الصلاة والسلام يُسَرِّبُ ـ أي : يرسل ـ إليها بنات الأنصار يلعبن معهـا[٦] ؛

---

(١) مختصر صحيح مسلم برقم ٣٧٨ .
(٢) مسلم في الحج باب فرض الحج مرة .
(٣) مسلم في المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع .
(٤) البخاري في العلم باب من خص قوماً دون قـوم بالعلم .
(٥) البخاري في التوحيد باب ﴿ وجـوه يومئـذ نـاضرة ﴾ ، ومسلم في المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر .
(٦) البخاري في الأدب باب الانبساط للناس ، ومسلم في فضائل عائشة .

ولما قدم رسولُ اللَّه من غزوة تبوك أو خيبر هبت الرِيحُ فَكشفت ناحية الستر عن بناتٍ لُعَب لعائشة كنّ في سهوة بيتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما هذا يا عائشة ؟ قلت : ـ القائل هو عائشة ـ بناتي : ورأى عليه الصلاة والسلام بينهن فرساً له جناحان من رِقاعٍ ، فقال : وما هذا الذي أرى وسطهن ؟ قالت : فرسٌ ، قال : وما هذا الذي عليه ؟ قالت : جناحان ، قال : فرسٌ لَهُ جَنَاحَان ؟! قالت : أما سمعتَ أن لسليمان عليه السلام خيلاً لها أجنحة ؟ فضحكَ حتى رأيت نواجذه(١) . وإذا كان قد سُمِحَ للصغارِ باقتناء اللُّعَبِ فإنه لا يُسمح للكبار باقتنائها .

ويتسامح مع البدويِّ الجلف الغليظ بطبعه بما لا يتسامح به مع الحضري ، قال أنس بن مالك رضي اللَّه عنه : كنتُ أمشي مع رسولِ اللَّه وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذَه بردائه جَبْذَة شديدة حتى نظرتُ إلى صفحة عُنُق رسول اللَّه قد أثَّرت بها حاشيةُ البُرْد من شدة جبذتِهِ ، ثم قال : يا محمد ، مُرْ لي من مال اللَّه الذي عندك ـ وفي رواية : فإنك لا تحملُ لي من مالك ولا من مال أبيك ـ فالتفت إليه رسولُ اللَّه ثم ضحك ، ثم أمَرَ له بعَطَاء(٢) .

وتعامَلُ النساء بغير ما يعامَلُ به الرجال ، لأن المرأةَ أرقُّ إحساساً ، وألطف ملحظاً، فهي أقرب كسْراً، حتى شبَّهها الرسول صلى اللَّه عليه وسلّم بإناءِ الزجاج الجميلِ السهل الكسر الذي يحتاج إلى مزيد من العناية به حيث قال عليه الصلاة والسلام : « ارفق بالقوارير »(٣) وقال : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ، فإن

---

(١) أبو داود في الأدب باب في اللعب بالبنات .

(٢) البخاري في الأدب باب التبسم ، ومسلم في الزكاة باب اعطاء المؤلفة قلوبهم .

(٣) البخاري في الأدب باب المعاريض مندوحة من الكذب .

ذهبت تُقيمُه كسرتـه ، وإن تركتـه لم يزل أعـوجَ ، فـاستـوصـوا بـالنسـاء خيراً »(١) .

ويعامِلُ حديثَ الإسلامِ بغيرِ معاملة قديم الإسلام ، فقدْ جاء رجـلٌ إلى رسول اللَّه من أهلِ نجدٍ ثائر الرأس ، نسمَعُ دويَّ صوتِـهِ ولا نفقَهُ مـا يقول ، حتى دنا من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ، فإذا هو يسـألُ عن الإسلام ؟ فقال رسولُ اللَّه : خمسُ صلوات في اليومِ والليلةِ ، فقال : هل عليَّ غيـرهن ؟ قـال : لا ، إلَّا أن تـطوّع ، فقـال رســول اللَّه : وصيـامُ رمضان ، فقال : هل عليَّ غيره ؟ قال : لا ، إلَّا أن تطوَّع ، قال ، وذكر له رسولُ اللَّه الزكاة ، فقال : هـل عليَّ غيرهـا ؟ قال : لا ، إلَّا أن تـطوَّع ، قال : فأدبرَ الرجُلُ وهو يقول : واللَّه لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم : أفلح إن صدق(٢) .

ويعـامل حَسَنَ النيَّـة بغير مُعـاملة سيىء النية، ولـذلـك لم يعـاقب أسامة بن زيد على قتله رجلاً كافراً قـال : « لا إلَه إلَّا اللَّه » بعـد أن غشيه برمحه ، بل اكتفى بما يشعر أسامة بجسيم خطئه ، وجعل يقـول : « أقتلتَه بعدما قالَ لا إلَه إلَّا اللَّه » وما زال يكررها عليه الصـلاة والسلام حتى تمنى أسامة أنه لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم(٣) ، ليكون إسلامه كفارة لـه ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ويعامل الكرام من ذوي الهيئات إذا تمكن منهم الشيـطان في ساعـة ضعف فأطاعوه غيرَ معاملة الأسافل المجرمين ، وكان عليه الصلاة والسلام

---

(١) البخاري في النكاح بـاب المداراة مـع النساء ، ومسلم في الرضاع باب الوصية بالنساء .

(٢) البخاري ومسلم في الايمان .

(٣) انظر الحديث في البخاري في المغازي باب بعث النبي أسامة إلى الحرقات من جهينة، وفي مسلم في الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إلَه إلَّا اللَّه .

يقول : « أقيلوا ذَوي الهيئاتِ عَثَرَاتِهِم إلَّا الحدود »[١] .

٦) **عدم الاكثار من المواعظ** : إن كثرة المواعظ ينسي بعضها بعضاً ، ويورثُ الزهدَ بها وبالواعظ ، ولذلك فإن المربّيَ الحكيم هو الذي يسوق موعظة واحدة ثم يراقب تطبيقها ، حتى إذا ما نضج تطبيقها ساق موعظة أخرى ؛ والمربي الحكيم هو الذي لا يكثر مَجَالسَ الوعْظ والتوجيه ، ولا يواجه المربَّىٰ بالتوجيه والوعظ كلما رآه ، بل الذي يترك فرصةً للمربَّىٰ يلتقط أنفاسَه فيها ، وتنضج فيها التوجيهات والمواعِظُ في داخل نفسه ، وهكذا كان رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم وأصحابُه من بعده، فقد روى شقيق أبو وائل قال : كان عبد اللَّه ـ ابن مسعود ـ يذكّرنا كلَّ يوم خميس ، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إنا نحبُّ حديثك ونشتهيه، ولوددنا أن حدثتنا كلَّ يوم ، فقال : ما يمنعني أن أحدثَكُم إلَّا كراَهَةَ أن أمِلّكُم ، إن رسول اللَّه كان يتخوَّلُنا بالموعِظَةِ في الأيامِ كراهيةَ السَّآمة علينا[٢] ، وروي نحو هذا عن ابن عباس أيضاً[٣] .

٧) **اختيار الظرفِ المناسبِ للتوجيه** : إن اختيار المربّي الظرفَ المناسبَ للتوجيه يجعل التوجيه أكثر قبولاً ، وأكثر رسوخاً في النفس ، ولذلك كانت حكمة اللَّه تعالى في إنزاله الكثير من الآيات القرآنية حين حدوث أسبابها المهيئة لنزولها ، وكانت حكمةُ رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في إيراد الحديث الواعظ حين حدوث سببه ، وقد وضع العلماء الكتب في أسباب نزول القرآن الكريم ، وأسباب ورود الحديث ، ونذكر من ذلك أن حكيم بن حِزامٍ سأل رسول اللَّه شيئاً من المال فأعطاه ، ثم سأله شيئاً آخر ، فأعطاه ، ثم

---

(١) أبو داود في الحدود باب الحد يشفع فيه ، ومسند الامام أحمد ١٨٦/٦ .

(٢) مختصر صحيح مسلم برقم ١٥٨٤ والبخاري في العلم باب ما كان النبي يتخوّلهُم بالموعظة .

(٣) البخاري في الدعوات باب ما يكره من السجع .

سأله شيئاً آخر ، فأعطاه ، فأحبَّ رسول اللّه أن لا تفوت هذه الفرصة ـ فرصة الحرص على المال ـ دون توجيه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « يا حكيم إن هذا المالَ خضِرٌ حُلوٌ ، فمن أخذه بسخاوة نفسِه بورِكَ له فيـه ، ومن أخذَه بإشرافِ نفسِه لم يبارَكْ له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى »(١) .

٨) **تقديم الأهم على المُهِم** : لعل من أهم القـواعد التـربويـة قاعـدة تـرتيب الأولويات ، فلا يوجِّه المربي إلى نافلة مع ترك فريضة ، ولا يضيع وقته في تعليم أمر لا ثمرة له ، وهذا ما كان رسولُ اللّه يتبعه في تربيته لأصحـابه ، فقـد سألـه أعرابيّ : متى السـاعة ؟ ولكن الـرسول المـربي رأى أن العلم بالساعة لا يفيد شيئاً إن لم يرافقـه استعداد لهـا بالعمـل الصالـح ، فوجَّـه الأعرابي السائل إلى ما هو أولى بالسؤال عنه ، وهو السؤال عن العمل فقال له عليه الصلاة والسلام : وما أعددتَ لهـا ؟ فقال : لا شيء إلَّا أني أحبُّ اللّه ورسوله ، فقال : « أنتَ مع من أَحْبَبْت »(٢) .

٩) **التشجيع على الإكثار من الخيرات** : لأنه كلما كثرت نوازع الخير في النفس الإنسانية ، وكثر عملُ الخير في سلوك الإنسان وتصرفاته كلما كان ذلك عوناً له على إضعاف نوازع الشّرِّ فيه ، وهكذا يكون الشرُّ في اضمحـلالٍ حتى يتلاشى ، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله في سورة هود/ ١١٤ : ﴿ إن الحَسَناتِ يُذْهِبْن السيئات ﴾ .

١٠) **إنساءُ الخطيئة الماضيـة وقطعُ الصلةِ بها، والعيشُ في الحاضـر الخيِّر** : ولـذلك كـان عليه الصـلاة والسلام يقـول : « الإسـلامُ يَجُبُّ مـا قبله » ،

---

(١) البخاري في الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة ، ومسلم في الزكاة باب اليد العليـا خير من اليـد السفلى .

(٢) البخاري في الأدب باب علامة الحب في اللّه ، ومسلم في البر باب المرء مع من أحب .

وعاب رسول اللّه على رجل تذكيره رجلاً بما كان منه في الجاهلية .

وقال صلوات اللّه وسلامه عليه موجهاً إلى نسيان الماضي السيء : « ولا يقل أحدكم لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل قدّر اللّه وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »(١) .

١١) **الإعتماد على قاعدة الثواب والعقاب في التربية** ، وتقديم الثواب على العقاب ، لقوله تعالى في سورة الأنبياء/ ٩٠ : ﴿ إنَّهم كَانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيْراتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ فقد قدَّم سبحانه الاستجابة بعامِلِ الحُبِّ على الاستجابة بعامل الخَوْفِ ، لأن الاستجابة بعامل الخوف لا يرافقها انشراحُ الصدر ، والاستجابة بعامل الحب يرافقها التشوّق لاتيان المأمور به ، وانشراح الصدر به .

١٢) **لا عقوبة إلَّا عن تعمد للمخالفة** : إذا اضطر المربّي لاستخدام العقوبة فإنه لا يجوز له بحال من الأحوال إيقاعُ العقوبة إلَّا عند تعمُّدِ المخالفة ، لقوله تعالى في سورة الأحزاب/ ٥ : ﴿ وليسَ عَلَيْكم جُناحٌ فيما أَخْطَأْتُم به ولكنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكم ، وكان اللّهُ غَفُوراً رَحيماً ﴾ .

١٣) **لا عقوبة بعد التوبة المخلِصة** : لأن غايةَ العقوبة الاقلاع عن الذنب وعدم العودة إليه ، فإذا تحقق ذلك فلا حاجة إلى العقوبة ، فقد أتى رجلٌ رَسولَ اللّه فقال : يا رسولَ اللّه أصبتُ حداً ، فأقم فيَّ كتابَ اللّه ، فقال عليه الصلاة والسلام : أليس قد صَلَّيْتَ معنا ؟ قال : نعم ، قال : فإنّ اللّه قد غفر لك ذنبك ، أو قال : حَدَّكَ(٢) .

وَحَدَثَ أن امرأةً وقع عليها في سواد الصبح - وهي تعمد إلى

---

(١) أخرجه مسلم في القدر .

(٢) البخاري في الحدود باب : أقر بحد ولم يبين ، ومسلم في التوبة باب إن الحسنات يذهبن السيئات .

المسجد ـ بمكروه على نفسها ، فاستغاثت بهم ، فأدركوا الرجُلَ الذي كانت استغاثت به ، فأخذوه ، وسبقهم الآخرُ ، فجاءوا به يقودونه إليها ، فقال : أنا الذي أغثتُكِ وقد ذهب الآخر ، قال ، فأتوا به نبي اللَّه ، فأخبرته أنه الذي وقع عليها ، وأخبَرَ القومُ أنهم أدركوه يَشْتَدُّ ، فقال : إنما كنتُ أغَثْتُها على صاحبها ، فأدركني هؤلاء فأخذوني ، فقالت : كَذَبَ ، هو الذي وَقَع عليّ ، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلّم : « انطلقوا به فارجموه » فقام رجلٌ من الناس فقال : لا ترجُموه وارجموني فأنا الذي فعلتُ بها الفعلَ ، فاعترفَ ، فاجتمع ثلاثةٌ عند رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ، الذي وَقَعَ عليها ، والذي أغاثَها ، والمرأة ، فقال : أما أنتِ فقد غُفِرَ لك ، وقال للذي أغاثها قولاً حسناً ، فقال عمر : أَرْجُمُ الذي اعترف بالزنى ؟ فأبى رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم، قال: لأنه تاب إلى اللَّه(١) .

١٤) التجاوز عن هفوةِ كثيرِ الإحسان : إذا كان الشخصُ كثيرَ الخير كثير الإحسان فكانت منه زلَّةٌ في ساعة ضعف ، أو خطأٌ في الاجتهاد أو نحو ذلك ، فإنه يُتجاوَزُ عنه لأن الحسناتِ يذهبْنَ السَّيِّئات ، والمفروض في الإنسان ـ غير الأنبياء ـ أن لا يكون معصوماً ، وقد رأينا رسولَ اللَّه بريءَ ممّا صنَعَ خَالدٌ ببني جذيمة وقال : « اللهم إني أبرأ إليكَ مما صنع خالد » ولم يآخذه به لحسن بلائِه ونصره للإسلام(٢) .

١٥) اختيار أخف التكاليف على المربّي والبدء بها تيسيراً عليه ، لأن هذا الدينَ يُسْرٌ وليس بعُسْر ، وطالما أنه دين يسر ، فالمربي مأمورٌ بتيسير أمرِ التربيةِ على المربَّىٰ ، وقد كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يوجِّه المربين

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية العدد ١٦ .

(٢) مجلة البحوث الإسلامية العدد ١٦ ص ١٨ .

ويقـول لهم : « يَسِّروا ولا تُعَسِّـروا ، وَبَشِّروا ولا تنفـروا »[١] و « ما خُيِّـرَ رسولُ اللَّه بين أمرين قطُّ إلَّا أخذ أيسرَهُما ما لم يكن إثماً »[٢] .

١٦) **التقويم الذاتي** : لقد فرض الإسلام على الفرد أن يتولى هو بذاته تهذيبَ نفسه وإصلاحَها ، وتقويمَ تصـرفاتـه ، واعتبره المسؤولَ الأول عن ذلـك فقال تعالى في سـورة الشمس ٧ ـ ١٠ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ .

- وأول مـرحلة من مـراحـل إصـلاح الـذات « **المحـاسبـة** » وهي تقييم للأعمال التي عملها الإنسان ، فإن كانت خيراً حمد اللَّه ، وإن كانت غير ذلك استغفر اللَّه وتاب وأناب ، وقد كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم كثير المحاسبة لنفسه ، كثير الاستغفار لربه على الرغم مما منحه اللَّه تعـالى من العصمة ، ولـذلك اعتبـر عليه الصـلاة والسـلام دوام محاسبة النفس عنوان صلاح المؤمن ، فقال ﷺ : « الكيِّسُ من دانَ نفسه ـ أي : حاسبها ـ وعمل لما بعد الموت ، والعاجزُ من أتْبَعَ نفسَه هواها وتمنى على اللَّه »[٣] .

- والمرحلة الثانية في إصلاح الـذات « **جهاد النفس** » ومنعهـا من اتباع خطوات الزيغ والضلال ، وإقـامتها على الحقّ والفضيلة ، وقـد اعتبر رسـولُ اللَّه هذا هـو الجهاد الحق فقـال صلوات اللَّه وسلامـه عليه : « المجاهدُ من جاهَدَ نفسه »[٤] .

١٧) **الاستمرار في العطاء وعدم استعجال قطف الثمار** : إذا كانت التربيةُ تهذيبَ

---

(١) البخـاري في العلم باب مـا كان النبي يتخـولهم بالموعظة ، ومسلم في الجهاد باب التيسير .

(٢) البخاري في الأدب باب يسروا ولا تعسروا .

(٣) الترمذي في صفـات القيامـة وأحمد في المسنـد ١٢٤/٤ .

(٤) الترمذي في فضائل الجهاد باب فضـل من مات مرابطاً ، وأحمد في المسند ٢٢/٦ .

النفس والسلوك فإننا لا ننتظر أن يتم ذلك في يوم وليلةٍ ، فالنفسُ تُسقىٰ التَّرْبِيَةَ قطرةً فقطرةً ، حتى تتفتح أزهارُها ، ويفوح أريجُها ، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم استمرَّ في مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة وهو يمارِسُ تهذيبَ النفوسِ وتقويمَ التصرّفات ، ثم تابع مسيرة التربية التي بدأها في مكة إلى أن صعدت روحُهُ إلى بارئها عز وجل ، وكان شعاره في ذلك سورة العصر ﴿ والعَصْرِ * إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ * إلاَّ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ ﴾ .

٤ - بعض الوسائل التربوية التي كان الرسول يستعملها :

١) **النقد الذاتيّ**: من الأمور الأساسية في التربية محاولة المرء اكتشافَ أخطائه بنفسه ، ثم محاولته إصلاح هذه الأخطاء ، وهذا ما شجع عليه رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم عندما وجَّه المسلمين إلى محاسبة أنفسهم في الدنيا قبل أن يحاسبَهم اللَّهُ في الآخرة ، ثم إصلاح ما فسد من أعمالهم ، والاستزادة مما صلح منها ، وعلى هذا ربَّىٰ رسولُ اللَّه صحابتَه رضوان اللَّه تعالى عليهم ، كما تقدم في الحديث عن التقويم الذاتي .

٢) **التحويل** : ونريد بالتحويل : محاولة نقل المربي الشخصَ الذي يريد تربيته من صفة ذميمة إلى صفة حسنةٍ تصرِفُه عن تلك الصِّفَةِ الذميمة ، وهذا الأسلوبُ كانَ رسولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يستعمله ويُرشد إليه .

فالغضبُ طاقةٌ تتولدُ في النفس إن بقيت محبوسةً في النفس آذتها ، وقد تؤثِّر على بعضِ الأعصاب فتحرقها وتعطلها عن العمل ، لذلك كان لا بد من تصريفها ، وتصريفُها قد يكون بالكلام ، وقد يكون بالحركة ، فإذا خرجَ الكلامُ عَشْوائياً كان سَبّاً وشتماً . . . وإذا انطلقت الحركة عشوائيةً كانت ضرباً وكسراً . . . وذلك تخريبٌ وتدميرٌ ، وذلك لا يليقُ بمسلم ، ولذلك كان رسولُ اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه يوصي باستبدال ذلك

الكلامِ العشوائي المخرَّب بكلامٍ مدروسٍ بنّاءٍ مُهَدِّىءٍ ، قال سليمان بن صُرَد : استبَّ رجلان عند النبيِّ صلى اللَّه عليه وسلّم ، ونحن عنده ، فبينما يسبّ صاحبَه مغضباً قد احمرَّ وجهه ، قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم : «إني لأعلَمُ كلمةً لو قالَها لـذهبَ عنه الـذي يجدُ، لـو قال: أعـوذ باللَّه من الشيطان الرجيم ذهبَ عنه ما يَجدُ »[١] ، ويُوصي باستبدالِ الحركةِ العشوائية بحركةٍ مدروسة مهدِّئة مبعِدَة الغاضبَ عن التصرف الضار ، بأن يجلس إن كان قائماً ، أو يستلقي ويسترخي إن كان غضبه أشدّ ، أو يتوضأ بالماءِ الباردِ لتعين برودةُ الماءِ على إذهابِ ثورةِ الدَّمِ ونحو ذلك ، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « إذا غضبَ أحدُكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهَبَ عنه الغَضَب وإلاّ فليضطجع »[٢] ويقول : « إذا غضبَ أحدُكم فليتوضأ »[٣] .

ومن التحويل أيضاً : أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم كان ينصح الشبابَ إذا اشتدت عليهم وطأةُ الجنس ، وكثر تفكيرهم فيه ولم يكن باستطاعتهم الزواج بسبب ضيقِ ذاتِ اليد أو لأسبابٍ أخرى ، كان عليه الصلاة والسلام ينصحهم بالصيام ، لأن الصيام يكسر حدة الشهوة بتقليله الغذاء المولِّد لها ، ويتحول به التفكير من التفكير بالجنس إلى التفكير بعبادة الصيام التي هو فيها ، قال ابن مسعود : كنا مع رسول اللَّه شباباً لا نجد شيئاً ، فقال لنا النبيُّ صلى اللَّه عليه وسلّم : « يا معشر الشبابِ من استَطَاعَ منكم الباءَةَ فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبَصَرِ وأحصنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وِجَاء »[٤] .

---

(١) البخاري في الأدب باب الحذر من الغضب ، ومسلم في البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب .

(٢) أبو داود في الأدب باب ما يقال عند الغضب .

(٣) أبو داود في الأدب باب ما يقال عند الغضب .

(٤) البخاري في الصوم ، ومسلم في النكاح ، والترمذي في النكاح باب فضل التزويج والحث عليه ، واللفظ للترمذي .

٣) **التكـرار** : وهو وسيلة مهمة من وسائلِ التربية ، لأن تكرارَ الشيءِ ـ قولاً أو فعلاً ـ يرسِّخُه في أعماقِ النفس ، فينطلق خُلُقاً في الإنسان ، ومن هنا كان التركيز على بعض الأقوالِ والأفعال في الإسـلام ، منها قـول « اللَّه أكبر » فهي تكرر مرات في الأذان، ومرات في الإقامة، ومرات في الصلاة مع كل حركة من حركاتها ، ومرات في الذكر بعد الصلاة ، عدا تكرارها في الأذكار الأخرى .

إنها بتكرارها تغرس العزة في أعماق النَّفْس ، وتعمُـرُ العقلَ البـاطنَ بها ، وأن لا طاعة إلَّا للّه ، وإن كلَّ ظالمٍ حقيرٌ ، وكلَّ متكبر صغيرٌ ، وأنَّ الكُلَّ في قبضةِ اللَّه تعالى ، وأن القوة للّه جميعاً .

ومنها : تكرار الصلاة في اليوم مرات ، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ومنها : تكرار الاستغفار ـ وهو في حقيقته إقلاعٌ عن الذنب مع نـدم على ارتكابه، وعزمٌ على عدم العودة إليه ، فقـد قال عليـه الصلاة والسـلام موجِّهاً : « يا أيها الناسُ توبوا إلى اللَّه واستغفروه، فإني أتوبُ في اليوم مائـة مرة »(١) .

ومـا زالت الأمم اليـومَ تعتمـدِ على تكـرار تـرديـد بعض الشعـارات لترسيخها في قلوب شعوبها .

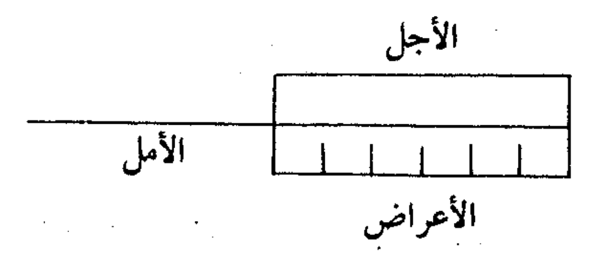
٤) **التأني في الحديث** : على المربّي أن يتكلم بكلامٍ فصيح بيِّنٍ ، يفصلُ بين أفراد كلماته ليستطيع السامعُ فهمَ ما يُقال ، وليسهلَ عليه حفظ ما يقال ، وقد جاء في وصف كلام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم ما قالته السيدة عائشة رضي اللَّه عنها : « ما كان رسولُ اللَّه يسرد كسردِكم هذا ، ولكنه كان يتكلمُ

---

(١) مسلم في الذكر باب استحباب الاستغفار ، وأبو داود في الصلاة باب الاستغفار .

بكلامٍ يُبيِّنُه، فَصْلٍ ، يحفظه من جلس إليه »(١) .

٥) **الاستعانة بالرسوم التوضيحية:** قد يستعين المربي بالرسوم لإيضاح فكرة يريد إيصالها إلى السامع ، وقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يفعلُ ذلك عندما يرى أنه محتاج إلى هذا فقد روى عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم خطَّ خطاً مربعاً ، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه ، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط ، من جانبه الذي في الوسط ، فقال : « هذا الإنسان ، وهذا أجلُه محيط به ، وهذا الذي هو خارج أملُه ، وهذه الخُطُط الصغار : الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأ هذا نهشه هذا »(٢) .



وأراد رسول اللّه أن يوضح لبعض الصحابة الآية ١٥٣ من سورة الأنعام وهي قوله تعالى : ﴿ وأَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتَّبِعوه ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سَبيلِهِ ﴾ فخط رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم خطاً بيده ثم قال : « هـذا سبيلُ اللّه مستقيماً » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلاَّ عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ : ﴿ وأَنَّ هَذَا صِراطي مُستقيماً فاتَّبِعوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُل فتفرَّقَ بكم عن سَبيلِهِ ﴾(٣) .

سبيل الله

سبيل الشيطان

---

(١) الترمذي في المناقب .

(٢) البخاري في الرقاق باب الأمل وطوله ، والترمذي في الزهد باب أمل الانسان وأجله .

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٤٦٥ وتفسير ابن كثير ٢/١٩٠ وتفسير القرطبي ٧/١٣٧ .

٦) **الاستعانة بالحركة** : لأن الحركة مع الكلام تعطي للكلام معنى خاصاً ، وتجعله أكثرَ رسوخاً في النفس ، وقد تعبِّرُ الحركةُ عن معانٍ لا تستطيع الكلمةُ التعبيرَ عنها ، ومما أُثِرَ عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم في ذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم قال : « بعثتُ أنا والسَّاعة كهاتين كفضلِ إحداهما على الأخرى » وضمَّ السبَّابة والوسطى[١] ، وبهذا الاقتران بين الاصبعين تقترن الصورةُ المشاهدةُ مع الصورةِ المتخَيَّلَة المنتزَعَة من الكلمات ، فقوَّت الواحدةُ منها الأخرى .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً » وشبَّك بين أصابعه[٢] فكان هذا التشبيك بين الأصابع منه عليه الصلاة والسلام معبراً عن مَدىٰ القوة التي يحققها المسلمون بتكاتفهم وتعاونهم .

وقال أبو بَكْرة رضي اللَّه عنه قال : كنا عند رسولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم فقال : « ألا أنبئكُم بأكبر الكبائرِ ؟ - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول اللَّه ، قال : الإشراكُ باللَّه ، وعقوقُ الوالدين ، ألا وشهادة الزور وقول الزور - وكان متكئاً فجَلَسَ - فما زال يكررُها حتى قلنا : ليته سكت[٣] . فجلوسه عليه الصلاة والسلام بعد أن كان متكئاً ، عندما وصل إلى شهادة الزور ، ليدل على مدى أهمية وخطورة شهادة الزور ، وتكراره عليه الصلاة والسلام لقوله : « ألا وشهادة الزور وقول الزور » مراراً كثيرة يدل أيضاً على مدى أهمية وخطورة شهادة الزور التي يُنصَرُ بها الباطلُ ويُضَيَّع بها الحق ، وقد

---

(١) البخاري في الرقاق باب بعثت أنا والساعة كهاتين ، ومسلم في الفتن باب قرب الساعة ، والترمذي في الفتن باب بعثت أنا والساعة كهاتين .

(٢) البخاري في المظالم باب نصر المظلوم ، ومسلم في البر باب تراحم المؤمنين .

(٣) البخاري في الشهادات باب شهادة الزور ، ومسلم في الايمان باب بيان الكبائر .

تقدم حديثنا عن أهمية التكرار من الناحية التربوية وآثاره النفسية .

٧) **البيان العَمَليّ** : البيان العملي هو تنفيذُ المربّي التصرفَ ـ الذي يَطْلبُ من المربّىٰ فعله ـ على الوجه الأمثل ، وقد كان رسولُ اللّه يستعمل هذا الأسلوبَ في كثير من الأحيان ، فإنه عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يعلم المسلمين الصلاة صعد إلى مكان مرتفع حتى يراه الجميع ، وأدى الصلاة أمامهم وهم ينظرون ، ثم قال لهم : « صلُّوا كما رأيتموني أصلي »[1] .

بل إذا أرَدْنا أن نأخذ الأمور على حقائقها لقلنا أن حياةَ رسولِ اللّه صلى اللّه عليه وسلّم كانت بياناً عملياً لشريعة الإسلام ، ولذلك فإن السيدة عائشة رضي اللّه عنها لما أرادت أن تصِفَ خُلُق رسولِ اللّه لم تجد تعبيراً أدق من أن تقول : كان خُلُقُه القرآن .

٨) **الحِوار** : ومن المفيد أن يلجأ المربّي إلى أسلوب الحوار مع المربّىٰ لغرس قيمة مّا ، وطرح هذه القيمة عن طريق الحوار أنفع من طرحِها طرحاً مباشراً ، لأن الحوار قد يكشف عن أخطاء عند المربّىٰ ، فيُصحِّحُها له المربّي ، فقد سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم أصحابه فقال لهم : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : إن المفلسَ من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي وقد شتم هذا وقذفَ هذا وأكلَ مَالَ هذا وسفك دمَ هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناتِه ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يقضيَ ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار »[2] وبهذا الحوار كشف رسول اللّه عن خطأ في فهمٍ ، إذ كان عليهم أن يكون فهمهم أكثر عمقاً .

وسأل رجل رسولَ اللّه فقال : أستأذِنُ على أُمّي ؟ فقال : نعم ،

(١) البخاري في الجماعة باب الاثنان فما فوقهما جماعة .

(٢) مسلم في البر باب تحريم الظلم .

فقال : إني معها في البيت ، فقال رسول الله : استأذن عليها ، فقال الرجل : إني خادمُها ؟ فقال رسول الله : استأذِن عليها ، أتحب أن تراها عُريانَة ؟ قال : لا ، قال : فاستأذن عليها(١) ، وبهذا الحوار اكتشف رسول الله أن هذا الصحابي لم يدرك علّة منع الدخول على الأهل بغير استئذان ، فَبَيِّنَها له صلوات الله وسلامه عليه .

٩) **القصة** : قد يتم توجيه المربَّى بالقصة ، فيتعظ بحوادثها ، وقد يتخذ بعض أبطالها قدوة له في بعض التصرفات فيقتدي بهم ، ولذلك يجب أن تنتقى القصةُ بعناية فائقة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم كثيراً ما يوجِّه بالقصة ، من ذلك :

تكريهه الخيلاء في قصّةٍ ذكرها الرسول بقوله : « بينما رجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ، تُعجبُه نفسه ، مُرَجِّلٌ شعرَه، يختالُ في مِشْيَتِهِ ، إذ خَسَفَ اللَّهُ به ، فهو يتجلجلُ في الأرض إلى يوم القيامة »(٢) .

وترغيبه بالإحسان للحيوان في قصة ذكرها صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « بينما رجُلٌ يمشي بطريقٍ اشتد عليه العطَشُ ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشربَ ، ثم خرج ، فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثرى من العطش ، فقال الرجُلُ : لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفَّه ماءً ، ثم أمسكه بفيه حتى رقِيَ ، فسقى الكلبَ ، فشكر الله له ، فغفر له » وقد أدركَ الصَّحابَةُ ما يرمي إليه الرسولُ من قصته هذه ، فأرادوا أن يؤكدوا هذا المعنى الذي فهموه فقالوا : يا رسول الله إنّ لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : « في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجر »(٣) .

ومن ذلك إشارته إلى ما تحبه المرأة من زوجها في حديث أم

---

(١) الموطأ في الاستئذان .

(٢) البخاري في اللباس ، باب من جرَّ ثوبه من الخيلاء، ومسلم في اللباس باب التبختر في المشي.

(٣) الموطأ ٢ / ٩٢٩ وأبو داود في الجهاد باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم .

زرع[١] ، وغير هذا كثير في سيرته عليه الصلاة والسلام وفي حديثه .

١٠) **القُـدوَة** : لا بد للمربِّي من أن ينصبَ للمربّى قدوةً يقتدي بها ، وقد يَكون هذا الذي ينصبه له قُدوَةً هو قدوةٌ له في كل شيء كما نصبَ اللَّه سبحانه رسولَه محمداً صلوات اللَّه وسلامه عليه للمسلمين قـدوة في كل شيء ، فقال جلَّ شأنه في سورة الأحزاب/ ٢١ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، وقد يكون هذا الذي ينصبه قدوةً هو قدوةٌ لـه في تصَرف معين كما نصب اللَّه سبحانه إبراهيم عليه السلام قدوة في تبرئته من عقائدِ المشركين وتولّيه اللَّهَ، فقال تعالى في سورة الممتحنة/ ٤ :﴿قد كَانَتْ لَكم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهيمَ والذين مَعَهُ إذ قالوا لقومِهِمْ إنا بُـرَآءُ منكم ومما تعبدونَ من دونِ اللَّهِ ، كَفَرْنا بكُم ، وَبَدَا بيننَا وبينكُم العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أبداً حتى تُؤْمِنُـوا باللَّه وحـدَه . . . ﴾ ونصب رسولُ اللَّه الأشعـريين قـدوة في التكافل فيمـا بينهم فقال : « إن الأشعـريين إذا أرمَلوا في الغزو ، أو قَـلَّ طعامُ عيالِهم في المدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحد بـالسويّـة ، فهم مني وأنا منهم »[٢] . ونصب الأُسْـدَ والأشعريين قدوة في الأمانة فقال : « نعم الحيِّ الأَسْدُ والأشعـريون ، لا يفِرّون في القتال ، ولا يَغُلُّون ، هم مني وأنا منهم »[٣] .

١١) **المصاحبـة** : إن الوسط الذي يعيش فيه المرء له تأثير ظاهر على سلوكه ، لأن المرء يتأثر بمن حوله من الناس ، ولذلك نبَّه عليه الصلاة والسلام إلى أهميـة الصحبة فقـال : « إنما مَثَـلُ الجَلِيسِ الصـالِحِ والجليس السوءِ كحامِلِ المسكِ ونافخِ الكير ، فحاملُ المسك إما أن يُحذِيَك ، وإمّـا أن

---

(١) انظر الحديث في البخاري في النكاح باب حسن المعاشرة ، وفي مسلم في فضائل الصحابة باب حديث أم زرع .

(٢) البخاري في المشاركة في الطعـام ، ومسلم في فضائل الأشعريين .

(٣) الترمذي في المناقب ، باب ثقيف وبني حنيفة ، ومسند أحمد ٤/ ١٢٩ .

تبتاع منه ، وإما أن تجدَ منه ريحاً طيبةً ، ونافخُ الكير إما أن يَحرقَ ثوبكَ ، وإما أن تجدَ منه ريحاً خبيثة »(١) .

ولعل تبديل الوَسَط وتبديل الرِّفقَةِ للمجرم بوسَط صالح ورفقةٍ صالحةٍ من أول شروط إصلاحه ، وقد نبه الرسول إلى ذلك في قصة ذلك الرجل الذي كان يعيش في وسَطٍ سيءٍ ، فجارى صحبَه في السوء والجريمة ، فلما أراد التوبةَ نُصحَ بتبديل الوَسَطِ الذي يعيش فيه ، والرفقةَ الذين يصاحبُهم برفقةِ خيرٍ وصلاحٍ ، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي اللَّه عنه أن نبي اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم قال : « كان فيمن كان قبلكم رَجُلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نَفْساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرضِ ؟ فدُلَّ على راهبٍ فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من تَوبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، فكمَّل به مائة ، ثم سأل عن أعلمِ أهل الأرض ؟ فدُلَّ على رجلٍ عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحولُ بينه وبين التوبة ؟ ، انطلِقْ إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها ناساً يعبدون اللَّه ، فاعبد اللَّه معهم ، ولا ترجع إلى أرضكَ ، فإنها أرض سوء . . . »(٢) .

١٢) **تصحيح الخطأ من غير ذكر أهله** : لأن المقصد هو تعريف المخطىءِ أن فعلَه لا يحلّ ليقلعَ عنه ويتركه ، وهذا يتحقق بنقد الأفعال الخاطئة دون ذكر أصحابها ، ولأن ذكر المخطىء بخطئه على ملأٍ من الناس تشهيرٌ به ، وهذا قد يؤدي إلى الحقد على المَشَهِّر ، أو إلى تحدثه بعيوب الناس وأخطائهم تبرئة لنفسه أو تهويناً بخطئه ، ولأن مواجهة المربِّي المربَّى بخطئه يُخجل المربىّ ويُحرجه ، وهذا أمر ليس مقصوداً بذاته في التربية ،

---

(١) البخاري في البيوع باب في العطاء وبيع المسك ، ومسلم في البرّ باب استحباب مجالسة الصالحين .

(٢) البخاري في الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم في التوبة باب قبول توبة القاتل .

بل المقصود هو إصلاح الفرد ، فلا حاجة إذن إلى الإحراج ، ولذلك كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم يستعمل أسلوبَ التنبيه على الأخطاءِ دون ذكر أهلها ، فقد روت السيدة عائشة رضي اللَّه عنها قالت : صنع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم شيئاً ، فرَخَّصَ فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك رسولَ اللَّه ، فخطب ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال : « ما بالُ أقوامٍ يتنزَّهون عن الشيءِ أصنعُهُ!! فواللَّه إني لأعلمُهم باللَّه، وأشدُّهم له خَشْيَة »[1] .

وعلم رسول اللَّه بأناس يصلُّون لا يحسنونَ الوضوء ، فلم يواجههم بأخطائهم ولم يشهّر بهم ، بل قال : « ما بالُ أقوامٍ يصلُّون معنا لا يحسنون الطهور. . . »[2] .

ورأى عليه الصلاة والسلام ناساً يتخلفون عن صلاة الجماعة ، فلم يواجههم بتخلفهم ، ولم يشهِّر بهم ، بل قال عليه الصلاة والسلام : « أثقلُ صلاةٍ على المنافقين صلاةُ العِشاء وصلاةُ الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتَوْهما ولو حَبْواً ، ولقد هممت أن آمرَ بالصلاة فتقامَ ، ثم آمر رجلاً فيصلّي بالناس ، ثم انطلق معي برجال معهم حِزَمٌ من حطب إلى قومٍ لا يشهدون الصلاةَ فأحرِّقَ عليهم بيوتَهم بالنار »[3] .

١٣) **التكلم بالحكمة المجرَّدة** : على المربي أن يكون كلامُه متزناً هادِفاً ، وأن يكون كثيرٌ من كلامه حِكَماً تلخِّصُ تجاربَه وتجاربَ الأمم والأقوام ، وكذلك هو كلامُ الأنبياء عليهم السلام ، لأن هذه الحِكَم تقع موقعها من نفس المربّىٰ ، وغني عن البيان أن الحكمة يجب أن تكون مصوغة في عِبارة

(١) البخاري في الأدب باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، ومسلم في الفضائل باب علمه صلى اللَّه عليه وسلم وشدة خشيته .

(٢) النسائي في الافتتاح باب القراءة في الصبح .

(٣) البخاري في صلاة الجماعة باب وجوب صلاة الجماعة ، ومسلم في المساجد باب فضل صلاة الجماعة .

مختصرة قوية ، ليسهل حفظها ، ولتأخذ مكانها في نفس المربّى . وقد كان جُلُّ كلام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم حِكَماً ، نذكر من ذلك قوله صلى اللَّه عليه وسلّم : « مِنْ أفرى الفِرىٰ أن يُرِيَ الرجلُ عينيه ما لم يريا »[1] وقوله : « المصلّي يناجي ربَّه فلينظر بما يناجي »[2] وقوله : « رضىٰ الربِّ في رضى الوالد ، وسخطُ الربِّ في سخط الوالِدِ »[3] وقوله : « الساعي على الأَرمَلَةِ والمسكينِ كالمجاهد في سبيل اللَّه »[4] وغير ذلك كثير في كلامه عليه الصلاة والسلام .

١٤) **التوجيه المباشِر** : كثير من التربويين من يقلّل من شأن التوجيه المباشِر ، والحقّ أن التوجيه المباشر له دور كبير في التربية ، وانه لا خوف من استخدامه إذا كان المستخدِم له حكيماً ، بحيث ينتقي الظروفَ المناسبة لإلقائه ، أما إذا أسيىءَ استخدامه فقد لا يؤدي دوره ، بل قد يؤدي إلى نتائج عكسية لا يريدها المربي .

وقد كان رسولُ اللَّه يستخدم التوجيهَ المباشر ـ وإن كان استخدامه له قليلاً ـ وكان عليه الصلاة والسلام ينتقي الظروفَ التي تكون فيها النفوسُ مستعدةً لقبول هذا النوع من التوجيه ، ومن ذلك ما رواه ابن عمر قال : أخذ رسول اللَّه بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[5] ومن ذلك ما ذكره ابن عباس قال : كنت خلف رسول اللَّه يوماً ـ وفي رواية : رديف رسول اللَّه ـ فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ اللَّه يحفظك ، احفظ اللَّه تجده تُجاهك ، إذا سألتَ فاسأل اللَّه ، وإذا استعنت فاستعن باللَّه . . . »[6] فأنت ترى أن الرسولَ قد استغل

---

(١) البخاري في التعبير باب من كذب في حلمه .
(٢) الموطأ ١ / ٨٠ .
(٣) الترمذي في البر والصلة باب بر الوالدين .
(٤) البخاري في النكاح باب النفقات ، ومسلم في الزهد باب الاحسان إلى الأرملة .
(٥) البخاري في الرقاق باب كن في الدنيا كأنك غريب .
(٦) الترمذي في صفة القيامة .

ظَرْفَ ركوب ابن عباس خلفه على الراحلة وهي تسير بهم إلى مكان ما ، وكان عليهما أن يمضيا الوقت إلى حين الوصول بأي حديثٍ ، والنفوس مهيأة للسماع ، فبادر رسول اللَّه ابنَ عباس بهذا الحديث .

* * *

هذه بعضِ القواعدِ والأساليب التربوية التي استخدمها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم في تربية صحابته ، ولا أدلّ على صلاحية هذه القواعد والأساليب من النتائج الباهرة التي تمخضت عنها ، حتى كان جيلُ الصحابة هو خير الناس بشهادة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلّم عندما قال : « خيرُ القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »(١) .

---

(١) البخاري في فضائل أصحابِ النبي ، ومسلم في فضائل الصحابة .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة